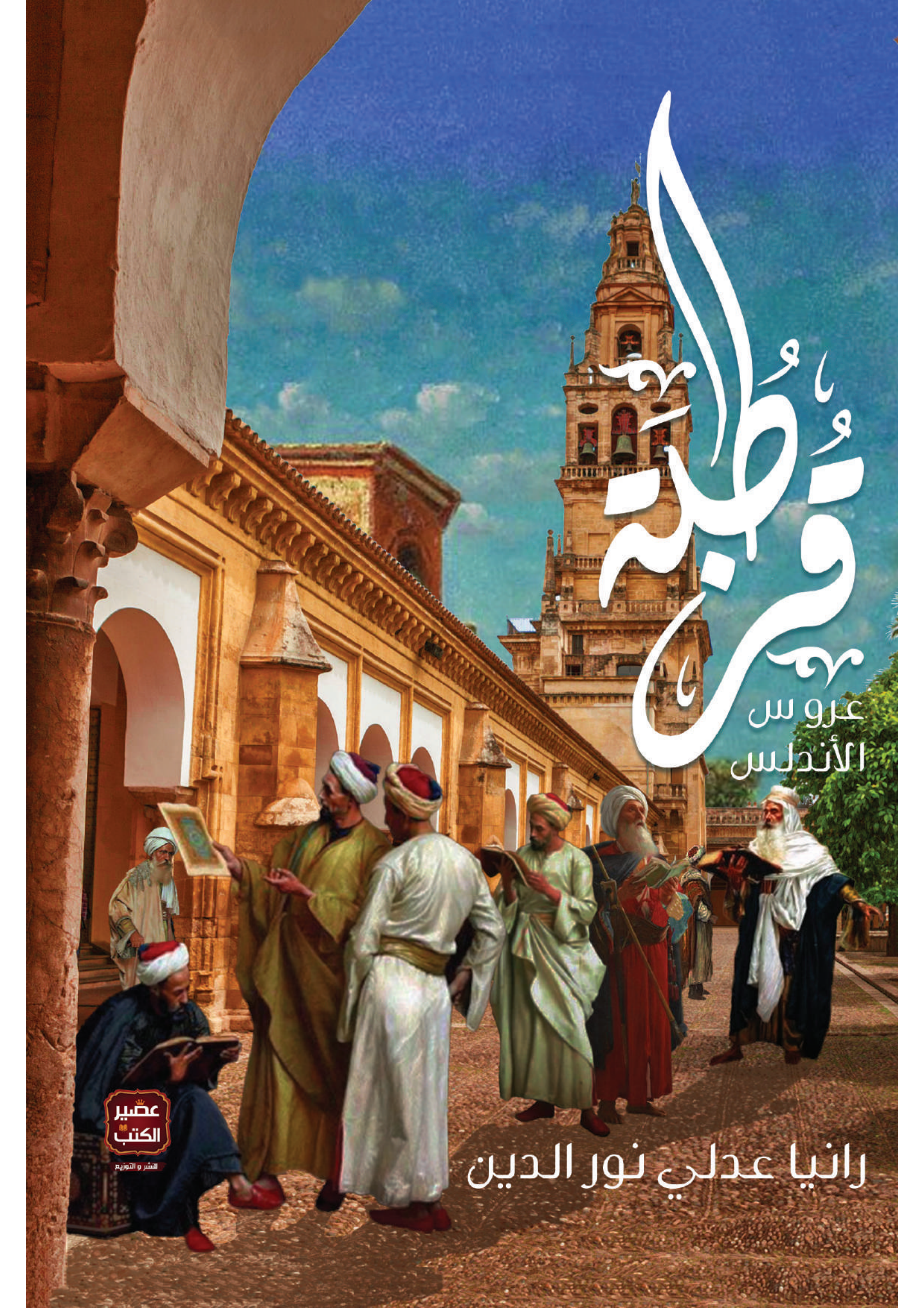

قرطبة
عروس
الأندلس
عصير
الكتب
للنشر و التوزيع
رانيا عدلي نور الدين

قرطبة
عروس الأندلس





الكتـــاب: قرطبة عروس الأندلس
المــؤلــف: رانيا عدلي
تنسيق داخلي: عمر جوبا
الطبعة الأولى: يناير 2020
رقم الإيـداع: 2019/28392
I. S. B. N: 978-977-992-079-5

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

قرطبة
عروس الأندلس

رانيا عدلي نور الدين



نجوم أضاءت سماء قرطبة

قرطبة جوهرة العالم

إهداء إلى:

مَنْ أَبت الحَيَاة طَرْحَهم أَرْضًا، وهُم أَبوا كُلَّ الإِبَاء إلَّا النُّهُوض، والبَدء مِنْ جَدِيد.

المقدمة

ينظر الكثير منا - نحن جيل الشباب والفتيات - إلى التاريخ على أنه بكاء على أطلال ماضٍ عفا عليه الزمان، وتَغنٍّ بأمجاد طوتها الأيام، تدرون لماذا؟ لأن الكثيرين ممن يتصدرون للحديث عن التاريخ أو الكتابة فيه (إلا مَنْ رحم ربي جل وعلا) يسطرون أحداثه وكأنها جدار صلب جامد لا يمكن له أن يتغير أو يتبدل، في حين أن الجدار ذاته - أي جدار - يتأثر بعوامل الزمان فتتغير معالمه وتتبدل، هنا ليس المقصود بالتغيير: تغيير التاريخ بمعنى التلاعب بالأحداث التاريخية؛ لأن هذا لا يدخل في إطار التغيير، وإنما يندرج تحت إطار التزوير، فالمقصود هو تغيير طريقة تناول أو سطر الأحداث التاريخية لمن يتصدرون لها.

لكي تتغير فكرة الكثيرين ممن ينظرون للتاريخ بهذه النظرة السلبية يقع على عاتقنا نحن جيل الشباب والفتيات ممن يهتمون ويعنون بالدراسات التاريخية أن نُعِيد كتابة التاريخ بحيث تعتمد على عنصرين رئيسين، هما:

الأول: المتعة؛ لأن الروح بطبعها تمل الجمود وتسأم الكآبة؛ لذلك فإن كتابة التاريخ تحتاج أن يضاف إليها البساطة والسلاسة

ممزوجة بالمتعة في طرحه وعرضه حتى يستسيغه الناس ويتقبلونه، ومن ثَمَّ يُقبلون عليه.

الثاني: الدروس أو العبر؛ بمعنى أن يأتي عرض المواقف التاريخية مصحوبًا باستخلاص الدروس والعبر الحياتية التي نستفيد منها في تحسين واقعنا، ومن ثَمَّ نستشرف بها مستقبلنا.

عند سَطْرِ التاريخ بهذه الطريقة حتمًا سيصل القارئ إلى نتيجة مفادها: أن البشر منذ القدم حتى يوم الناس هذا ليس بينهم تفاضل في الطبائع إلا في حالة قدرة الشخص أن يتغلب على الضعف الإنساني الذي يحمله بين طيات نفسه؛ بمعنى أن يظل البشر على مر العصور والأزمان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وفي النهاية حسابنا وحسابهم على الله، ومن ثَمَّ سيكون هذا دافعًا له للتعرف على التاريخ والغوص في أعماقه، ليس لأجل الترف العلمي والمعرفي فحسب، بل عملًا بقول القائل:

ليس بإنسانٍ ولا عالمٍ ... من لا يعي التاريخ في صدره

ومن درى أخبار من قبله ... أضاف أعمارًا إلى عمره

إضافة الأعمار إلى عمر الإنسان هنا لا تكون بحساب الأيام والشهور والسنوات، وإنما بحساب التجارب والخبرات، هذه التجارب والخبرات التي يضيفها الشخص إلى نفسه عند تدبره لمواقف أشخاص آخرين، ومعرفته كيف تعاملوا مع مثل هذه

المواقف التي من الممكن أن يتعرَّض لها أي شخص في أي زمان أو مكان، ومن هنا سيكتشف الشخص أن لديه من رصيد التجارب والخبرات ما يجعله يملك القدرة والوعي الكافي أن يتصرف في هذا الموقف أو ذاك بهذه الطريقة أو تلك لعلمه المسبق بما يؤدي إليه هذا الطريق أو ذاك.

بناءً على ما سبق فقد تم التطرق في هذا الكتاب إلى الحديث عن البعض من الأعلام الذين أضاءوا سماء قرطبة خاصة، وسماء الأندلس والعالم الإسلامي آنذاك عامة، وذلك بما نشروه من علوم وآداب وفنون مختلفة ومتباينة، سواء كان هذا النشر عن طريق المصنفات التي تركوها لنا، أو عن طريق التعليم والتدريس في المساجد التي كانت تعج بها مدينة قرطبة، هذه المدينة العريقة التي أَضْحَتْ زمن حكام بني أمية عاصمة الأندلس، بل أصبحت تنافس في عظمتها الحضارية خاصة والعلمية عامة عظمة المدن الإسلامية الكبرى في المشرق، مثل: بغداد والإسكندرية والقيروان، هذا الازدهار الحضاري والعلمي الذي كان من نتائجه أن أَضْحَتِ الأندلس أحد المعابر الرئيسة لعبور الحضارة الإسلامية إلى العالم الأوربي آنذاك.

تم في هذا الكتاب الوقوف على العديد من المواقف التي حدثت في الماضي والتي قام بها علماء أجلاء وفقهاء عظماء، هذه المواقف التي سيلاحظ القارئ الكريم مدى تشابهها مع المواقف التي حدثت وتحدث في زماننا الحالي سواءً على مستوى الأفراد أو الجماعات أو حتى الدول، وسيتعرف كيف تعامل بعض الأشخاص مع هذه

المواقف بطريقة إيجابية، ومن ثَمَّ أوصلتهم إلى بر الأمان، وكيف تعامل آخرون مع هذه المواقف بطريقة سلبية، ومن ثَمَّ أودت بهم إلى التهلكة، وهنا سيأتي الدور علينا لنتعلم ونستفيد ونعرف معالم الطريق؛ لأننا إن لم نَسِرْ على هذا النهج في تَلَمس طرق النجاة، والبُعد عن مسالك التهلكة، لن يصبح التاريخ مجرد بكاء على أطلال وتغني بأمجاد فحسب، إنما ستصبح دراسته إهدارًا للوقت وضياعًا للعمر.

الجدير بالذكر أن ما تم استخلاصه أو استنتاجه من هذه المواقف الأندلسية من دروس وعبر حياتية والتي تتفق وواقعنا المعاصر لا يعني أن هذه العبرة أو هذا الدرس هو الدرس الوحيد المستخلَص من هذا الموقف أو ذاك؛ بل نهيب بالقارئ الكريم والقارئة الفاضلة أن يتأنَّوا في قراءة المواقف بإمعان وتدبر، ومن ثَمَّ يُخْرِجوا لنا ما توصلوا إليه من دروس وعبر نستفيد منها في واقعنا، ويشاركونا هذه الدروس والعبر التي قاموا باستخلاصها على مواقع التواصل الاجتماعي التي ستُدرَج في نهاية الكتاب.

وبعدُ لم أجد أبلغ من دعاء بعينه أستهلُّ به حديثي عن هذه المواقف وأغوص معكم في أعماقها، هذا الدعاء خُطَّ بيد العلامة الجليل ابن عذاري صاحب المُؤلَّف الجليل «**البيان المُغْرِب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمَغْرِب**»، حيث قال: «**جَعَلنا الله ممن نظر فاعتبر، ووعظ فازدَجر، فإن خَيْرَ ما شُغِلَت به الأذكار والأفكار، وتحدثت معه بالليل والنهار، حِفظ ما أفادَ من العلوم والأخبار، وإنَّ أولى ما رَيَّضْنا به النفوس البَشرية مُجالسة العلماء والأخيار، ومُذاكَرةُ الأُدَباء**

ذَوي الهِمَم وعُلُوِّ المِقدار، ففي مُجالستهم ومُذاكَرتِهم ما يَستحضرُ الذهْنَ وينوِّر الأفكار»؛ ثم تابع ابن عذاري دُرَره موضحـًا علاج من فَقَد صحبة العلماء والأخيار جسدًا، فقال: «**فإن فُقِدَت مجالستُهم فلا عِوَضَ منها غيرُ كتاب يتَّخذه جليسه، ويَجِدُه في كل وقت أنيسَه، ويتَنَسَّمه رَوْضًا يانع الأزهار، وإذا نظر اللبيبُ بفطنته إلى أصْناف العِباد، ومُخْتَلِف الآباد، أغْنَاهُ ذلك عن المشاهَدة، وقام له الاستماعُ مقَامَ المعايَنة والاسْتِخبار**».

رانيا عدلي نور الدين

باحثة دكتوراه في التاريخ الإسلامي

٢٠١٩/ ٢٠٢٠م

نجوم أضاءت سماء قرطبة

يحيى بن يحيى الليثي[1]

(عازل القضاة)

يحيى بن يحيى الليثي أصله من البربر، وينتمي إلى قبائل مصمودة، وهي إحدى أكبر وأعرق القبائل الأمازيغية، وكان سلفه يسكنون طنجة قبل أن ينتقلوا إلى الأندلس ويستوطنوها أيام الفتح الإسلامي لها.

رحلته في طلب العلم:

كان منذ صغره محبًّا للعلم، حيث كان يميل إلى الجلوس في حلقات العلم التي كانت تُعْقَد من قِبَل زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بـ «شبطون القرطبي»، قيل عن سبب طلب يحيى للعلم أنه كان يمر بزياد «شبطون» وهو يحدِّث أصحابه ويُملي عليهم ما في جعبته من علوم وآداب وفنون، فينجذب إليه، ويقعد بجواره

(١)ابن فرحون: الديباج المذهب، ج٢، ص٣٥٢؛ الخشني: أخبار الفقهاء والمحدثين، ص٣٤٨؛ ابن حيان الأندلسي: المقتبس، تحقيق محمود مكي، ص١٩٧؛ الحميدي: جذوة المقتبس، ص٥٦٦؛ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ج٢، ص٢٢٣؛ المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٩؛ القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج٣، ص٣٧٩؛ ابن سعيد: المغرب، ج١، ص١٦٣؛ عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ٣٨٨؛ عمر شلبي: عبد الرحمن الثاني (الأوسط)، ١٦٢-١٦٤.

للسماع منه، فأُعْجِبَ به زياد، وذات يوم اقترب منه وقال له: «يا بني، إن كنتَ عازمًا على التعلم، فخذ من شعرك، وأَصْلِحْ زِيَّك»، هذه كانت كلمات «شبطون» ليحيى، وبالتأمل والتدبر نلحظ أن كلمات «شبطون» لم تكن تحمل تَخْيير يحيى بين قبول العلم ورفضه بقدر ما كانت تحمل بين طياتها جذب يحيى نحو تحصيل العلم والسعي في طلبه.

السؤال: لماذا يلتفت شبطون ليحيى وهو الصبي صاحب الهيئة الرثَّة وغير اللائقة للجلوس في مجالس العلم - وإن كانت هذه الحالة بسبب قدومه إلى المجلس برداء العمل - وشبطون آنذاك العلامة الجليل الذي يقصده طلاب العلم والعلماء سواءً من كل حدب وصوب؟

الجواب: إن شبطون كان يملك من الوعي والفراسة ما مَكَّنَه من أن يرى خلف هذه الهيئة الرثَّة ليحيى ممثَّلة في الشعر المبعثر وزي الخدمة (العمل) غير النظيف شخصية تملك من النجابة والطموح الكثير؛ لذلك كان «شبطون» كحال مَنْ حصَّل كنزًا، لِمَ لا؟! ولو صدق حدسه، وأضحى يحيى عالمًا تُبث علومه في مشارق الأرض ومغاربها سيصبح كل ذلك في ميزان حسنات المعلم الأول له وهو «شبطون»؛ لأنه هو الأستاذ الذي بيَّن له معالم الطريق الذي ينبغي أن يسير فيه، والوجهة التي لا يليق به أن يحيد عنها أو يبغي بدونها سبيلًا، فتُرَى أي كنز تحوزه الدنيا بين أركانها أكثر قيمة من هذا الكنز؟

نظرًا للعلاقة الوطيدة بين الظاهر والباطن، أشار «شبطون» إلى يحيى أنه إذا ما أراد سلوك طريق طلب العلم وتحصيله والسير

فيه قدمًا، ينبغي له أن يبدأ بالخطوة الأولى ممثَّلة في إصلاح هيئته؛ وذلك لأن صلاح الداخل الذي يكون إحدى سُبله وأهمها السعي في طلب العلم وتحصيله لا بد له من ترجمة ممثَّلة في إصلاح الخارج وهندمته.

مبدئيًّا صدق حدس «شبطون»، حيث هرول يحيى لسماع نصيحته، وأصلح من حال نفسه، وتعهَّد أن يداوم على حضور مجالسه للأخذ عنه والتعلم منه، ففرح «شبطون» بذلك أيما فرح، وظل على عنايته ورعايته ليحيى حتى أضحى من أبرع تلاميذه وأنجبهم.

أضحى يحيى من أنجب تلاميذ شبطون وأخصهم، فكان يتعهده دائمًا بالوصايا، وكان من وصاياه له قائلًا: «**إن الرجال الذين حملنا العلم عنهم باقون، وعَجْزٌ بك أن تروي عمن دونهم**»، وكان يحيى على قدر الحمل، حيث حمل على عاتقه علم أعلام عصره ونثر عبيره في الأرجاء شرقًا وغربًا.

تخيل أن تكون سببًا في صنع شخصية يطوف علمها الأرجاء، بل يتعدى الأرجاء ويُنشر عبير علمها شرقًا وغربًا؛ لذلك حاوِلُوا جاهدين دعم المحيطين بكم ومن ترون فيهم علامات النجابة ممزوجة بالشغف والطموح، ادعموهم ولو بكلمة دعم، تحفيز، تشجيع، لعلهم يصلون يومًا إلى ما يطمحون، فيكون نجاحهم هذا يومًا ما في ميزان حسناتكم.

لم يقف دعم زياد ليحيى عند حد تلقينه العلم، ناهيك عن توجيهه ونصحه، بل تعدى ذلك إلى دعمه بالمال حتى يذهب لأخذ العلوم والآداب والفنون عن علماء المشرق، حيث اقترض زياد له مالًا،

ذهب به إلى المدينة وسمع من الإمام مالك والليث بن سعد، وكان عُمْرُ يحيى آنذاك ثمان وعشرين سنة، فسمع من مالك بن أنس كتاب «الموطأ» باستثناء أبواب في كتاب الاعتكاف شكَّ في سماعها، ونظرًا لشك يحيى في سماعه هذا الباب من الإمام مالك، وتَأَكُّده من سماعه من «شبطون»، ذكر أنه أخذه عن «شبطون».

وهذا الأمر إنما يدل على ما تمتع به يحيى من الأمانة والثقة في النقل عمن أخذ عنهم، فباب الاعتكاف هذا سواء أخذه يحيى عن «مالك» أو «شبطون» فهو ضمن موطأ مالك، فكان من الممكن ألا يقف عند هذا الأمر، ومن ثَمَّ يذكر أنه أخذ الموطأ كاملًا عن مالك دون استثناء هذا الباب، وإنما أَبَتَّ نفسه ذلك؛ لذلك نجده يحرص على ذكر سماع هذا الباب من «شبطون» وليس الإمام مالك؛ لمجرد شكه في سماعه وأخذه عن مالك.

بقياس ذلك على زماننا قد نُصاب باليأس وليس مجرد الخجل، وذلك لِكَمِّ السرقات العلمية التي يتم سرقتها دون وجه حق فضلًا عن نسبتها إلى أصحابها، فمثلًا ليس بغريب أن تسمع عن أن فلانًا أُجِيزت رسالته للماجستير أو الدكتوراه، ثم يُكتشف فيما بعدُ أنه نقلها حرفيًّا من رسالة أخرى سابقة له، وآخر يؤلف كتابًا ويقتطع أجزاءً كاملة منه دون نسبة هذه الأجزاء أو الإشارة إلى مصدرها، قد يكون هذا غريبًا، وإنما الأغرب أنه إذا تم كشف هذه السرقة العلمية، يأتي صاحبها ليسرد لك سيلًا من المبررات عن سبب عدم إثبات رجوعه لهذا المصدر الذي أخذ منه كمية هذه الاقتباسات، ومن أغرب هذه المبررات التي تم الوقوف عليها في زماننا أن صاحبها

يبرر سرقته تلك موضحًا أنه كان يكتب هذه المقتطفات في بطاقات حتى يلقيها في إحدى الورش التي يقوم بإلقائها، ونظرًا لأنه لم يكتب على هذه البطاقات المصدر الذي أخذ منه، نقلها في كتابه هكذا دون البحث عن مصدرها حتى يلحق بالمعرض وينشر كتابه.

أي هراء وصلنا إليه؟!

وبما أن الشيء بالشيء يُذْكَر، فهناك ظاهرة أخرى متعلقة بهذا الأمر، وهي أكثر ما تكون في محيط الباحثين والباحثات الذي تصدروا لسلوك طريق البحث الأكاديمي ممثلًا في الدراسات العليا ثم الماجستير والدكتوراه، كثيرًا ما نجد من هؤلاء الباحثين والباحثات مَنْ يُنَصِّب نفسه عالمًا فذًّا، هذه الباحثة أو الباحث الذي حاز الماجستير أو على أعتاب الحصول على الدكتوراه أو حتى حصل على الدكتوراه لتوه، وإذ به إذا قرأ عنوان رسالة ماجستير أو دكتوراه مشابه لعنوان آخر قرأه في جامعة أخرى، على الفور ينصِّب نفسه الحكم على هذه الرسالة أنها إحدى السرقات العلمية، دون أن يكلِّف نفسه الاطلاع عليها من قريب أو بعيد، فضلًا اطلع على الرسالة أولًا ثم اكشف عن رأيك بعدها! لعلك تتوصل إلى أنها أضافت جديدًا لم تصل إليه سابقتها.

كذلك نجد البعض من الباحثين والباحثات إذا ما عرض بحثًا أو ورقة بحثية في الجمعيات أو الندوات أو المؤتمرات التاريخية، إذ به يكيل الاتهامات أن هذه الأبحاث أو الأوراق البحثية قُتِلَت بحثًا فما يقال فيها لا يُضِيف جديدًا، دون أن يكلِّف خاطره أن يحضر مؤتمرات طرح هذه الأوراق لعله يجد فيها بعضًا من جديد لم

يتوصل إليه سابقوها، بل الأكثر من ذلك أنه يتخذ قرار مقاطعة هذه الجمعيات والمؤتمرات والندوات، إن كنتِ أو كنتَ لم تحصل من العلم إلا شهادة الماجستير وتفعل كل هذا، فكيف أنت إذا مَنَّ عليك المولى - جل وعلا - بالدكتوراه، والشروع في التأليف والتصنيف؟

حنانيكم إخواني وأخواتي، تذكروا جيدًا أنكم إن علمتم شيئًا فقد غابت عنكم أشياء، ومن هذا المنطلق اجعلوا هذه المرحلة مرحلة إعداد، مرحلة النهل من العلم الذي تتخصصون فيه، ونَحُّوا أنفسكم أن تصبحوا حكامًا عليه؛ لأنكم ما زلتم على أعتاب الطريق.

كان من المواقف التي توضح ما احتواه يحيى بين طيات نفسه من عقل وفكر ووعي أنه كان ذات يوم جالسًا في جملة أصحاب مالك، فقال قائل: قد حضر الفيل، فلم يكن من الطلاب والتلاميذ الذين كانوا يجلسون في حلقة الإمام مالك إلا الخروج مهرولين لرؤية الفيل، غير أن يحيى لم يخرج أو يتحرك من مكانه، وظل في مجلسه، وهنا لفت نظر الإمام مالك مما دفعه أن وجَّه حديثه له متسائلًا: ما لك لم تخرج فتراه، إذ ليس بأرض الأندلس؛ بمعنى أن الفيل غير موجود في الأندلس، فلماذا لم تخرج لتنظر إليه شأن جميع الطلاب؟! فرد عليه يحيى قائلًا: إنما جئت من بلدي لأنظر إليك، وأتعلم من هَدْيِكَ وعلمك، لا إلى النظر إلى الفيل، فأُعْجِبَ به مالك، وأطلق عليه لقب «عاقل الأندلس»، وظل من يومها يُعْرَف شرقًا وغربًا بهذا اللقب.

هنا تساؤل سيجد القارئ جوابه مسبقًا، وهو: بماذا حاز يحيى العقل؟ هل بكونه لم يذهب لرؤية الفيل، وبالتالي نال إعجاب مالك، وأُطْلِقَ عليه صفة العاقل؟

الجواب: نال يحيى هذه الصفة بما كان يمتلكه من هدف ورؤية؛ فلم يكن له هدف إلا طلب العلم وتحصيله، ولم تكن له رؤية إلا أن يكون صاحب علم ينثر عبيره في الآفاق ليستفيد منه القاصي والداني.

عندما ذهب يحيى للأخذ عن مالك كان حريصًا كل الحرص أن يستفيد من علمه قدر استطاعته، لِمَ لا وهو العالم الجليل والعلامة القدير، ولم تقف محاولة الاستفادة من الإمام مالك لدى يحيى عند حد العلم فحسب، بل أراد أن ينهل من فيض أخلاقه وأدبه ورقيه؛ لذلك كان حريصًا أن يسمع منه وصاياه له، بل وكان يسأله أن يوصيه، وكان من جملة وصايا الإمام مالك ليحيى بعد أن سأله يحيى النصيحة قال له: «**عليك بالنصيحة لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم**»، بل لم يتوقف طلب يحيى للنصيحة من أعلام المسلمين على الإمام مالك، حيث سأل أيضًا معلمه الليث بن سعد النصيحة، وليس هذا الغريب، وإنما الغريب كل الغرابة أن الليث نصحه بنفس النصيحة التي نصحه بها الإمام مالك، حتى إن يحيى قال متحدثًا عن نفسه: «**ثم قدمت على الليث فلما حان فراقي إياه، قلت له مثل مقالتي لمالك، فقال لي مثل قوله سواءً**».

هذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن علماء المسلمين آنذاك كان لديهم هدف ورؤية واضحة، وهي نشر دين الإسلام وهداية المسلمين له؛ لذلك لم تكن تختلف أقوال العلماء الربانيين فضلًا عن أفعالهم.

أخذ يحيى عن الإمام مالك ثم توجه إلى مصر للأخذ عن أعلامها، فأخذ عن ابن القاسم، ثم عاد ثانية إلى المدينة للسماع عن مالك فألفاه

مريضًا، فجلس هناك إلى أن مات مالك فحضر جنازته، ثم عاد لأبي القاسم للأخذ عنه والسماع منه؛ لذلك يستدل العلماء والمؤرخون بذلك على زيف الرواية القائلة: إن يحيى سأل مالكًا عن زكاة التين، فقال له مالك: لا زكاة فيها، فرد عليه يحيى: إنها تُدَّخر عندنا، ثم نذر يحيى من وقتها إن وصل إلى الأندلس أن يرسل لمالك سفينة مملوءة تينًا، فلمَّا وصل أرسلها فإذا مالك قد مات.

لم يسطر يحيى سيرته العلمية في التاريخ بحروف النور من فراغ، وإنما تكبَّد في سبيل ذلك الجهد والاجتهاد والعناء، فبعد أن حصَّل علم شبطون، توجه إلى بلاد الحجاز حيث أخذ في المدينة المنورة عن الإمام مالك، وأخذ في مكة عن سفيان بن عُيَيْنَة، وأخذ بمصر عن الليث بن سعد، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، وأبي ضمرة أنس بن عياض، وغيرهم من أعلام عصره شرقًا وغربًا.

كان من جملة ما رواه يحيى عن نفسه في رحلة طلبه للعلم، أنه ذات يوم لحق بالليث بن سعد وكان لِلَّيث غلام حال دون وصوله إليه، فطلب الليث من غلامه أن يتركه، فعندما مَثُل يحيى أمامه قال له الليث: خدمك العلم - يقصد رغبتك في طلب العلم -، وقد علق يحيى على مقولة الليث هذه قائلًا: «**فلم تزل بي الأيام حتى رأيت مالكًا**»، يقصد أنه رأى مالكًا وأخذ عنه العلم، وشرع من بعده في الأخذ عن كبار علماء وفقهاء عصره حتى وصل إلى ما وصل إليه من العلم والفقه.

هذه العبارة التي قالها الليث ليحيى كان سبق أَنْ قيلت له، فقد روى الليث عن نفسه، أنه عندما ذهب لتلقِّي العلم على يد ربيعة

قال له ربيعة هذه الكلمة: «**خدمك العلم يا ليث**»؛ لذلك عند حكاية يحيى لقصته تلك مع الليث قال: إن الليث قال له: «**أقول لك ما قال لي ربيعة: خدمك العلم يا يحيى.**»

علماؤنا في الماضي كان أحب ما لهم أن يجدوا النجابة بين طلابهم وتلاميذهم، ولو اقتصرت هذه النجابة على طالب واحد يحب العلم ويشغف به؛ فما يكون منهم ساعتئذ إلا دعمه والسير به قدمًا في هذا الطريق، ومن ثَمَّ يحمل على عاتقه راية العلم ونشره في الأرجاء شرقًا وغربًا، لِمَ لا؟ والعلم رحم بين أهله؛ أما في الحاضر فتجد الكثير ممن يحملون العلم وكأن هذا العلم حكر لهم لا يعطوه لغيرهم إلا إذا كان من وراء إعطائه مقابل أو مصلحة؛ مع ذلك هذا لا يمنع أن هنالك العديد من علمائنا الأجلاء الذين يحاولون جاهدين أن ينشروا العلم ليس لشيء سوى العلم.

كان يحيى أثناء رحلته في طلب العلم من الطلاب الذين يمتلكون قدرًا كبيرًا من الاحترام والتوقير لمعلميهم الذين تتلمذوا على أيديهم وأخذوا علومهم وآدابهم عنهم، ومن المواقف التي تدلل على ذلك ما رواه يحيى عن نفسه، حيث ذكر أنه أثناء رحلته في طلب العلم كان إذا ما ذهب إلى عبد الرحمن بن القاسم للأخذ عنه، سأله ابن القاسم: من أين جئت؟ يقصد: من عند أيٍّ من العلماء؟ فيرد عليه يحيى: من عند عبد الله بن وهب؛ فيقول له ابن القاسم: اتق الله، فإن أكثر هذه الأحاديث ليس عليها العمل؛ وكان إذا ذهب إلى عبد الله بن وهب، طرح عليه نفس التساؤل، من أين جئت؟ فيرد يحيى: من عند

عبد الرحمن بن القاسم، فيقول له: اتق الله، فإن أكثر هذه المسائل رأي.

إلا أن هذا الموقف من قِبَل عالمين جليلين لا يحمل شيئًا من الغرابة إذا ما تمت مقارنته بموقف يحيى منهما، هذا الموقف الذي يحمل بين طياته ما حَوَتْهُ شخصية يحيى من رقي وكرم أخلاقي، وعلى الصعيد الآخر ما احتواه عقله من علم وفقه، تحدث يحيى عن أستاذيه قائلًا: «**رحمهما الله، فكلاهما قد أصاب في مقالته، نهاني ابن القاسم عن اتباع ما ليس عليه العمل من الحديث وأصاب، ونهاني ابن وهب عن غلبة الرأي وكثرته، وأمرني بالاتباع وأصاب**»، ولم يكتفِ يحيى بمقالته تلك، بل كان دومًا ما يُعَبِّر عن رأيه في أستاذيه إذا ما سُئل عنهما قائلًا: «**اتباع ابن القاسم في رأيه رشد، واتباع ابن وهب في أثره هدى**».

كذلك من المواقف التي ترسم لنا صورة واضحة لهذه الشخصية التي حوت الكثير من جوانب الرقي ممزوجة بحب العلم والشغف بطلبه، ما رواه أيضًا يحيى عن نفسه، حيث قال: إنه جمع بعض المسائل وسأل فيها أشهب وابن نافع وغيرهما من أعلام العصر الذين نهلوا من علوم الإمام مالك وفقهه، وعندما أخذ أجوبتهم عليها وكتبها، عرضها على ابن القاسم ليعلم رأيه فيها، فلم يكن من ابن القاسم إلا الانتقاص من هذه الأجوبة على مثل هذه المسائل، فعندما رأى يحيى هذا الانتقاص من آراء هؤلاء العلماء الأجلاء، طوى هذه الأوراق التي تحوي هذه المسائل وأجوبتها ووضعها في

كمه، فتعجَّب ابن القاسم وسأله: ما بالك؟! فرد عليه يحيى قائلًا: «**إن هؤلاء لهم عليَّ حق كحقك، وقد كتبت عنهم علمهم، ولم أر أن أعرِّض بهم للوقوع فيهم، فإذا كان هذا فلا حاجة لي بذلك.**»

انصرف يحيى إلى الأندلس، فأخذ ما طاب من مال أبيه، ثم عاد فحج ولقي جلة من أصحاب مالك، أخذ منهم ما استطاع من العلم، ثم انصرف، وهذا يوضح لنا أنه كان ليحيى رحلتان من الأندلس إلى المشرق، سمع في أولهما من مالك والليث بن وهب، وفي الثانية من ابن القاسم.

قيل عنه: إنه «**لما رجع يحيى إلى الأندلس كان إمام وقته وواحد بلاده**»، وقيل: «**قدم الأندلس بعلم كثير، فعادت فتيا الأندلس بعد عيسى بن دينار إلى رأيه**»؛ لذلك يقال: إن مذهب مالك انتشر في الأندلس بجهود عيسى ويحيى، وما حدث ليحيى في مقتبل أيامه من تولي الفتيا في الأندلس بعد عيسى بن دينار، ونفوذ حكمه ورأيه على الحكام والقضاة كان مصداق حدسه في نفسه، حيث روى عن نفسه أنه عندما توجَّه لطلب العلم لم يكن يُرِدْ من ذلك إلا نفسه، ولكن في رحلة طلبه تلك تملَّكه شعور أن الله جل علا ما هيأ له السير في هذا الطريق إلا لأن الناس سيحتجُّون له، وقد كان.

قِسْ ذلك على زماننا، فكثيرًا ما نسمع عن الشباب الذين يذهبون للدراسة في الخارج والدول الأوربية تحديدًا، ونلحظ أنه رغم تفوقهم واجتهادهم ناهيك عن جميل وكرم أخلاقهم التي تميزوا بها في موطنهم، إذا ما ذهب هؤلاء الشباب إلى هذه البلاد أخذتهم الدنيا

بمباهجها وملذاتها الزائفة، وأَنْسَتْهم دراستهم فضلًا عن أخلاقهم وقيمهم ومبادئهم، فيعود لنا بالمظهر غير الذي رأيناهم عليه، وكأنه تم استبدالهم قلبًا وقالبًا، وبالتأكيد هذا لا ينطبق على كل من يذهبون إلى تلقي العلوم في مثل هذه البلاد، فنجد من يعود وقد زاد فوق العلم علمًا، وفوق الرقي رقيًّا؛ وذلك لأنه يعلم لِمَ هو ذاهب، بل وظل واضعًا هدفه نصب عينه طوال بقائه في هذه البلاد، فكانت عودته إلى بلاده فيما بعدُ إضافة لها وليس عبئًا عليها.

كون يحيى من الشخصيات المنكبَّة على طلب العلم وتحصيله لا يعني أنه لم يكن يتبسط مع أهله وإخوانه، لا يعني أنه لم يكن إنسانًا سهلًا لينًا، بل كان متبسطًا سهلاً لينًا في التعامل مع كل مَنْ حوله على اختلاف وتباين شخصياتهم، ومما يدلل على كثرة انبساطه ولينه وعدم تكلفه مع الناس أن أحدهم سأله قائلًا: لِمَ لا تنبسط في الملأ كانبساطك في الخلاء؟! فقال له: «لو فعلت ذلك لتُلُوعِبَ بين يدي، وأنا أحب أن يُقْتَدَى بي كما اقتديت بغيري.»

أما في زماننا فتجد من يسلكون سبل العلم وقد علت وجوههم الكآبة حتى لا تكاد تفوز يومًا برؤية أسنانهم، ويعللون حالتهم تلك بأنهم لا بد أن يكونوا جادين في طلب العلم وتحصيله، ولا يعلمون أنهم لن ينالوا بذلك لا الارتياح والسلام الداخلي، ولا ارتياح الناس لهم، فضلاً عن التفكير في الاقتداء بهم، مع ذلك لا ننسى أن نضع بين قوسين (إلا من رحم ربي).

علاقته بالحكام ورجال الدولة وعلمائها:

كان يحيى بن يحيى الليثي ممن اتُّهِمُوا بالخروج على الأمير الحَكَم بن هشام وذلك لتنحيته عن الحكم، وكان الأمير الحَكَم آنذاك قد استباح دماء البعض ممن خرجوا عليه، ونفى البعض الآخر، وكان يحيى من ضمن الذين فروا هاربين من بطش الأمير الحَكَم.

حكى يحيى قصة خروجه هاربًا من قرطبة، فقال: إنه خرج وأخيه ويُدْعَى «فتح» متنكرين باتجاه باب اليهود بقرطبة، وكان الأمير الحَكَم قد أصدر أوامره للحراس على جميع أبواب قرطبة أن يقتلوا كل مارٍّ بهم إذا ما شكُّوا في أمره، فعندما وصل يحيى وأخيه «فتح» بالقرب من باب اليهود كان لفتح صديق من الحراس ذهب يلجأ إليه، ورغم منع يحيى له حتى يتراجع عن المجازفة إلا أنه لم يستمع لكلام أخيه، وذهب لصديقه يخبره بأمره طالبًا منه أن يتركه يمر ويخفي أمره عن رجال الأمير، إلا أن صديقه بمجرد أن أَسَرَّ له بخبره قام باعتقاله والقبض عليه، ثم أمر بضرب عنقه على الفور، ويحيى واقف بالقرب من الباب ويرى كل ما فُعِلَ بأخيه؛ فازداد خوفًا وذعرًا وفر هاربًا لا يلوي على أحد.

وهذا مصداق قول القائل: «**الناس في السكينة سواء فإذا جاءت المحن تباينوا**»

لجأ يحيى بعد مقتل أخيه إلى قوم من بني عمه من بربر مصمودة بجهة يقال لها: فحص البلوط، إلا أنهم بعد أن أظهروا له أنه في مأمن عندهم عزموا على التخلص منه حتى يحصلوا على ما معه من المال

الذي كان قد جهزوه وأخيه للسفر، فعندما علمت البنت بعزم أهلها على ذلك قامت بتحذير يحيى، وعندما جهزوا العشاء ودعوه حتى يتناول معهم؛ تظاهر أنه سيدخل لقضاء حاجة ويرجع، فتوجه وركب حصانًا كان متواجدًا في الدار ونجا به، فلما تأخر عليهم ذهبوا لتفقده فوجدوه قد ذهب، وعندما بَعُدَ عن منزلهم بحيث لا يستطيعون اللحاق به ترك لهم الحصان، وتوجَّه هو إلى طليطلة، فاستقبله أهلها بالترحاب وأجاروه.

أجار أحد فقهاء طليطلة يحيى، وعندما أرسل الأمير الحكم لهذا الفقيه يطلب منه أن يسلمه يحيى؛ رفض، وأثناء تواجد يحيى في طليطلة أرسل إلى الأمير الحكم يطلب منه الأمان، فأمَّنَه الحَكَم، وطلب منه أن يعود إلى قرطبة وله الأمان وسيرد له بيته وماله، فعاد يحيى إلى قرطبة في أخريات أيام الحكم، فعاش في كنفه وكنف أولاده من بعده، وحدث أنْ عاتب الأمير الحكم هذا الفقيه في عصيانه لأمره بتسليم يحيى له، فقال له الرجل: «**إني لم أفعل هذا الأمر إلا شكرًا للأمير أعزه الله ونظرًا لعامة المسلمين**»، فسأله الحكم: «**كيف ذلك؟**» فقال الفقيه: «**خشيت أن يكون يحيى بن يحيى إذا لم يجد من يجيره أن يحمله إفراط الخوف على الهرب إلى أرض العدو فيعظم طعنهم علينا، وربما قالوا: هذا رجل من علمائهم وفضلائهم لم يأمن على نفسه عندهم ولا وسعه بلدهم حتى لجأ إلينا، فرأيت أن أسكِّن روعه وأؤمن خوفه، وقد علمت أن الأمير سيتضح له أمره ويعيده إلى حسن رأيه**»، وهنا شكر له الأمير الحكم حسن تصرفه وفعله.

أعد تدبرك لهذا الموقف من قِبَل عالم من العلماء، وفقيه من الفقهاء، كيف اتجه إلى عصيان الحاكم، وهذا ليس لمجرد العصيان والمعارضة، وإنما كان يملك من بُعْدِ النظر الذي أدرك به أن مصلحة الأمة وجماعة المسلمين فوق كل أمر، حتى لو كان في هذه المعارضة نهايته، وعلى الصعيد الآخر تدبر موقف الحاكم الذي بمجرد أنْ وقع على علمه أن الفقيه لم يفعل ذلك ولم يتجرأ على عصيانه إلا لصالح الأمة وجماعة المسلمين، فشكره، وأثنى على حسن تصرفه وفعله.

فأين علماؤنا وفقهاؤنا وحكامنا مما كان عليه أسلافنا؟!

حدث عندما عاد يحيى إلى قرطبة، وَرُدَّ إليه بيته وماله وكل متاعه، قام يحيى ببيع كل عبيده وشراء غيرهم، وعندما سُئل عن السبب، قال: «**نكره أن يصحبنا من عرف ما دار علينا من الهرب والذل.**»

كذلك من المواقف التي توضح علاقة يحيى بالحكام، وتقف على كيفية تعامله معهم، الموقف التالي وملخصه: أنه رغم ارتحال يحيى إلى المشرق والأخذ عن الإمام مالك وعودته إلى الأندلس وقيامه بنشر مذهب الإمام مالك بها، حيث أخذ عنه الكثير من العلماء وطلاب العلم على حد سواء، إلا أنه عندما حدث أن قام الأمير «عبدالرحمن الأوسط» ذات يوم بجمع الفقهاء في قصره يستفتيهم في أنه وقع على إحدى جواريه في نهار رمضان وأنه ندم على ذلك أشد الندم، وسألهم عن التوبة والكفارة، فقال له يحيى: تكفِّر بصوم شهرين متتابعين؛ وعندما سمع الفقهاء قول يحيى سكتوا ولم يتحدث منهم أحد بحرف فضلاً عن كلمة وخرجوا، ثم التقى أحدهم به في الخارج وحدَّثه متسائلاً: لماذا لم تُفْتِ بمذهب مالك

الذي يقول بالتخيير؟ فرد عليه قائلًا: «**لو فتحنا له هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة، ولكن حملته على أصعب الأمور حتى لا يعود.**»

هذا الموقف يوضح لنا أنه ليس الأطفال والمراهقين فحسب من يحتاجون إلى تربية وحسن توجيه، بل كذلك يحتاج إلى مثل هذه التربية وحسن التوجيه مَنْ بلغوا من الكبر عتيًّا، إلا أن هؤلاء الكبار يحتاجون إلى تربية وتوجيه ممزوجًا بفطنة وحنكة معطرة بحكمة من نوع آخر.

أيضًا من المواقف التي توضح شخصية يحيى ودوام مراقبته للمولى جل وعلا وعدم أخذه في الله لومة لائم، أن أحد قضاة قرطبة - لم أقف على اسمه - كان دائم الطاعة له لا يعدل عن رأيه، حتى وإن خالفه جميع فقهاء قرطبة في رأي أو مسألة، وحدث أنْ كان هناك مسألة رأى فيها رأيًا فخالفه جميع الفقهاء في رأيه، وهنا لم يستطع هذا القاضي الموافق ليحيى في كل حال أن يعارض الفقهاء في رأيهم، وفي نفس الوقت لم يستطع معارضة يحيى في رأيه؛ لذلك طلب من الفقهاء أن يتركوه بعض الوقت حتى يفكر في المسألة ومن ثَمَّ يُعطي رأيه فيها، ثم أرسل القاضي إلى يحيى بالوضع، وعندما عاد رسول القاضي كان يحمل له رسالة من يحيى تحمل بين طياتها الكثير من الغضب على موقفه هذا.

عندما علم القاضي بغضب يحيى ركب من فوره الدابة وتوجه إلى يحيى حتى يسترضيه، وأبلغ يحيى أنه لم يكن يعلم أنه سيغضب من موقفه هذا، وأنه سيقضي في المسألة غدًا، وهنا عَلَتْ وجه يحيى

الدهشة ممزوجة بالغيظ والغضب، ووجه سؤاله للقاضي: وتفعل ذلك صدقًا؟! فرد عليه القاضي: نعم، وهنا استشاط يحيى غضبًا، وذكر له أنه كان يظن أنه خالف الفقهاء فيما قالوا به حتى يستخير الله جل وعلا ويتحرى الأقوال في المسألة قبل أن يدلي فيها بدلوه، ثم تابع يحيى حديثه الذي تعلو نبرته الغيظ والغضب، وآثرت أن أنقل قوله هذا حتى نتذوق لذة المعاني من جهة، ونقف على ما تحويه السطور بين طياتها من تقوى قائلها وعدم أخذه في الله لومة لائم من جهة أخرى، قال يحيى للقاضي: «**فأما إذا صرت تتبع الهوى، وتقضي برضى مخلوق ضعيف، فلا خير فيما تجيء به، ولا فيَّ إن رضيتُهُ منك**»، ثم وضح له يحيى أن مثله لا يليق بمنصب القضاء، وطلب منه أن يطلب استعفاءه - استقالته - من القضاء وإلا عزله، فقال له: «فاستعف من ذلك، فإنه أَسْتَرُ لك، وإلا رفعت في عزلك»، وهذه الكلمات الأخيرة تحمل بين طياتها معنى آخر من الرقي والكرم الأخلاقي، فيحيى لم يشأ أن يفضح القاضي ويريق ماء وجهه أمام الفقهاء والعلماء؛ لذلك طلب منه أن يقوم هو نفسه بتقديم استقالته من منصبه، بدلًا من عزله.

هنا لا ينبغي أن يفوتنا ذكر أن من أبرز ما اشتهر به عصر الأمير «عبد الرحمن الأوسط» هو كثرة القضاة؛ وذلك لأنه كان يعتمد في تولية هذا وعزل ذلك على مشورة صاحبنا يحيى بن يحيى الليثي، فكان لا يولي ولا يعزل قاضيًا أو فقيهًا إلا برأيه، وهذا ما يتضح لنا جليًّا في حديث ابن حيان عن يحيى، حيث قال: «**وإنما كان سبب استكثار عبد الرحمن بن الحكم من القضاة وكثرة توليته وعزله لهم، اتباعه فيهم رضا كبير الفقهاء المشاورين الأثير عنده يحيى بن يحيى،**

إذ كان لا يزال يشير عليه بقاض، فيوليه الأمير عبد الرحمن مقتصرًا فيه على رأيه، فإذا أنكر عليه يحيى شيئًا رفع عليه إلى الأمير، فلا يؤخر عزله، ولا يحيد عن مشورته، وكان يحيى الذي يولى مكانه»؛ بل الأكثر من ذلك أن يحيى كان إذا ما غضب من أحد القضاة هدده قائلاً: «**استعفِ وإلا رفعت بعزلك**»، فإن تراجع كان بها وإلا أشار يحيى بعزله، فيُعْزَل من فوره؛ لذلك عندما توفِّي يحيى بن يحيى الليثي عام ٢٣٤هـ/ ٨٤٩م علق ابن عذاري على ذلك قائلًا: «**فاستراح القضاة من همه**».

الجدير بالذكر أن القضاء في الأندلس كان يتمتع بالاستقلال عن السلطة التنفيذية؛ لذلك لم يكن في مقدرة الخليفة أن يولي قاضيًا إلا إذا انطبقت عليه شروط خاصة، وكان من أبرز الشروط التي ينبغي أن تتوفر في من يتصدر لهذا المنصب الجلل موافقة رجال القضاء، وإلى هذا يُشير لسان الدين بن الخطيب بقوله: «**فكانت للقضاء بها - بالأندلس - المنزلة العالية والرتبة السامية مع كون الخلفاء منقادين لأحكامهم واقفين عند نقضهم وإبرامهم**»؛ **كذلك من ضمن أهم الشروط التي ينبغي توافرها فيمن يتصدر لمنصب القضاء في الأندلس: أن يكون المتصدر له غنيًّا؛ وذلك** «**خوفًا من أن يميل به الفقر إلى الطمع فيما في أيدي الناس**».

الجدير بالذكر أنه رغم أن القضاة في أقطار الأندلس لم يكن يُولَّى أحدهم إلا بمشورة يحيى بن يحيى الليثي إلا أن يحيى نفسه لم يتولَّ القضاء، ولا قَبِلَ توليه فضلًا عن أن يطلبه، وهذا كان من أسباب قبول رأيه وزيادة فضله، وهذا لا يمنع أن الأمير عبد الرحمن

الأوسط حاول مرارًا وتكرارًا أن يُقنع يحيى بتولي القضاء؛ وذلك لما كان يحمله يحيى من مكانة علمية رفيعة تؤهله لهذا المنصب الجلل، ناهيك عن حب الأمير عبد الرحمن وتقديره له حتى إنه كان يُنْزِلُهُ منزلة والده، رغم المحاولات المتكررة من قِبَل الأمير عبد الرحمن الأوسط في سبيل أن يَقْبَل يحيى تولي القضاء إلا أن جميعها باءت بالفشل؛ وذلك لأن يحيى كان يأبى كل الإباء أن يتطرق لتولي مثل هذا المنصب الخطير.

هنا نذهب بك أخي القارئ لتأمل أحد المواقف التي قام بها الأمير عبد الرحمن الأوسط والتي توضح إلى أي مدى كانت رغبته في أن يتولى يحيى القضاء، وعلى الصعيد الأخر يتبين لك إلى أي مدى كان رفض يحيى وعدم قبوله لهذا المنصب العظيم.

رُوِيَ أن الأمير عبد الرحمن حاول إلزام يحيى وإحراجه بهذا المنصب أمام عامة الناس حتى لا يقوى على رفضه، فبعث إليه من يجلس له في المسجد الجامع بقرطبة، ويقول للناس: هذا قاضيكم، ففعل الرجل ما أمره به الأمير، وكان من جراء ذلك أن تحمس الناس لذلك وفرحوا واستبشروا به، وذلك لما يعلمونه من عدل يحيى ونزاهته، ناهيك عن علمه وفضله.

فتُرى ماذا كان رد يحيى؟ هل رضخ لرغبة الأمير وسط هذا الهتاف والتهليل والتكبير وفرحة الناس واستبشارهم به؟

الجواب: لم يرضخ يحيى أو يغتر بمثل هذه البهرجة الزائفة، وظل على إبائه في رفض منصب القضاء، تدرون لِمَ؟

لأن يحيى كان من طراز الرجال الذين يعلمون هدفهم ووجهتم، ومثل هؤلاء لا يمكن أن يثنيهم عن قراراتهم فضلًا عن قناعاتهم شيء حتى وإن كانت هذه الشهرة والبهرجة وهذا الاحتفاء، وكأنه خليفة من الخلفاء وليس عالمًا من العلماء.

مع ذلك هنا يطرح السؤال نفسه: كيف رفض يحيى منصب القضاء في المسجد الجامع أمام عامة الناس، هل رَفَضَه هكذا بقوله: لا، لن أقبل، حتى يرفعه الناس فوق الأعناق مهللين ومكبرين، ومُحْتَفِين بزهده وورعه، بل وجرأته على رفض أمر الأمير؟ لم يكن ليحيى أن يفعل مثل هذه الأفعال التي لا يتطرق لها إلا أهل التمثيل والزيف (إلا من رحم ربي جل وعلا)، وإنما كل ما قام به هو إقناع عامة الناس بموقفه هذا موضحًا لهم أنه لا يريد من ذلك إلا صالحهم ومنفعتهم، فقال لهم: إن المكان الذي أنا فيه أنفع وخير لكم مما تريدون، فلو تظلَّمَ الناس من قاضٍ أجلستموني فنظرت لكم في أحكامه، وإذا كنت قاضيًا فتُظُلِّمَ مني كما يُتَظَلَّم من القضاة، مَنْ تقصدون في أحكامي؟!

ويقصد يحيى من كلامه هذا أن وضعه هذا بعيدًا عن منصب القضاء، يخوِّل لهم أنه إذا ما جاءهم ظُلم أو تعدٍّ من أحد القضاة ذهبوا إليه ليحكم بينهم وبين القاضي الذي رأوا في أحكامه ظلم وتعدٍّ عليهم، أما إن كان هو ذاته القاضي، فمن يكون الحاكم عليه؟! ومن هنا اقتنع الناس، وفشلت خطة الأمير عبد الرحمن في إرغامه على تولي القضاء.

هذه العقلية السديدة والرشيدة التي تمتع بها يحيى، ومن ثَمَّ مكنته من القدرة على معالجة مثل هذه المواقف العصيبة التي قد يُخفق في

معالجتها - بتروٍّ وحكمة - الحكماء فضلًا عن العلماء، هذا التروي والحكمة بل والحنكة التي تمتَّع بها يحيى في معالجته للمواقف العظيمة تجعلنا ندرك لماذا وصفه محمد بن عمر بن لبابة بأنه: «عاقل الأندلس»، وقيل: إن من نعته بذلك هو الإمام مالك؛ الشاهد أن يحيى لم يحُز هذا اللقب إلا بما تميز به من رجاحة عقل، وسعة فكر، وبُعد نظر، كما قيل عنه إمعانًا في إضفاء صفة العقل الراجح إليه: «**إليه - يحيى - انتهت الرئاسة بالأندلس في العلم، وكان مالك يعجبه سمت يحيى وعقله**».

أيضًا من المواقف التي تدل على رجاحة عقل يحيى، واستحقاقه للقب «عاقل الأندلس» ما رواه عنه ابن عبيد الله، حيث ذكر أن أباه حكى له قصة مفادها: أنه عندما قام الناس على قاضي قرطبة «يحيى بن معمر»، وكتب جميع فقهاء قرطبة وأعلامها الشهادات ضده، جاء أحدهم ويُدْعَى «سعيد بن حسان» إلى يحيى، وسأله ماذا يَفْعَل بشأن ابن معمر؟ فقال له يحيى: «**لا تفعل، وانتظر أن تكون مشاورًا في شهادة غيرك، فتكون فتواك أنفذ من شهادتك**»، إلا أن سعيد بن حسان لم يستمع لنصيحة يحيى، وفعل ما فعله الفقهاء من كتابة الشهادات ضد ابن معمر.

لم يمض وقت طويل على نصيحة يحيى لسعيد حتى أرسل الأمير ليحيى رسالةً يذكر له فيها أنه لم يذكر له شهادة في حق ابن معمر شأن الفقهاء والعلماء، وأرسل له مع هذه الرسالة شهادات العلماء والفقهاء في ابن معمر، وطلب منه أن يتصفحها ويعطي رأيه فيها، فأجابه يحيى قائلًا: «**ما عندي من أخبار الرجل علم؛ لأنه لم يكن**

يحضرني في مجلسه، ولا يشاورني في أحكامه، فأما الشهادات الواقعة عليه فقد تصفحتها، ولو شهد على مالك والليث رحمهما الله تعالى بمثلها ما رفعا بعدها رأسًا»، وبناءً على هذه الرسالة من يحيى للأمير، عُزِلَ ابن معمر عن منصبه.

ثناء العلماء عليه:

أثنى العديد من العلماء على علم يحيى وفقهه، فضلًا عن أخلاقه وفضله، فقالوا عنه: «لم يُعْطَ أحد من أهل العلم بالأندلس، منذ دخلها الإسلام، من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر، ما أُعطيه يحيى بن يحيى، وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم يبجله تبجيل الأب، ولا يرجع عن قوله، ويستشيره في جميع أمره، وفيمن يوليه ويعزله؛ فلذلك كثر القضاة في مدته، وكان يفضل بالعقل علة علمه.»

ونظرًا لما سبق علَّق المؤرخون على انتشار مذهب مالك في الأندلس فكان من جملة ما قالوا: «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قِبَله من أقصى المشرق إلى أقصى عمل إفريقية، فكان لا يولي إلا أصحابه والمنتسبين لمذهب، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى الليثي كان مكينًا عند السلطان مقبول القول في القضاة، وكان لا يلي قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومَنْ كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ

أغراضهم به، على أن يحيى لم يَلِ قضاءً قط، ولا أجاب إليه، وكان ذلك زائدًا في جلالته عندهم، وداعَيًا إلى قبول رأيه لديهم.»

كذلك قيل عنه: «وإليه – يحيى – انتهت الرياسة في الفقه بالأندلس وبه انتشر مذهب مالك هناك، وتفقه به جماعة لا يحصون، وكان مع إمامته ودينه مكينًا عند أمراء الأندلس معظمًا، وعفيفًا عن الولايات مُنزَّهًا، جلَّت درجته عن القضاء، فكان أعلى قدرًا من القضاة عند ولاة الأمر هناك، لزُهده في القضاء وامتناعه».

أيضًا من جملة ما أثنى عليه المؤرخين قولهم فيه: «كان يحيى إمام أهل بلده، المقتدى به، المنظور إليه، المعول عليه، وكان ثقة عاقلًا حسن الهدى والسمت، يشبه سمته سمت مالك، ولم يكن له بصر بالحديث»، كما قال عنه القاضي عياض نقلًا عن إبراهيم بن باز: «والله الذي لا إله إلا هو، ما رأيت أوقر من يحيى بن يحيى قط، ما رأيته يبصق ولا يسعل في مجلسه، ولا يتحرك عن حاله، وكان أخذ بزي مالك وسمته.»

هذا الوصف السابق كناية عن أن يحيى لم يكن مجرد شخص حاز بعضًا من هذا العلم، وشذرات من ذاك، كما هو حال البعض في زماننا ممن يأخذون من كل فيلم أغنية كما يقال، ثم يظنون أنفسهم أنهم أتوا بما لا يأتي به الأوائل ولن يأتي به الأواخر، بل كان من شدة عقليته المرتبة والممتلئة بألوان العلوم والآداب والفنون أنه لم يكن ينقطع عن حديثه المتواصل في العلم حتى بأن يسعل أو يتنحنح كما يقال في زماننا، وكان لشدة انغماسه فيما يلقيه من علوم متباينة أنه لم يكن يتحرك في مجلسه مجرد حركة.

معانٍ تُكْتَبُ بحروف النور:

نختم حديثنا عن يحيى بما جادت به قريحته من معاني تُكْتَب بحروف من نور، حيث رُوِيَ عنه أنه عندما علم أن أحد العلماء قال: «**لولا الحمقى ما عمرت الدنيا**»، رد هو من فوره على البديهة قائلًا: «**لولا الحلماء ما عمرت الدنيا**»؛ لذلك كان من ضمن ما قال: «**ما أزين الحلم بالرجال!**» بمثل هذه المعاني التي تجود بها قريحة الرجال، نستطيع أن نرسم صورة واضحة لشخصية كلٍّ منهم، فقط أَطْلِقْ لعقلك العنان، وتدبر.

وحدث أن وقع على علم يحيى أن سفيان الثوري قال: «**ما أخاف على نفسي إلا القراء والفقهاء**»، ومنذ وقوع هذه المقولة على سمع يحيى لم يفتر عن ترديد الدعاء قائلًا: «**اللهم لا تُخِفْ بنا أحدًا من خلقك**»، وعندما سُئل عن سبب ترديده لهذا الدعاء قال: «**إن رجلًا يخيفه الله خيار خلقه رجل سوء.**»

أيضًا من درر قوله: «**أَدْخِلِ الحشمة بينك وبين الناس، فأنه أوقر لحرمتك**»، يقصد بالحشمة الحياء؛ وكذلك كان يقول: «**من أراد أن يعمل بما يقول اقتصد، ومن لم يُرِدْ ذلك؛ لم يبالِ ما يقول.**»

وكان دائمًا ما يحث تلاميذه على طلب العلم والاهتمام والعناية به قائلًا له: «**مَنْ جاءه الموت وهو يطلب العلم، لم يكن بينه وبين الأنبياء في الجنة إلا درجة.**»

نظرًا لشغف يحيى بن يحيى الليثي بطلب العلم وتحصيله كان من ضمن النصائح التي لم يكن ينفك عن ترديدها على مسامع طلابه، قوله: «**لا يستطاع العلم براحة الجسم**»، ورُوِيَ بشأن هذه المقولة أن رجلًا ممن سمع هذه المقولة من يحيى، تذكرها بينما هو على فراشه مع زوجته، وفور أن تذكرها قام عن زوجته وأخذ دفترًا من العلم ينظر فيه.

رجل في موقفه هذا مع زوجته وإذ به بمجرد أن يتذكر هذه المقولة يقوم عنها ليطلب العلم، بينما نحن نقضي الساعات تلو الساعات على مواقع التواصل ومهما تذكرنا من مقولات تحثنا على المضي قدمًا في سبيل تحقيق أحلامنا لا نلتفت لها فضلًا عن أن نلقي لها بالًا.

إلا أن ما سبق لا يعني أن يحيى لم يكن يتوق إلى ما يتوق له الرجال من أخذ حظهم من النساء، حيث روى عن نفسه أنه في وقت أخذ العلم عن أبي القاسم في مصر بعد وفاة مالك، تاقت نفسه إلى النساء، فاشترى جارية، ثم ذكر أنه لم ير لها وجهًا طوال إقامتها عنده، حتى قام ببيعها، وذلك بسبب اشتغاله بابن القاسم وعلمه، ثم أردف يحيى أنه لم يكن العلم فحسب الذي أخذ بلُبِّه ولم يجعل له لذة في غيره حتى شغله عن كل ملذات الحياة، وإنما لأن ابن القاسم كما كان مثال العلم والفقه، فكذلك كان مثال الرقي الأخلاقي والورع.

بالطبع هذه ليست دعوة لترك الناس ملذات الدنيا والعكوف على طلب العلم وتحصيله، وإنها دعوة لأن يجعلوا لهم هدفًا ورؤية.

علاقته بطلابه وتلاميذه:

حدث ذات يوم أن يحيى كان يحاول الجواب على مسألة بين يديه، فأُغْلِقَ عليه، ورغم محاولاته المتكررة للجواب عن هذه المسألة إلا أنه لم يتمكن من الحصول لها على جواب، فقال له رجل بجانبه: هذه الدواة، بمعنى ضع بها القلم وابدأ وسيأتيك المدد، فقال له يحيى: لو كان لكان! ويقصد لو كان المدد متواجد لنفع المداد، وهنا وضع الفتى الدفتر أمام وجهه وتبسم، وهي ابتسامة السخرية كيف لعالم كبير وجليل مثل يحيى جئت لأخذ العلم عنه لا يستطيع أن يجيب على مسألة بين يديه؟! وعندما رأى يحيى حاله تلك، قال له: «**لو جلست في بيتك كان أَسْتَرَ لك.**»

قد ينظر البعض إلى هذا الموقف والتصرف من يحيى على أنه تعنُّت أو أنه ينتقم لنفسه من تلميذ عنده سخر منه، إلا أن المتتبع لسيرة يحيى يعلم علم اليقين أنه أكبر من مثل هذه السلوكيات التي لا يقوم بها إلا الصغار، ليس الصغار سنًّا، وإنما الصغار عقلاً وفكرًا، ومن لا يعنيهم إلا سفاسف الأمور وتوافه الأشياء؛ كان هذا موقف يحيى؛ لأنه يرى أنه ينبغي لطالب العلم أن يكون سعيه أولًا وقبل كل شيء إلى تحصيل الأخلاق، ثم يأتي العلم لاحقًا.

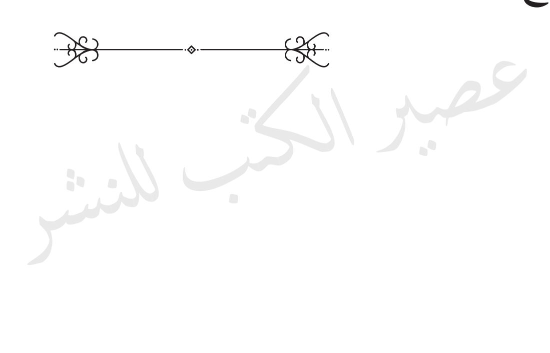
قد يُخَيَّل للقارئ عند قراءته لهذه السيرة ليحيى أنه كان من الزهاد الذين لا يهتمون لمأكل ومشرب فضلًا عن ملبس، والحقيقة أنه كان على العكس من ذلك، فكان يتميز – بلغة العصر – بالأناقة، ويتخير أفخر الثياب وأغلاها، وكان يحرص على التزين والتطيب في المناسبات مثل الجمع والأعياد اقتداءً بالحبيب النبي صلى الله عليه

وسلم، كذلك كان يحرص على ارتداء أفخر الثياب عند دخوله على الحكام والأمراء ورجال الدولة، وهذا يجعلنا نتذكر الوصية التي أوصاه بها أستاذه ومعلمه شبطون، عندما نصحه أن يذهب ويصلح من حاله ثم يأتي ويحضر دروس العلم؛ لأن الظاهر في كثير من الأحيان يكون ترجمة للباطن، وحاله تلك تفسر لنا تعريفه للزهد، حيث قال فيه – الزهد –: «**من لم يرض منها – يقصد الدنيا – إلا بالحلال فهو فيها زاهد، وإن كان عليها مكبًّا وحريصًا**»؛ فهذه لم تكن مجرد مقولة، وإنما معنى آمن به وطبقه.

لذلك عندما قيل ليحيى: «**إن من مضى كان يتمنى الفقر**»، فأنكر ذلك وقال: «**لا ينبغي لمن يعقل أن يتمنى ما تعوَّذ منه نبيه صلى الله عليه وسلم**»؛ وكذلك عندما جاء له قوم وقالوا له: «**لو توكلنا على الله حق توكله، لأتانا بالرزق إلى بيوتنا كما يأتي الطير**»، فقال لهم: «**والله ما كان يأتي عيسى بن مريم البقل البري حيث هو جالس، حتى يخرج إليه إلى الصحراء يلتمسه**»، بمعنى هل أنتم أكثر تقوى من عيسى بن مريم الذي كان يتجول في الصحاري حتى يحصل على البقل البري؟!

نختم حديثنا عن عالمنا الجليل وأحد القدوات العلمية والربانية التي لا ينبغي لنا نحن جيل الشباب والفتيات أن نتوانى في البحث عن سيرتهم ومسيرتهم العطرة والاقتداء بهم في زمن ندرت فيه القدوات والرموز، رُوِيَ أن يحيى بن يزيد الأزدي أستاذ شبطون، حُبِسَ من قِبَل والي المدينة آنذاك ابن لُبيد، وهنا سأله يحيى بن يحيى الليثي: كم ختمت القرآن في حبس ابن لُبيد، فقال: أربعين مرة، فرد عليه يحيى: ما أشقى مَنْ ختمتَ القرآن في حبسه أربعين مرة!

امتدت أيام الليثي إلى أن توفِّي عام ٢٣٤هـ، وقيل: عام ٢٣٣هـ، وكان يبلغ الثانية والثمانين من عمره، وذكر ابنه أنه أثناء مرضه دخل عليه أحد أعلام الأندلس آنذاك ويُدْعى «عبد الملك»، فسأله عن مرضه، فرد عليه يحيى قائلًا: «**يا أبا الحسن – يقصد عبد الملك – إنه ليخفِّف عني ما أنا فيه تفكري في عظيم ما له خُلِقْت**»، وكان من شدة إعجاب عبد الملك بمقولته تلك أنه ظل طوال حياته يرددها وينقلها عنه، كما قال له يحيى: «**يا أبا الحسن، ليتني أُزَحْزَح عن النار على أن لا أسمع بذكر الجنة.**»



يحيى الغزال[1]

(أبو نواس الأندلس)

الغزَّال ليس اسمًا لشاعرنا، وإنما هو لقب، قيل: إنه لُقِّبَ به لما وهبه الله – جل وعلا – به من جمال هيئة، ورشاقة حركة، وقيل: إنه لُقِّبَ به لما تميز به من طرافة وظرافة، أصل الغزَّال من مدينة جيَّان إلا أنه كان يستقر بمدينة قرطبة، يُعدُّ الغزَّال من طرائف الشخصيات أيام الحكم وابنه عبد الرحمن وهو يحيى الغزال الجياني وهو عربي ابن بكر بن وائل، وُلِدَ في جيان، وقد سُمِّيَ بالغزال لجمال هيئته وأناقته وكان شخصية جميلة، وكان شاعرًا مبدعًا وعقلًا جريئًا، لا يَكُف عن مهاجمة الفقهاء والتحدث عن نفاقهم وتظاهرهم بالتقشف والعزوف عن الدنيا مع غناهم وحرصهم على المال والحياة.

ينتمي شاعرنا كما ذُكِرَ إلى قبيلة بكر بن وائل، وقد نظم في انتمائه هذا قائلًا:

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص٥٥٤؛ ابن سعيد: البيان المغرب، ج٢، ص٥٧؛ المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٢٥٤؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج٥، ص١٢٨٦؛ الضبي: بغية الملتمس، ترجمة رقم ١٤٦٧؛ أبو عبد الله القرطبي: بهجة المجالس، ج١، ص٢٤٣؛ سلمى الجيوشي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج١، ص٤٨٩-٤٩١.

وهـا أنـا من أبنـاءِ بكـرِ بْـنِ وائلِ

ومـا نفعتنـي قـطُّ بكـرُ بـن وائـلِ

رغم أن هذه الأبيات التي فاضت بها قريحة الغزَّال لا تخلو من طرافة، إلا أن هذا لا يعني أنها تخلو من عبرة وعظة، فكأن لسان حال الغزَّال يهمس في أذن كل من يتغنون بحسبهم ويفتخرون بنسبهم دون أن يفكروا في الوقوف مع أنفسهم متسائلين: هل سيأتي يوم ويفتخر بنا أبناؤنا كما نفتخر نحن بأجدادنا وآبائنا؟ والسؤال الأهم: ماذا صنعنا حتى يفتخر بنا من يأتون بعدنا؟ ماذا سيكون وزني في دنيا الناس إن لم أكن سليل هذا النسب وذاك الحسب؟

ولا يخفى على القارئ الكريم أن هناك العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، إضافة إلى الأبيات الشعرية والأقوال المأثورة التي تزخر بها صفحات تاريخنا الإسلامي، والتي تشير إلى أن الإنسان ليس ابن عائلته؛ لأن هذا لا بد له منه، فهو لم يختر أن يكون سليل هذه العائلة أو تلك، وإنما تتجسد مقومات اختياره في اختيار الطريق الذي يقرر السير فيه، فأي الطريقين تختار: هل تريد أن تولد ومن ثم تمر عليك دورة الحياة الطبيعية إلى الممات شأنك شأن الملايين بل المليارات من الناس منذ بدء البشرية حتى يوم الناس هذا، والذين لم نسمع أو نعرف أعدادهم، فضلاً عن أن نقف على أسمائهم وأسماء عائلاهم وانتماءاتهم و....؟!

أم تريد أن تسلك الطريق الذي سلكه أسلافك الذين سُطِرَت أسماؤهم في صفحات التاريخ بحروف من نور، سَطَروها بأفعالهم التي نبعت من إيمانهم وحبهم لهذا الدين، فَجَنَّدوا أنفسهم للزود

عنه وإيصاله للبشرية جمعاء بما توافرت لهم من مقومات آنذاك، بسواعدهم صنعوا هذا التاريخ؛ بل بدونهم ما كان هناك تاريخ فضلًا عن خلق حضارة يتغنَّى بها العالم حتى يومنا هذا، وفي هذا الصدد لا يفوتنا أن نتطرَّق إلى معنى العصامي والعظامي:

العصامي: هو الشخص الذي يصل إلى مراتب الشرف بجده واجتهاده وكرم فعاله، والعصامي نسبة إلى عصام بن شهبر الجزرمي، وفي رواية الجرمي صاحب النعمان بن منذر، وأصل التنويه به هو قول النابغة الذبياني:

نفس عصام سودت عصاما
وعلمته الكر والإقداما
وصيرته ملكًا هماما
حتى علا وجاوز الأقواما

ومن هنا اتُّخِذَت نفس عصام مثلًا لمن يرفع قدره بنفسه وباكتسابه، غير متكل على قومه ولا على مفاخرهم ولهذا قالوا:

إنَّ الفتى مَنْ يقولُ ها أنا ذا
ليس الفتى من يقول كان أبي

أما **العظامي**: هو نسبة إلى عظام الموتى، كناية عن الإنسان الذي يفتخر بآبائه وأجداده الذين ماتوا دون أن يكون له أي جهد أو اجتهاد في طلب المعالي، ويقول الثعالبي: كان الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني يقول: كُن عصاميًّا ولا تكن عظاميًّا، ويقصد سُدْ بشرف

نفسك كما ساد عصام، ولا تتكل على سيادة آبائك وأجدادك الذين صاروا عظامًا نخرة، قال الشاعر:

إذَا مـا الحيُّ عـاشَ بعظـم ميت

فـذاك العظـم حـيٌّ وهـو ميـت

هذا لا يمنع أن هناك من الأشخاص من يجمعون بين العصامية والعظامية، بدليل أن الرسول ﷺ كان يفتخر أن جده عبد المطلب قائلًا: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»، فالخلاصة: «**لا ينبغي أن يعيش الإنسان طوال عمره عظاميًّا ولا يفكر أن يكون عصاميًّا في أي شيء**»، فكن أرقى من أن تظل طوال عمرك عظاميًّا.

كان الغزَّال يُعرف إلى جانب شعره بالحكمة، حيث قال عنه ابن حيان في «المقتبس»: «**كان الغزال حكيم الأندلس وشاعرها وعرَّافها**»، ومعنى «حكيم» أنه كان يحسن التصرف في الأمور والكلام، وسنقف على ذلك ونلتمسه جليًّا في مواقفه في السفارة التي ندبه إليها الأمير عبد الرحمن بن الحكم لدى حاكم القسطنطينية على ما سيأتي التفصيل فيه، نظرًا لهذه الحكمة التي حازها الغزَّال تملَّك حبه من قلوب الناس رغم سطوة لسانه الشعري، أو لعل هذا اللسان القاطع لم يكن يستخدمه إلا في هجاء الفقهاء والعلماء ورجال الدولة.

كان الغَزَّال من الشعراء الأندلسيين المعمرين، حيث بلغ من العمر ما يزهو على أربع وتسعين عامًا، هذا العمر المديد مكنه من معاصرة خمسة من أمراء بني أمية: أولهم الأمير عبد الرحمن الداخل، وآخرهم محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، حتى إنه قال:

أدركـتُ في المصـر ملـوكًا معـه

وخامسًـا هـذا الـذي نحـن معـه

مدح الغزَّال من أمراء بني أمية الذين عاصرهم ثلاثة: أولهم الحكم بن هشام الذي مدحه بأبيات شعرية كثيرة كان منها قوله:

أيـا حكمًـا للمعضـلاتِ الفَوَاقـرِ

ويـا حكمًـا تحـت القنـا المتشـاجرِ

وقال في ابنه عبد الرحمن بن الحكم:

يـا بْـنَ المُحَلَّيْـن مـن شِـيثٍ إلـى حكـمٍ

بالمُلــكِ طــورًا وطَــوْرًا بالنبــوَّاتِ

وقال في الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم:

وخامِسًـا هـذا الـذَّي نَحْـنُ مَعَـهْ

أدركـتُ بالمصـرِ ملـوكًا أرْبَعَـة

رغم تفنن الغَزَّال في الشعر وإبداعه في نظمه، إلا أن أبرز الأشعار وأبرع الأشعار التي جادت بها قريحته كانت في زمن الأمير عبد الرحمن بن الحكم، هذا الأمير التي كانت تربطه به علاقة وطيدة،

هذه العلاقة التي كان من نتائجها أن اتخذه الأمير عبد الرحمن سفيرًا له لدى الملوك، حيث أرسله إلى الإمبراطور «تيوفيلوس» إمبراطور بيزنطة - سيتم الحديث تفصيلًا عن هذه السفارة خلال الصفحات القليلة القادمة - حيث ذهب برفقة صديقه، ويُدْعَى يحيى أيضًا، ويُعْرَف بـ«المنيقلة».

وقد نال الغزَّال إعجاب أهل البلاط البيزنطي، حتى إن سيدات القصر أُعْجِبْنَ به، وعلى رأسهن زوجة الملك، وذلك رغم تجاوزه في العمر، حتى قيل: إنه أنشد في بعضهم أشعارًا قام المترجمون بنقلها إلى اليونانية ولقيت هذه الأشعار إعجاب أهل القصر، وقد قضى في سفارته ثلاث سنوات رجع بعدها محملًا بالهدايا والذكريات، وكان عند عودته قد حمل إلى عبد الرحمن رسالة من الإمبراطور، فكان نجاحه في هذه السفارة حافزًا لعبد الرحمن لإرساله إلى الملك النورمان في الدنمارك ليتباحث معه أمر الغزاة الذين يؤرقون أمن الأندلس.

علاقة الغزَّال بالعلماء والفقهاء ورجال الدولة:

وُجِدَ في الأندلس من العلماء من يستلطفون الغزَّال ويتبسطون له ومعه، ليس لأنه من كبار شعراء الأندلس فحسب، بل كان استلطافهم له في بعض الأحيان خوفًا من أن يُسَلِّطَ عليهم سيف الهجاء، ومن هؤلاء العلماء: الفقيه عبد الملك بن حبيب السلمي - الشخصية التالية التي سنتحدث عنها - حيث كان من جملة ما قال للغزَّال مستلطفًا إياه:

إن التـــي خُوَّفْــتَ يحجــزْني

عنهــا الحيــاءُ وحاجــزُ الحِلْــمِ

وجــزاءُ جَــدك يــوم وقعــة

ذقــار يطاعــن مَــعْ بنــي عَمَّــي

وكان الفقيه ابن حبيب يقصد من ذلك تذكير الغزَّال أن أجدادهما كانوا في القدم يدًا بيد، هامسًا في أذنه بطريق غير مباشر أن يحفظا هما الأبناء عهد الآباء، ولا يلجأ أحد منهما إلى فعل يعكر صفو هذه العلاقة الموغلة في القدم.

لم يكن جميع الفقهاء والعلماء الذين كان الغزَّال يستخف بهم ويطعن فيهم، ويذكرهم بالسوء في أشعاره مثل ابن حبيب في استلطافه له حتى ينجو من هجائه، بل كان الآخرون ينبذونه لسوء فعله حتى إنهم كانوا يرمونه بالزندقة، وكان فعل الغزَّال هذا سببًا في سعي الفقهاء والعلماء ضده، وكان من جملة الأشعار التي كان يهجو بها الغزَّال العلماء والفقهاء، قوله:

لســت تلقــى الفقيــه إلا غنيًّــا

لَيْــتَ شِــعْرِي مــن أيْــن يســتغنونا!

وكان هذا البيت من الشعر تحديدًا من جملة الأبيات التي طارت بين الناس، وشاع تغنِّي الناس بها تندرًا بالعلماء والفقهاء الذين يملكون ما لا يُعَدُّ ولا يُحْصَى من الأموال والضياع، وكان من نتائج

ذلك أن زعيمهم يحيى بن يحيى الليثي - تحدثنا عنه سابقًا - قام بلعن الغزَّال في أحد المجالس التي كانت تضم كليهما، حيث وجه يحيى حديثه للغزَّال قائلًا: أعيا عليك - أبلغك - من أين؟! ثم أردف السؤال بالإجابة فقال له: من رزق الله الذي لا تؤمن به يا زنديق!

أيضًا من ضمن ما سطرته يدا الغزَّال في الطعن في العلماء والفقهاء والاستخفاف بهم، قوله:

نقطعُ البرَّ والبحارَ طِلابَ الرَّزْقِ
والقومُ ها هنا قاعدونا
لا يريمونَ مَوْطِنًا لا ولا تُبْصِرُهُمْ
عَيْنُ ناظرٍ يَعْجَزُونا
إنَّ للقومِ مَضْرِبًا غابَ عنَّا
لم يُصِبْ قصدَ وجهِهِ الراكبونا

المتمعِّن في هذه الأبيات الشعرية يشعر وكأنها سُطِرَتْ لوصف أعلام وفقهاء عصرنا إن استحق البعض منهم أن يطلق عليه مثل هذه الألقاب الشريفة والمشرفة.

لم يقف هجاء الغزال عند حدِّ العلماء والفقهاء، بل تخطَّاه إلى هجاء رجال الدولة ومقربي الأمير، وعلى رأسهم نصر الخصي، وهو من أقرب رجال الأمير عبد الرحمن بن الحكم، حتى إنه كان يشاركه الرأي في شؤون دولته، فحدث أن تأخر نصر على الغزَّال في مطلب طلبه منه، فهجاه الغزَّال وسبَّه هو وآخر يُدْعَى عباس الطبلي،

فقال:

قد قلتُ بيتين في نصرٍ وعبَّاسِ

فأنصتوا لهما يا معشر الناسِ

أَيْرُ الحمارِ إذا اشتدَّت مثانته

وصار غُرْمُولُهُ كالجندل القاسي

في است أمِّ نصر ونصرٍ واسْتِ والده

أبي السَّمَوْألِ والطبليِّ عباسِ

وكان من نتيجة هذا القدح والذم في نصر الخصي ناهيك عن فحش القول أن قام نصر بقطع جزء من لسان الغزَّال، وفور ذلك فَرَّ الغزَّال إلى الطبيب وكان يُدْعَى الحراني، كان هذا الطبيب صديقًا للغزَّال ومن ضمن الكارهين والمشاحنين لنصر الخصي لما جُبِلَ عليه نصر من تعنُّت وسوء تصرف، فأمر الحراني صديقه الغزَّال ألا يتناول سوى ألبان الأُتُنِ[1] لمدة أربعين يومًا كاملة، ففعل الغزَّال ما أمره به الطبيب الحراني، فجُبِرَ لسانه وشُفِيَ.

في إطار حديثنا عن علاقة الغزَّال بالعلماء والفقهاء لا يفوتنا التطرق إلى الحديث عن إحدى المواقف التي رواها عنه المؤرخين والتي جانَبَ فيها الغزَّال طريق الصواب، حيث حدث أنه تحدى ذات يوم الفقهاء أنه يستطيع أن يأتي بكلام يضاهي ويعارض في نفس الوقت سورة الإخلاص «**قل هو الله أحد**»، وعكف الغزَّال على ذلك مدة أربعين يومًا محاولًا إنفاذ ما تحدى به الفقهاء والعلماء، دون أن

---

(١) الأُتُنِ: أنثى الحمار.

يدرك أنه بذلك يتحدى مالك الملك جل شأنه وتعالى جده، والنتيجة المعروفة أنه لم يستطع إنفاذ هذا التحدي، وهنا ألمَّت به خشية من الله جل وعلا أقرَّ نتيجة لها أنه عجز عن ذلك، واعترف من يومها أن القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق[1].

أشعاره:

أشاد المؤرخون ببراعة الغزَّال في نظم الشعر، فكان من جملة ما قالوا: «**كان – الغزَّال – مقتدرًا على الشعر، سلس الطبع فيه، يُصَرِّفه في ضروب الشعر، بحلاوة لفظ، وملاحة معنى وغُزْر مادة**».

كما تابع المؤرخون وصفهم لشعره، فقالوا: «**وأكثر شعره محمول على الدعابة والهزل؛ فلذلك خرج بعضه بألفاظ عامية مبتذلة، وهو فيما روَّى ونقَّح محسن مُجَوِّد، وكان على نصاعة أدبه، عالمًا مُفْتَنًّا جزلًا، متكلمًا عِرِّيضًا مُنَدِّرًا، كبير الغور ظريف الخبر، خالد الذكر في الأعصر البائدة.**»

كان من جملة الأشعار التي نَظَمَها الغزَّال إضافة إلى ما سبق، أشعار متعددة المعاني والأغراض، ومنها أشعار يصف فيها بما يكون الرجال رجال، قال فيها:

---

(١) خلق القرآن وعرَّفها البعض بمحنة خلق القرآن: وهو فكر انتشر في عهد الخليفة العباسي المأمون من قِبَل فرقة المعتزلة والتي تُعِدُّ القرآن مخلوقًا وكلام الله مخلوقًا وهو ما ابتدع القول به الجهم بن صفوان، واقتنع بهذا الرأي الخليفة المأمون، وطالب بنشر هذا الفكر وعزل كلّ قاضٍ لا يؤمن بِهِ. وهو ما لقي معارضة واستهجان كثير من الأئمة مثل الإمام أحمد بن حنبل، والذي تحمل من أجل ذلك الكثير من التعذيب حتى قام الخليفة المتوكل بإنهاء هذه المحنة وأفرج عنه.

رأيتُ الرجالَ بِهِمَّاتِهِمْ

وأحسابِهِم في حِرامَاتِهِمْ

أكبَّ رجالٌ على تَجْرِهِمْ

وأعمالهم وصناعاتِهمْ

فهم بَيْنَنَا في النعيمِ المُقيمِ

وأصحابنا في حماقاتِهِمْ

إذا عدَّدَ القومُ أربابَهُمْ

وأَفْضَالَهُمْ في تِجاراتِهِمْ

وَجَدْتَهَمُ عِنْدَ حُكَّامِهِمْ

يَخُوضونَ في ذكُرِ أمواتِهِمْ

وهل حَرْبُ غبراءَ أو داحسٍ

وما حَفِظُوا من وَقيعاتهم

تُفيدُهُمُ دِرْهمًا واحِدًا

إذا التُمَوهُ لحاجاتِهِمْ

أيضًا نَظَمَ الغزَّال بعض الأبيات التي يُشَهِّر فيها ويندد بجنائز أهل قصر السلطان، وتأنقهم ومبالغتهم في بناء المقابر وكأنها قصور، قوله:

أرى أهْـلَ البـلاطِ إذا تُوُفُّـوا

بنـوا تلـك المقابـر بالصخـور

أبـوا إلا مباهـاةً وفخـرًا

علـى الفقـراء حتـى في القبـور

فـإن يكـن التفاضـل في ذراهـا

فـإنَّ العـدل منهـا في القعـور

رضيـت بمـن تأنـق في بنـاء

فبالـغ فيـه تصريـف الدهـور

ألمـا يبصـروا مـا خربتـه الهـور

مـن المدائـن والقصـور

لعمـر أبيهـم لـو أبصروهـم

لمـا عرفـوا الغنـي مـن الفقيـر

ولا عرفـوا العبيـد مـن الموالـي

ولا عرفـوا الإنـاثَ مـن الذكـور

ولا مـن كان يَلْبَسُ ثـوبَ صـوفٍ

مـن البـدن المباشـرِ للحريـرِ

إذا أكلَ الثـرى هـذا وهـذا

فمـا فَضْـلُ الكبيـرِ علـى الحَقيـرِ

كما نظم أبياتًا ينعي بها حاله بعد أن تجاوز الستين من عمره، فقال:

مَضَتْ ثلاثونَ إلى مِثْلِها

لي وثلاثونَ وثِنْتانِ

والثُّلْثُ منها في سبيلِ الصِّبا

وفي المعاصِي ثُلْثُها الثاني

والثُّلْثُ الثَّالثُ في غَمْرَةٍ

قَلَّ بها بِرِّي وإيماني

فانْقَرَضَ العُمْرُ وما في يَدِي

من كلِّ هذا غَيْرُ خُسْرانِ

وكلُّ شيءٍ غَيْرَ ما كان

لله مِنَ الدُّنيا لِبُطْلانِ

لي جَسدٌ بالٍ ولكنَّما

رُكِّبَ فيه رُوحُ شَيْطَانِ

وقال أيضًا:

يا خاضِبَ الشَّيْبِ مَدَى عُمْرِهِ

كم ذا الذي تَسْتطِيعُ أن تَصْبِرا

هـل أَبْصَـرَتْ عينـاكَ قَـطُّ امْـرءًا

أعــادَ عـــودًا يابسًـــا أخضـــرا

مَــنْ شـــابَ قــد مــاتَ ولكِنَّــه

لا يَسْـــتَحِلُّ النـــاسُ أن يُقبـــرا

ثم تابع الغزَّال أبياته معطيًا درسًا لمن لم يمض بهم العمر بعدُ ألا ينخدعوا بملذات الدنيا ومباهجها؛ لأنها يومًا ما فانية إلى دار هي الباقية، فقال:

يـا مُعْجَبًـا بالمـال أَضْحَـى بِـهِ

في النـــاسِ ذا زَهْـــوٍ وطُغْيـــان

هيهـاتَ إنَّ المـالَ يَفْنَـى وَمَـنْ

يَجْمَعُـــه عَـــنْ قَـــدر فـــاني

قُـلْ أيُّهـا البـاني: أمـا تَرْعَـوِي

وأَنْـتَ في سِـجْنِ الـردَّى عاني؟!

هــل لَــكَ في خُبْـرِ بمــا أَفْنَـت

الأَيَّـــام مـــن مُلْــكِ سُـــلَيمانِ

لــو عَلِـمَ البانــونَ مــا أتْعَبُــوا

أنْفُسَـــهُمْ يومًـــا بِبُنْيـــانِ

وقال أيضًا في المعنى السابق:

أرْدتِ الأيَّامُ شِرْويه وسابور وكِسْرَى

وسليمانَ ودَاودَ وذُو الخِضْرِ قَد أردى

كلُّ من ماتَ وإن كانَ عظيمَ الشأن يُنْسى

لم أجِد حين تَفكَّرت وراءَ الله مَرْمَى

لا ولا عنْهُ إلى شيء من الأشياءِ مَعْدَى

كلُّ ما يُعْنَى به الناسُ من البُنْيَانِ يَبْلى

رُبَّ قصر قد رأيناه عزيزَ الأهلِ يُغشَى

ثم أبْصَرْناه من بَعْدُ خرابًا لَيْسَ يَحْيا

أيُّها القصرُ الذي أصْبَحَ للغِرْبان مأوَى

وانقضى العزُّ الذي كنت به إذ كنت تخشى

أيُّ شيءٍ ما خلا الله وما يرضيه يبقى؟!

وقال:

انقضت بعض ليالي

الناس في سوف وحتى

وقال أيضًا:

أيُّها الشَّاكي إلى مَنْ

ليس في كَفَّيه جَدْوَى

إن شَكْواكَ إليه

ليس تُغْنِي عنك شيئًا

فاسأل الله فلا

أقرب منه حين يُدْعَى

وارْضَ بالقُوتِ فإنَّ

القوتَ فيه كل مَكْفَى

لم يتحدث الغزَّال في أشعاره عن هذه المعاني آنفة الذكر فحسب، بل تطرَّق إلى بعض من مشكلات المجتمع، ومنها زواج الفتيات الصغار من الشيوخ الكبار، أو ما يُطْلَقُ عليه في عصرنا «زواج القاصرات»، فقال:

إنِّي أَرْجُو للفتاةِ التي

تكونُ عندَ الشيخ أَنْ تُؤْجَرا

حَقٌّ لها لَوْ خَنَقَتْ نَفْسَها

عِنْدَ جميع الناسِ أن تُعْذَرا

والمَقْتُ كُلُّ المَقْتِ في عَيْنها

أَحْسَنُ منه عِنْدَها مَنْظَرا

سفارة الغزَّال إلى القسطنطينية:

كان من أبرز المواقف التي حدثت بين شاعرنا الغزَّال والأمير عبد الرحمن بن الحكم أن طلب الأخير، أو بالأحرى أمره أن يخرج على رأس وفد هو وصاحبه ويُدْعَى يحيى أيضًا ويُعْرَف بالمنيقلة متجهًا إلى القسطنطينية لملاقاة ملك الروم ويُدْعَى توفيل، وذلك بعد أن زار توفيل الأندلس، فكان إرسال وفد له من قِبَل الأمير عبد الرحمن بن الحكم تعبيرًا عن توثيق العلاقات بين البلدين، فطلب الغزَّال من الأمير عبد الرحمن أن يستعفيه من رئاسة هذا الوفد، متعللًا بكبر سنِّه وبُعد الطريق ومشقته على مثله، إلا أن الأمير لم يَقبل طلبه، وأكد عليه في الخروج لما أمره به، وأعطاه الأموال الوفيرة حتى يستعين بها على رحلته، ولم يكتفِ بذلك بل أمر بإعطاء أهله وولده القطائع والأموال والوفيرة حتى يستعينوا بها على معاشهم حتى رجوعه من مهمته، وأمر أن يتم ذلك قبل سفر الغزَّال إلى القسطنطينية حتى يسافر وهو مطمئن على أهله وذويه، إلا أن الغزَّال استمر في إلحاحه على الأمير عبد الرحمن أن يستعفيه من هذه المهمة، وجعل سبيله إلى تنفيذ طلبه نَظْم الأشعار التي تحمل بين طيات معانيها طلب الإعفاء ممزوجًا بالفكاهة.

فكان من جملة ما قال:

يابْـن المُحَلِّيْـنَ مـن شِيثٍ إلى حَكَـمِ
الملـكِ طـورًا وطـورًا بالنبـوات

وبالـرَّوِيِّ التـي في شـأنها عَجَبٌ
عنـد البَدِيهـاتِ منهـم والرَّويَّـات

ابـن لـي طلبـة لـم يُرْسِـل لِلِحْيَتِـهِ
لكنـه كانَ مـن أهـل المُـرُوَّات

وكان بالدهـر ذا علـمٍ ومَعْرِفَـة
وصحبـةٍ لعَلِيَّـاتِ الرِّجـالاتِ

وكان للـروم جـارًا في حداثَتِـه
يغشـاهُمُ في السَّـرايا والتِّجـارات

وكلُّ قـومٍ لهـم حـالٌ تشـاكِلُهُم
فيمـا هُـمُ فيـه مـن أهـل الصناعـات

وإنمـا نحـنُ في أحوالِنـا سُـوَقٌ
وشـكلُنا ليس مـن تلـك الشُّـكولات

وإنمـا هـو هـذا الشـعر أقرِضُـهُ
كمـا أحـاولُ مـن دهـري لحاجاتـي

والـروم ليسـوا ذوي شـعرٍ فأُنْشِـدَهُمْ
إذا وردتُ عليهـم مـن مقالاتـي

وهـا هنـا واحـدٌ في طـولِ لحيتِـهِ
وعَرْضِهـا بضمـانٍ عَشْـرُ لِحْيـات

فَسَـــيِّرُوه ففيــه فــوقَ حاجَتِكُـــم

مَــنْ تبتغــونَ ســواه للوفــادات

وأطلِقــوني وخافــوا الله في وَلَــدِي

لا توتموهُــمْ فــإني ذو بُنَتَّــاتِ

هذا جزء من الأبيات التي نظمها الغزَّال راجيًا الأمير عبد الرحمن بن الحكم أن يستعفيه من مهمته تلك، ومَنْ أراد المزيد فليرجع إلى المصادر والمراجع التي تتحدث عن الغزَّال والتي تم إيرادها في بداية الحديث.

حدث أن قال أحدهم للغزال عن سبب تخيُّر الأمير له دون غيره، حيث قال: «**بل الأمير تخيرك لذلك، لنبلك وذكائك، ولم يجد من يسدُّ مسدَّك، وأين تراه يذهب عنك**».

فنظم الغزَّال من فوره قائلًا:

قــالَ قــومٌ إن الغــزَّال نبيــه

وأشــاروا ومــا استشــيروا إليــه

لــم يكُــنْ ذا لذلــك بــل وجــدوني

أيســر العالميــن فقــدًا عليــه

ابْـنَ سـبعينَ قـد نَضَـتْ حِقَـبُ الأيـام

ثــوب الشــباب عــن منكبيــه

أغفلــوني عنــد الرَّخــاءِ فلمــا

نــزل الكــره قدمــوني إليــه

ســوف أمضــي ومــن تعمــد ضــري

فصــروف الزمــان بيــن يديــه

ولئــن أن يكــون في قــدر الله

إيابــي فالأمــر ليــس إليــه

بعدها بيوم أو أكثر أرسل الأمير عبد الرحمن في طلب الغزَّال حتى يكلمه بشأن ما سيقوم به أثناء سفارته إلى ملك الروم، وعندما أقبل الغزَّال على الأمير، قال له الأمير مداعبًا «جاء الغزَّال بحسنه وجماله»، وهنا استأذن الغزال الأمير أن يسمح له تذييل ما قال ببعض من أبيات الشعر، فأَذِنَ له الأمير وأمر بإحضار دواة وقرطاس - ورق - حتى يكتب الغزَّال ما يريد، وبدأت يد الغزَّال في سَطْرِ نَظْمِه:

قــالَ الإمــامُ مُداعبًــا بمقالِــهِ

جــاءَ الغــزَّالُ بحســنهِ وجمالِــهِ

دَعْــوَى الــذي أَوْدَى بــه مِنْــهُ البِلَــى

لــم يَقْصُــرِ الممــدودَ مــن آمالــه

أيـن الجمـالُ لـه الجمـالُ مـن امرئٍ

ألقــاهُ ريــبُ الدهــرِ في أغلالــه

حاتي المطا واهي القُوى داني الخطا

يمشــي فبعْثُــرُ في صــدورِ نِعالــه

فــإذا نظــرتَ إليــه نحــوَكَ مقبــلًا

أبصــرت صــرف الدهــرِ في إقبالــه

والمــرءُ تحــدُثُ أُخْرَيــاتِ زمانــهِ

أشــياءُ لــم يخطــرْنَ قَــطُّ ببالــه

لله دَرُّ جديــدِ أيــامِ الصِّبــا

ولذيــذِ صُحْبَتِــه وطِيــبِ خِلالــه

ونســيمِ أرواحٍ نعمــتُ ببردِهــا

كانــت تهــبُّ عَلَــيَّ مــن آصالــه

هذا بعض ما جادت به قريحة الغزَّال حينها، ولم نُورِدْ ما جاد به كاملًا لطوله، فمن يريد المزيد عليه بالعودة إلى المصادر التي عرضت في بداية الحديث عن شاعرنا الأديب الأريب.

أُعْجِبَ الأمير عبد الرحمن بنظم الغزَّال هذا أيما إعجاب، خاصة وأن شاعرنا أتى به على البديهة دون إعداد أو تحضير مسبق، فأثنى عليه الأمير، ثم كرر عليه إلزامه له بالخروج إلى القسطنطينية، وأغلق له كل باب يحاول منه الدخول إلى الأمير في سبيل إعفائه من هذه المهمة الموكل بها، ومع ذلك لم يتغافل الأمير عن تطييب خاطر

شاعرنا بأن أكد له أنه سيعتني بأهله وذويه، وسيُجْرِي عليهم الأرزاق حتى يعود، فخرج الغزَّال من مجلس الأمير وهو يقول:

أبقى الأميرُ علينا هَمَّ ما وَعَدا
فما اعتددنا بشيءٍ عندما انفردا

يقول لي ابْنُ شُهَيْدٍ والوزيرُ أبو
عبد الإله وعبد اللهِ قد شهِدا

لا تأسفنَّ على شيءٍ تخلِّفُه
سيوسعُ الملكُ الإجراءَ والصَّفَدا

فقلت: لا شكَّ لكنِي أُشَبِّهُهُ
بقُبلةِ العاشقِ المعشوقَ قد رقدا

فينثني عنه لم يَشْعُرْ بقبلته
ولم يصب لذةً منه ولا رَشَدا

ما كان أحلاهُ في نفسي وأطيَبَه
لو كان ذلك في اليوم الذي وَعَدا

وعندما علم الأمير عبد الرحمن بأبيات الغزَّال تلك، أنجز من فوره ما وعده به، وزاده بأن وَقَّعَ له على راتب دائم له لا ينقطع إلا بموته، فخرج الغزَّال ونفسه راضية بما حاول الأمير فعله لاستلطافه، وتأهَّب للرحيل إلى القسطنطينية.

ابتدأت رحلة الغزَّال إلى القسطنطينية، وفي مبدئها نَظَمَ قصيدته التي عُرِفَت بالرائية وهي على عروض قصيدة لأبي نواس[1]، فقال الغزَّال:

أعاذِلَتي إن الظلام بشيرٌ
وعندِيَ رحلٌ حاضرٌ وبعيرُ
وعندي من الزادِ الكفافُ ومؤنِسٌ
إلى جانبي عَضْبُ الغِرارِ ذكير
وقلبٌ ذكيٌّ ما يكادُ يخونُني
إذا خِين مجموع الحصاة وَقور
وإنَّ مُقَامي شَطْرَ يومٍ ببلدةٍ
أخافُ على نفسي بها لكثير
وقد يهرب الإنسانُ من خيفة الردى
فيلحقه ما خاف حيثُ يسير
لِيبْلغ نفسًا عُذرَها ولعله
تكون أمورٌ بعده وأمور

(١) قال أبو نواس في قصيدته تلك:

أجارة بيتنا أبوكِ غيور ... وميسور ما يُرْجَى لديكِ عير

وهي قصيدة نظمها أبو نواس في مدح والي مصر.

فكـــم ظاعـــن قـــد ظـــنَّ أن ليـــس آيبـــا

فـــآب وأردى حاضـــرون كثيـــر

وإن الـــذي أُعْطِيتُـــهُ مـــن تَغَرُّبـــي

علـــيَّ وإن أعْظَمْتَـــه لحقيـــر

لعلِّـــي ســـأمضي ثـــم أرجـــعُ ســـالمًا

ويهلِـــكُ بعـــدي آمنيـــن حُضـــور[١]

تحرك الغزَّال وصاحَبَه المنيقلة في طريقهما نحو ساحل مدينة تدمير، ومعهما رسول حاكم القسطنطينية، فركبوا البحر متجهين إلى القسطنطينية، وفور نزولهم البحر هاج عليهم الموج، ففزع المنيقلة صاحب الغزَّال فزعًا شديدًا، حتى قيل: إنه رجع إلى البر وقال لصاحبه الغزَّال: «**ألقينا والله بأيدينا إلى التهلكة**»، فردَّ عليه الغزَّال قائلًا:

قـال لـي يحيـى وصرنـا بيـن مـوجٍ كالجبـال

وَتَوَلَّتْنَـا عُصـوفٌ مـن دَبـورٍ وشِـمال

شـقَّتِ القلعيـنِ مِمَّـا في عُـرَى تلـك الجبـال

وتمطَّـى مَلَـك المـوت إلينـا عـن حيـالِ

قيل: إن نتيجة لهذه العاصفة التي هَبَّت عليهم تراجع المنيقلة صاحب الغزَّال عن السفر معه إلى القسطنطينية، فكتب الغزَّال إلى

(١) للمزيد من القصيدة، انظر: ابن حيان: المقتبس، تحقيق: محمود مكي، ص٣٥٧-٣٥٩.

الأمير يستوصيه خيرًا بصاحبه وأهله، وقيل: إنه أكمل الرحلة مع صاحبه.

وصل الغزَّال إلى القسطنطينية فاستقبله حاكمها بالترحاب، وسُرَّ بحضوره، وكانت للغزَّال معه مواقف وأخبار كثيرة سطرتها لنا أيدي المؤرخين، تميز البعض من هذه المواقف والأخبار بالطرافة، وامتاز بعضها الآخر بالحكمة التي حَوَتْهَا شخصية الغزَّال، وفيما يلي ذكر بعض من هذه المواقف والأخبار:

كان من المواقف التي حدثت بين الغزَّال وحاكم القسطنطينية التي إن دلت على شيء فإنما تدل على ما تمتَّع به الغزَّال من فطنة وحكمة ممزوجة بالحنكة في الخروج من أحلك المواقف بسلاسة ويسر، حدث أن بعض أصحاب الملك أخبر الغزَّال قبل مقابلته للملك بأيام أن من نُظُم المُلك أو رسم الدخول على المَلك أن ينحني الداخل احترامًا وإجلالاً له، فقال له الغزَّال: إن هذا غير جائز في شريعتنا، فالانحناء والخشوع لا يكون إلا لله جل وعلا.

أخبر رجال الملك ملكهم بمقالة الغزَّال تلك، فاحتال الملك على الغزَّال بأن خفض من ارتفاع الباب المفضي إليه حتى إذا ما دخل يُجْبَرُ أن يدخل عليه منحنيًا.

وعندما أقبل الغزَّال على الملك ووجد هذا الباب فطن لحيلة الملك؛ لذلك دخل الباب بظهره وليس بوجهه، ثم استقام واستقبل الملك بوجهه، وهنا ابتسم الملك من فطنته وحسن تخلصه من الحيلة عليه بـ«**ذكاء حسَّه وأنفةِ نفسه**» كما قيل، وهنا توجَّه الملك

إلى وزرائه ورجال دولته الذين يضج بهم المجلس، وقال لهم: بحقٍّ قالت الحكماء «**الرسولُ من المُرْسِل**»، «**وهذا الأندلسي من حكماء الناس ودهاتهم**».

فأثناء قراءتنا لإلحاح الأمير عبد الرحمن على الغزَّال في الذهاب سفيرًا لدى حاكم القسطنطينية وعدم إعفائه من الذهاب بالرغم من محاولات الغزال المتعددة في سبيل استعفائه مراعاةً لكبر سنه، قد يكون أصابنا بعض المشاعر السلبية ممثَّلة في أن مثل هذا الفعل لا يكون إلا من قبيل الكبر الذي حوته قلوب الحكام وتعنتهم ودكتاتوريتهم، ولكن هذه المواقف التي وقع فيها الغزَّال وأحسن التصرف فيها بحنكته وحكمته؛ تُبين لنا أن الأمير عبد الرحمن كان يعلم من يبعث لأحد كبار أعداء أمة الإسلام، فالغزَّال رغم أشعاره التي تحمل الكثير من المزاح والطرافة، والألفاظ والمعاني غير اللائقة في بعض الأحيان، ناهيك عن ديدنه في الاستخفاف بالعلماء وهجوهم، إلا أن هذا لا يمنع أنه يحمل بين جنبات نفسه احترامًا وتوقيرًا لدينه وعقيدته، وقد ترجم الغزال ذلك فعليًّا بمحاولاته الدائمة في إظهار عزة الإسلام لدى مَنْ أرسل إليهم، فإن كان يرتكب بعض المعاصي أو الذنوب أو يقوم ببعض الأمور التي تتعارض وشريعتنا في بلده، هذا لا يعني أن يُظهر هذا للأعداء؛ لأن هذا يعني الاستخفاف بنا نحن المسلمين، ومن ثَمَّ الاستخفاف بديننا.

ذُكِرَ أن حاكم القسطنطينية أرسل يومًا في طلب الغزَّال لحضور مجلس خاص له، هذا المجلس الذي جلست فيه زوجة حاكم

القسطنطينية في كامل زينتها وحَلْيِها إلى جانب زوجها، وفور دخول الغزَّال وجلوسه قُبالة الملك، أخذ الملك في الحديث معه وسؤاله عن أحواله وأحوال بلده الأندلس وأحوال أهلها، وغيرها من الأحاديث التي تروق للملوك، وترجمان الملك يترجم للغزَّال ما يمليه عليه الملك، وأثناء ذلك كان الغزَّال لاهيًا لا يلتفت إلى حديث الملك ولا إلى ترجمة ترجمانه، حيث كان يطيل النظر إلى زوجة الملك لا يغض الطرف عنها، وفور أن لاحظ الملك ذلك عَلَتْ وجهه علامات الغضب، وطلب من ترجمانه أن يسأله عن سبب تشاغله بالنظر إلى زوجته وعدم الرد على أسئلته.

وعندما سأل الترجمان الغزَّال رد عليه قائلًا: «**إنه بهرني من حسن هذه الملكة وبديع خلقها، ما اقتطعني عمَّا دُعِيتُ له، وحُقَّ ذلك، فإني لم أر قط صورة أحسن منها، ولا منظرًا آنق**[1]**، وكيف لا أذهل عما يقول الملك لي وأنا أنظر منه إلى وجه يبهر الشمس بضيائه، ويكسفها ببهائه، ويُذكِّر الغافل بقدرة الله على إبداع الخلق، ويُشوِّقهم إلى الحور العين.**»

فَسَّرَ الترجمان كلمات الغزَّال للملك ففرح بها، وحَدَّثَ بها زوجته، فسُرَّت بها أيما سرور وشكرت الغزَّال، ولا زالت من وقتها وطوال مدة تواجد الغزَّال في القسطنطينية تُحدث الملك عنه، ولا زالت تزيد حظوته لدى زوجها حتى لم يرفض له كل مطلب كان يطلبه.

---

(١) تفضيل من أنيق.

كان من ضمن الأحاديث أو الحوارات التي دارت بين زوجة الملك والغزَّال، أنها تحدثت إليه متسائلة: ما الذي يدعوكم معشر العرب إلى الختان؟ وما الذي تفيدون منه؟ ألم تغيِّروا خلق الله بارتكابكم هذا الفعل؟ فرد عليها الغزَّال: أصلح الله الملكة، إن الدالية[1] المغترسة إذا زَبَرَت[2] قَوِيت وصَلُبت وغَلُظت واشتدت، وما دامت لا يُفْعَل بها ذلك لا تزال رقيقة ضعيفة؛ فضحكت زوجة الملك من فطنته، وفهمت تلميحه، وأُعْجِبَت به زيادة؛ مما دفعها لزيادة العناية به، ووصاية زوجها به خيرًا.

وأورد المؤرخون أن زوجة الملك بلغ من عنايتها واهتمامها بالغزَّال إعجابًا به أن أحضرت له ابنها الذي لا يقل عنها جمال هيئة وبهاء منظر، وقالت للغزال: «**قد كرَّمتك بمجيئي بابني قرة عيني إليك يبيت الليلة عندك، ويشرب معك، ويستفيد من آدابك**»؛ وهنا شكرها الغزَّال، ورفض مجالسة ابنها له بفطنة وأدب، فقال لها: «**لست ممن يقارب الشراب - يشرب الخمر -، لا تسوغه لي ديانتي، ولا تطيب له نفسي، وفي مقام هذا الفتى الجليل قدرةً عند مثلي ضرر عليه؛ لمفارقته رفاهية ملكه ولين مهاده، فلتُعْفِني سيدتي من إقحامه فيما لا يليق به**»؛ فازداد عجب زوجة الملك من يقظة الغزَّال وحكمته وصيانة ديانته؛ مما دفعها إلى إخبار زوجها بما حدث، فزادا أيضًا إعجابًا وانبهارًا به.

---

(١) الدالية: شجرة الكروم.

(٢) زبرت: شذبت.

عندما كان الغزَّال في أحد مجالس الملك التي اعتاد الملك دعوته إليها فترة تواجده عنده، حدث أن طلب الغزَّال بعضًا من الماء حتى يشرب، فجيء له بكأس مصنوع من الذهب ومكلَّل بالجواهر، فلما شرب الغزال صبَّ المتبقي فيه وأدخل الكأس في كمه، فتعجب الملك من فعله، وطلب من الترجمان أن يسأله عن ذلك، وعندما سأله الترجمان ردَّ عليه الغزَّال قائلًا: «**إن من سيرة خلفائنا هؤلاء الذين تواصلونهم، أن من استقى بحضرتهم من رسولٍ نبيه فخصُّوه بإناء كريم أن يأخذه بعد شربه ولا يعيده، فجريتُ على عادتهم، فإن لم تحسن عندكم رددت كأسكم**»، ثم شرع الغزَّال في إخراج الكأس من كمه، فاستحى الملك وأشار له أن يتركه.

كما حدث عندما هَمَّ الغزَّال بالعودة إلى الأندلس أن أشارت إليه زوجة الملك أن يطلب منها ما يريد وستنجز له وتعطيه ما يريد إن كان في استطاعتها؛ جزاءً لجميل فعله معها، فقال لها: «**إن لي بُنَيَّات أصاغَر أُفْرِغْنَ في قالَبِ قُبْحي، وكُسِين جلابيب فقري، فإن عُنِّسْن – بقين عوانس بغير زواج – لم يفارقن بيتي، فلو نَثَرَتْ سيدتي عليهن من بعض قلائدها لَنَفَّقَتْهُنَّ عند الرجال، وقضت فيهنَّ ذمامي**»، وفور أن انتهى من كلماته تلك انتزعت زوجة الملك من عنقها قلادة لم ير الراؤون كما قيل أبدع منها، وأعطتها للغزَّال، وقيل: إن هذه القلادة كانت سببًا في انتقاله من الفقر إلى الغنى؛ وذلك لعلو قيمتها وارتفاع ثمنها.

انتهت سفارة الغزَّال لدى حاكم القسطنطينية، وتجهَّز وصاحبه المنيقلة للعودة إلى وطنهما الأندلس، وكان الغزَّال عند عودة يحمل العديد من المقتنيات القيِّمة والثمينة التي حازها سواء من الملك أو زوجته، وحدث عند وصوله إلى الأندلس أن علم الوزير عبد العزيز بن هاشم بما جاء به الغزَّال من مقتنيات قيِّمة ونفيسة، فذهب إليه وطلب منه أن يعطيه حِلْية رفيعة القدر ومرصعة بالجواهر، فرفض الغزَّال وقال له: «**إنها انكسرت وقسَّم جواهرها على بناته**»، فلم يصدقه الوزير وذهب من عنده وهو يستشيط غضبًا، وكان رأي الوزير في ذلك كما هو رأي رجال الدولة وأربابها في كل زمان ومكان، أن الغزَّال حصد هذه المقتنيات بسبب قيامه بمهمة للدولة، فلو لم تكلفه الدولة بهذه المهمة لما حاز كل هذه المقتنيات الثمينة؛ لذلك وجب مشاركته فيها.

حدث فيما بعدُ أن قام الوزير عبد العزيز بن هاشم بسجن الغزَّال، وكعادة الغزَّال في فطنته وذكائه، طلب من أحد المغنِّين عندما يذهب إلى الأمير عبد الرحمن أن يغنِّي بين يديه هذه الأبيات:

قـد أحسـن الله بنـا عندمـا

كان الـذي استـودعت لـم يذهـب

إذا أخـذت الحـق منـي فـلا

تلتمـس الربـح ولا ترغـب

وقام المغني بما طلبه من الغزَّال، وغنَّى هذين البيتين من الشعر في إحدى مجالس الطرب التي كانت تُعْقَد للأمير، فأُعْجِبَ الأمير بهذه

الأبيات أيما إعجاب، وسأل المغني عن صاحبها، فقال له: الغزَّال، وتابع حديثه للأمير قائلاً له: إن الغزَّال مسجون في سجن الوزير عبد العزيز بن هاشم، فأمر الأمير بإطلاق سراحه والقدوم به إليه.

ذكرنا سابقًا أن الغزَّال عَمَّر عمرًا مديدًا حتى إنه عاصر خمسة من أمراء بني أمية في الأندلس، وقد عَلَّق ابن حيان على هذا العمر المديد للغزَّال، فقال: «**والبقاء السرمد للواحد الصمد عز وجهه**».



عبد الملك بن حبيب السلمي[1]

(عالم الأندلس)

أصله من طليطلة، انتقل جده سليمان إلى قرطبة، وانتقل أبوه وإخوته أثناء فتنة الربض[2] إلى إلبيرة، وعقب رجوع عبد الملك بن حبيب من رحلته للمشرق في طلب العلم، استوطن إلبيرة مع أهله وذويه، ثم استقدمه الأمير عبد الرحمن بن الحكم إلى قرطبة؛ لما علم من علمه وفضله، وجعله في طبقة المفتيين بقرطبة، فأقام مع يحيى بن يحيى الليثي رئيس الفقهاء والعلماء في المشاورة والمناظرة كما تم الحديث عنه سابقًا، وقد مات يحيى قبله، فانفرد عبد الملك بعده بالرياسة.

---

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ج١، ص٣٥٨؛ المقري: نفح الطيب، ج٢، ص٥؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص١٢٧؛ السيوطي: بغية الوعاة، ج٢، ص١٠٩؛ الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص٢٦٠؛ الحميدي: جذوة المقتبس، ص٤٠٧؛ ابن فرحون: الديباج المذهب، ج٢، ص٨؛ الخشني: أخبار الفقهاء والمحدثين، ص٢٣٨؛ الإشبيلي: مطمح الأنفس، ص٢٣٣-٢٣٤؛ محمد سعيد الدغلي: الحياة الاجتماعية في الأندلس، ص٣٠.

(٢) ثورة الربض أو وقعة الربض: ثورة حدثت بقرطبة عام ٢٠٢ هـ/٨١٨م قام بها أهل قرطبة، خاصة سكان ربض شقندة ضد حكم الأمير الحكم بن هشام، وكادت أن تنهي حكمه، وكان من نتائجها إجلاء قطاع كبير من سكان الربض عن قرطبة، وهي الفتنة التي فر على إثرها يحيى بن يحيى الليثي إلى طليطلة كما ذكرنا سابقًا.

طلبه للعلم:

أخذ العلم عن أعلام الأندلس، وفور اكتفائه من الأخذ عنهم، حمل ضرب طريقه نحو المشرق للاستزادة من علوم أعلامه، والنهل من المنابع الأصيلة للعلم، وهذا كان شأن أغلب علماء الأندلس على ما سيأتي التطرق له لاحقًا، وقد روى ابن حبيب عن نفسه أنه عندما قرر الرحلة إلى المشرق لطلب العلم، أن أبيه حدثه قائلًا: «**عزمتَ يا بني على الرحلة لطلب العلم؟**» فقال له عبد الملك: «**نعم يا أبتاه**»، فقال له: «**إذا كملت حوائجك فعرفني بذلك**»، فلما أتم عبد الملك جمع حوائجه للسفر، أبلغ والده، فأخرج له والده ألف دينار وأعطاها له، ثم قال له: «**خذ هذه واستعن بها في طلب العلم، ولا تنفق منها شيئًا إلا في سبيل العلم إلا إن احتجت إلى ابتياع جارية تتعفَّف بها، فإن أنفقت هذه الألف واحتجت إلى زيادة فاستدن عليَّ بألف آخر - يقصد استدن بألف وأنا أقضيها لك -**»، وبالفعل قام عبد الملك بوصية والده خير قيام، ولم ينفق شيئًا من هذا المال إلا في سبيل العلم وتحصيله.

كما سمع ابن حبيب وأخذ عن العديد من أعلام عصره شرقًا وغربًا، كذلك أخذ منه الكثير من طلاب العلم الذين أضحوا فيما بعد أعلام عصرهم، ومنهم ابناه: محمد وعبيد الله، وبَقِيُّ بن مَخْلَد وابن وضاح والمغامي وغيرهم، وقد تحدث عنه الأخير قائلًا: «**لو رأيت ما كان على باب ابن حبيب لازدريت غيره**»، حيث كان لكثرة التلاميذ الذين يجتهدوا للأخذ عنه أنه كان يخرج من الجامع وخلفه نحو ثلاث مائة فرد بين طالب لعلم الحديث والفرائض والفقه والإعراب وغيرها.

ومما يدلل على ما حازه ابن حبيب من علم وفير ومعرفة واسعة إضافة إلى مؤلفاته الوفيرة التي سنتحدث عنها خلال الأسطر القليلة القادمة، أنه عند قدومه على مصر، كان هناك جماعة يجلسون مع بعضهم وإذا ما قدم عليهم رجل، استخدم كلٌّ منهم فراسته في معرفة إن كان فقيهًا أو لغويًّا أو محدثًا أو طبيبًا، وعندما قدم عليهم عبد الملك بن حبيب من بعيد، قال أحدهم: هذا فقيه، وقال آخر: بل شاعر، وقال ثالث: طبيب، وقال رابع: بل خطيب، ولما كثر الاختلاف بينهم، قاموا وذهبوا إليه وأخبروه باختلافهم في أمره، وسألوه من هو، فقال لهم: «**كلكم قد أصاب، وجميع ما قدَّرتم أحسنه، والخبرة تكشف الحيرة، والامتحان يُجلِّي عن الإنسان**»، وصح كلامه، فمع الوقت ذاع صيته في مصر، فكان إذا جاءه طلاب العلم في مختلف العلوم والآداب والفنون، فسألوه، أجابهم جوابَ محقق، وكان لتمكنه في الجواب أن تعطلت حلقات بعض العلماء؛ وذلك للالتفاف الطلاب في مختلف العلوم والآداب والفنون حول حلقته ومجلس درسه.

الجدير بالذكر أن ابن حبيب لم يكن من الشخصيات المتميزة علميًّا وخُلُقيًّا فحسب، بل كان من المتميزين في العناية والاهتمام بهيئته وهندامه ليس عند خروجه للناس فحسب، بل كان يهتم بذلك في كل موضع يَدرس فيه العلم حتى في بيته ومع نفسه، والدليل على ذلك ما رواه أحدهم - لم أقف على اسم الرجل - من حرص ابن حبيب على تحصيل كل ما تطاله يداه من علوم وآداب وفنون، فقال عنه: «**ما كنت رأيت أدوم منه - يقصد عبد الملك - على الكتاب**»، ثم تابع الرجل حديثه عن عبد الملك قائلًا: «**إنه دخل على عبد الملك ذات يوم في وقت القائلة وكان الحر على أشد ما يكون، فوجدته يلبس**

قلنسوة على رأسه، ويطالع كتبًا بين يديه، وينسخ ما فيها، حيث إن هذه الكتب أخذها من أسد بن موسى أحد أعلام المصريين آنذاك.»

مؤلفاته:

كان من مصنفاته كتاب «الجوامع»، وكتاب «فضل الصحابة رضي الله عنهم»، وكتاب «غريب الحديث»، وكتاب «تفسير الموطأ»، وكتاب «حروب الإسلام»، وكتاب «المسجدين»، وكتاب «سيرة الإمام في الملحدين»، وكتاب «طبقات الفقهاء والتابعين»، وكتاب «مصابيح الهُدى»، وغيرها من كتبه التي ذاعت وبلغت شهرتها الآفاق آنذاك كما هو شأن سيرته، وقد أشاد أحدهم بكتب عبد الملك موضحًا أنه لم تكن توجد كتب تحبِّب عبادة الله إلى خلقه، وتعرِّفهم به مثل كتب عبد الملك التي ألَّفها في الرغائب والرهائب، ومنها كتاب «فضائل عمر بن عبد العزيز»، وكتاب «فضائل مالك»، وغيرها من الكتب التي يجد فيها طالب العلم نماذج القدوات التي يرنو بصره أن يصير مثلها.

قال عنه المقري التلمساني مشيدًا بمؤلفاته الوفيرة والعظيمة في مجالها: «**رأيت في بعض التواريخ أن تواليفه بلغت ألفًا، وجاء عنه أنه عندما سأله أحدهم عن عدد المؤلفات التي سطرتها يداه، رد عليه قائلًا: «ألفُ كتاب، وخمسون كتابًا»، ومن أشهرها كتاب «الواضحة» في مذهب مالك، وهو كتاب كبير مفيد، ومشهور عند علماء المشرق، وقد نقل عنه الحافظ ابن حجر وغيره.»**

الجدير بالذكر أنه بجانب كون عبد الملك بن حبيب فقيهًا ومؤرخًا ونحويًّا، فهو من أوائل من اشتهروا بمزاولة الطب في عهد الإمارة الأموية بالأندلس، حيث قيل: إنه ورد في فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية «الطب والصيدلة» أنه عُثِرَ على مخطوط في الطب محفوظًا في الخزانة العامة والوثائق برباط الفتح، هذا المخطوط مدوَّن بالخط المغربي، ويرجع تصنيفه إلى عبد الملك بن حبيب.

جمع ابن حبيب في الكتاب أو المخطوط آنف الذكر أقوالًا وأمثالًا ونصائح تتعلق بحفظ الصحة، والوقاية من الأمراض، كما يحوي الكثير من الأحاديث المأثورة عن الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم؛ كذلك وُجِدَ به أقوال منقولة على لسان الحارث بن كلدة، وغيره من المتطببين الذين ظهروا في العصر الجاهلي وصدر الإسلام؛ أيضًا يحوي هذا المختصر أو المخطوط نصائح في النهي عن الإيمان بالسحر والتمائم، والنهي عن الجراحة، خوفًا من قطع العروق ونزف الدم، كما يضم شرحًا لمنافع الحجامة ومساوئها، وبيان الأسباب التي دعت المسلمين إلى كراهة الحجامة والكي، والوصية باستعمال الماء البارد في معالجة الحمى، وشرحًا لطرق معالجة المصابين بالصداع والجذام، إضافة إلى ما احتواه بين طياته من أسماء الأدوية والعقاقير، وغيرها مما يتعلق بالصحة والوقاية من الأمراض.

نَقَلَ عن ابن حبيب العديد من العلماء، أمثال: الحافظ بن حجر وصاحب المواهب وغيرهما؛ كذلك وُجِدَ في كتاب «الحسبة» لابن تيمية أقوالٌ كثيرة يُرجعها المؤلف إلى ابن حبيب، وهي تتعلق

بأحكام السوق كالبيع والشراء والمكاييل والأوزان وأسعار الحبوب وتوحيد الأسعار وغيرها من المعاملات.

ثناء العلماء عليه:

تحدث عن ابن حبيب المؤرخ الجليل الفتح بن خاقان في مؤلفه الزاخر «مطمح الأنفس»، فقال: «**الفقيه العالم أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمي، أيُّ شرف لأهل الأندلس، وأيُّ مفخر، وأيُّ بحر بالعلوم يزخر، خلَّدت منه الأندلس فقيهًا عالمًا، أعاد مجاهل أهلها معالم، وأقام فيها للعلوم أسواقًا نافقة، ونشر منها ألوية خافقة، وجلا عن الأبواب صدأ الكسل وشحذها شحذ الصوارم والأسل، وتصرَّف في فنون العلوم، وعرف كلَّ معلوم، ولقي أنجاب مالك وسلك في مناظراتهم أوعر المسالك، حتى أجمع عليه الاتفاق ووقع على تفضيله الإصفاق.**»

فضلاً أَعِدْ قراءة وصف ابن خاقان لابن حبيب، ولكن في هذه المرة اقرأه بتأنٍّ وروِيَّة؛ ستلحظ وكأن لسان حال ابن خاقان يقول: وبأي شيء يمكن أن تفخر الأندلس إن لم تفخر بمثل هذا العلامة الجليل، الذي لم يقف علمه عند حد، بل وكأنه يحتوي بين جنباته بحرًا من العلوم، حتى إنه استطاع بهذا العلم أن يعيد مجاهل أهل الأندلس معالم، بما أقامه فيها من أسواق للعلوم؛ فالمؤرخون عندما تطرَّقوا إلى وصف الحكم المستنصر قالوا عنه: «**أقام سوقًا للكتب نافقة**»، فالحكم أقام سوقًا للكتب طاف به العلماء من الشرق والغرب

سواء؛ لما يحويه بين جنباته من نوادر الكتب وبديعها؛ أما ابن حبيب فقد أقام أسواقًا للعلوم؛ السؤال: بِمَ أقامها؟!

الجواب: بنشر العلوم والآداب والفنون في ربوع الأندلس، وحثه لطالب العلم أن ينهلوا من العلوم ما استطاعوا إليه سبيلاً وألا يقفوا فيها عند حد؛ لذلك أضاف ابن خاقان إلى وصفه قائلًا: «**جلا عن الأبواب صدأ الكسل وشحذها شحذ الصوارم والأسل**»، فالعلم لا يُنَالُ بالدَّعَة والراحة والكسل، وإنما يُنَال بتشمير الطالب وجَدِّه واجتهاده وصبره ومثابرته على طلبه في ليله ونهاره.

ما سبق من إشادة ابن خاقان بابن حبيب لا يمنع أنه قال عنه في موضع آخر: «**ولم يكن له علم بالحديث يَعْرِف به صحيحه من معتله، ويُفرق من مستقيمه ومختله، وكان غرضه الإجازة وأكثر رواياته غير مستجازة**»، فكأن لسان حال ابن خاقان يقول: كون ابن حبيب عالمًا جليلًا لا يعني أن يُنْسَبَ إليه إتقان علم لم يتقنه، أو إن شئت فقل: كونُ ابن حبيب لم يكن متقنًا لعلم الحديث بصورة كافية لا يعني أنه لم يكن فقيهًا مجتهدًا ونحويًّا بارعًا، وإن كان عدم إتقان ابن حبيب لعلم الحديث شيء مستبعد؛ باعتبار أن علم الحديث هو أحد أعمدة علوم الشريعة، وبه يتصدر الفقيه للفُتيا.

لم تقف الإشادة بابن حبيب والثناء عليه على ابن خاقان، بل أشاد به أيضًا محمد بن لبابة، حيث قال فيه: «**فقيه الأندلس عيسى بن دينار، وعالمها عبد الملك، وراويها يحيى بن يحيى**»؛ كذلك أثنى عليه ابن وضاح قائلًا: «**لم يقدم الأندلس أحد أفقه من سحنون، إلا أنه قدم علينا من هو أطول لسانًا منه، يعني ابن حبيب**»، ثم استطرد

ابن وضاح في ذكر مزايا ابن حبيب وصفاتها وسجاياه فقال: «**وكان ابن حبيب أديبًا، نحويًّا، حافظًا، شاعرًا، متصرفًا في فنون العلم من الأخبار والأنساب والأشعار، وله مؤلفات حسان في الفقه والأدب والتواريخ كثيرة.**»

كما أثنى عليه أحمد بن عبد البر قائلًا: «**كان جَمَّاعًا للعلم، كثير الكتب، طويل اللسان، فقيه البدن، نحويًّا عروضيًّا شاعرًا نسَّابة إخباريًّا، وكان أكثر من يختلف إليه الملوك، وأبناؤهم من أهل الأدب**»، **وقيل عنه**: «**إنه لأفقه ممن يريد أن يأخذ عنه العلم**»؛ **كذلك قيل عنه**: «**كان عبد الملك قد جمع إلى علم الفقه والحديث علم اللغة والإعراب، وتصرَّف في فنون الآداب.**»

وقال عنه ابن الفرضي: «**كان نحويًّا عروضيًّا شاعرًا، حافظًا للأخبار والأنساب والأشعار، متصرفًا في فنون العلم، حافظًا للفقه**»؛ وقال عنه ابن سعيد في المُغرِب: «**أبو مروان عبد الملك بن حبيب السلمي الإلبيري، فقيه الأندلس الذي يُضْرَب به المثل، حج وعاد إلى الأندلس بعلم جم، وجلَّ قدره عند سلطان الأندلس عبد الرحمن الأوسط المرواني، وعرض عليه قضاء القضاة فامتنع، وهو نابه الذكر في تاريخ ابن حيان والمسهب وغيرهما**»؛ هذا بالنسبة لتميزه العلمي والمعرفي، أما بالنسبة لصفاته ومميزاته الخُلقية، فقيل عنه: «**كان يأبى إلا معالي الأمور.**»

هذه المزايا التي تميز بها عبد الملك، والتي أشاد بها المؤرخون، لم يتم عرضها هنا لأجل مصمصة الشفاه إعجابًا وتعجبًا من قدر وقيمة هذا الرجل أو غيره من أعلام الأندلس الذين تم الحديث

عنهم سابقًا، أو سيتم الحديث عنهم لاحقًا، وإنما الهدف من إيرادها هو الاقتداء بمثل هذه الشخصيات التي سطرت سيرتها ومسيرتها في التاريخ بحروف النور.

لم يحصد ابن حبيب شأنه شأن أغلب العلماء الثناء فحسب، بل حصد أيضًا الذم والتقليل من الشأن، فكان مما قيل في ذمه والتقليل من شأنه: «**ولم يكن له علمٌ بالحديث يعرف به صحيحه من مُعْتَلِّه، ولا يفرق بين مستقيمه ومُختلِّه، وكان غرضه الإجازة، وأكثر رواياته غير مستجازة**»، كذلك بالرغم من ثناء ابن الفرضي عليه فقد قال عنه كلامًا شبيهًا بذلك، حيث قال عنه: «**ولم يكن لعبد الملك بن حبيب علم الحديث، ولا كان يعرف صحيحه من سقيمه، وذُكِرَ عنه أنه كان يتساهل، ويحمل على سبيل الإجازة أكثر روايته**»، كما قال إبراهيم بن المنذر: «**أتى صاحبكم - يقصد ابن حبيب - بغرارة مملوءة**[١]**، فقال لي: هذا علمك، قلت له: نعم، ما قرأ عليَّ منه حرفًا ولا قرأته عليه.**»

لم يكن هذا الذم والتقليل من شأن ابن حبيب إلا حسدًا له، حيث قال بعض المؤرخين: «**كان الفقهاء يحسدون عبد الملك؛ لتقدمه عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها ولا يشرعون فيها**»؛ إلا أن ابن حبيب لم يُحْرَم مَنْ يرد ويدافع عنه، حيث دافع عنه المقري التلمساني قائلًا: «**أما ما ذكره من عدم معرفته بالحديث فهو غير مُسَلَّم، وقد نقل عنه غير واحد من جهابذة المحدثين، نعم لأهل الأندلس غرائب لم يعرفها كثير من المحدثين، حتى إن في شفاء عياض أحاديث لم يعرف أهل المشرق النُّقَّاد مخرجها، مع اعترافهم بجلالة حفاظ الأندلس**

(١) غرارة: حداثة السن أو عدم الخبرة والتجربة.

الذين نقلوها كبَقِيِّ بن مَخْلَد وابن حبيب وغيرهما على ما هو معلوم، وأما ما ذكره عنه في الإجازة بما في الغرارة فذلك على مذهب مَنْ يرى الإجازة، وهو مذهب مستفيض، واعتراضُ من اعترض عليه إنَّما هو بناء على القول بمنع الإجازة، فاعلم ذلك»؛ أيضًا ممن دافع وذَبَّ عنه القاضي منذر بن سعيد البلوطي، حيث قال عنه: «**لو لم يكن من فضل عبد الملك إلا أنك لا تجد أحدًا ممن يحكي عنه معارضته، والرد لقوله ساواه في شيء، وأكثر ما تجد أحدًا يقول: كذب عبد الملك أو أخطأ، ثم لا يأتي بدليل على ما ذكره.**»

أشعاره:

كان ابن حبيب شاعرًا متقنًا، كان لإجادته لنَظْم الشعر وإتقانه وتفننه فيه أن أشاد به العلماء، فقالوا: «**كان له شعر يتكلم به متبحرًا، ينبوعه بذلك متفجرًا**»؛ من نظمه يخاطب سلطان الأندلس:

لا تنس -لا ينسك الرحمن- عاشورا
واذكره لا زلت في التاريخ مذكورًا
قال النبي صلاة الله تشمله
قولًا وجدنا عليه الحق والنورا
فيمن يوسع في إنفاق موسمه
أن لا يزال بذاك العام ميسورًا

ومن شعره أيضًا:

قـد طـاح أمـري والـذي أبتغـي

هيـن علـى الرحمـن في قدرتـه

ألـف مـن الحمـر وأَقْلِـلْ بهـا

لعالــم أربــى علــى بغيتــه

زريــاب قــد أعطيهــا جملــة

وحرفتــي أشــرف حرفتــه

كتب إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم في ليلة عاشوراء قائلًا:

لا تَنْسَ، لا يَنسَـكَ الرَّحْمنُ، عاشُـورا

واذكُـرْهُ لا زلْـت في الأخيـار مذْكُـورًا

مَـنْ بَـاتَ في لَيْـلِ عَاشُـوراء ذا سـعة

يكُــن بعِيشَــته في الحَــولِ مَحْبُــورًا

فارْغَــبْ، فَدَيتُـك، فيمـا فِيـه رَغَّبنـا

خيــر الــورى كُلهِــمْ حَيًّــا ومَقْبُــورًا

كذلك من نَظْمِه يرثي حاله وهوانه على الناس قوله:

قـد طـاحَ أمـري والـذي أبْتَغـي

هَيـن علـى الرحمـن في قُدْرَتِـه

أَلْـفٌ مـن الحُمْـرِ وأَقْلِـلْ بهـا
لعالــمٍ أرْبــى علــى بُغْيَتِــهْ

زِرْيــاب قَــد أُعْطِيَهــا جملــةً
وحِرْفتــي أشــرفْ مـن حِرْفَتِـهْ

هذه الأبيات التي جادت بها قريحة ابن حبيب لم تكن فحسب وصفًا لحاله وحال زمانه الذي كان يُقرب فيه المغنين، وتذاع شهرتهم في الآفاق، بل تجد بين طيات هذه الأبيات وصفًا لحالنا وزماننا، فالعلماء الربانيون بيننا لا تجد لهم ذكرًا فضلاً عن عناية أو اعتناء بما يقدمون، في حين تجد غيرهم من الذين يحفظون آية من هنا وحديثًا من هناك، ولا يعلمون من العلوم إلا ظاهرها قد ذاعت شهرتهم وبلغت الآفاق؛ بل الأكثر من ذلك أننا نجد المطربين والمطربات والمغنِّين والمغنيات، تُفْتَح لهم الأبواب التي تُغْلَق في وجوه العلماء والفقهاء الذين لا يبغون من علمهم إلا وجه الله جل وعلا، ثم صلاح البلاد والعباد، بل تُمْنَح لهؤلاء المغنين والمغنيات والفنانين والفنانات الشهادات الفخرية، وكأنهم من المساهمين في نهضة الأمة وليس انحدارها وانحطاطها، وما مَنْحُ لقب «الأم المثالية» للفنانين والراقصات، والدكتوراه الفخرية للمغنين والمغنيات منَّا ببعيد.

كذلك من نظمه عند دخوله المشرق لتحصيل العلم، ونظرة الازدراء التي كان يراها في عين كل من يراه، قوله:

لا تَنْظُرَنَّ إلى جسمي وقِلَّتِهِ

وانْظُرْ لصَدري وما يحوي من السننِ

فَرُبَّ ذي مَنْظَر من غير مَعْرِفة

ورُبَّ مَنْ تزدريه العينُ ذو فِطَنِ

ورُبَّ لؤلؤة في عينِ مَزْبلَةٍ

لم يُلْقَ بالٌ لها إلاّ إلى زمَنِ

أيضًا كان من بديع النظم الذي سطرته يدا ابن حبيب، قوله:

كيف يُطيقُ الشِّعْرَ مَنْ أصْبحَتْ

حالَتُهُ اليومَ كحالِ الغَرقْ

والشِّعرُ لا يُسْلِسُ إلاَّ عَلى

فَراغِ قلبٍ واتّساع الخلقْ

فاقْنَعْ بهذا القول مِنْ شاعرٍ

يَرْضَى من الحظّ بأدْنى العَنَقْ

فَضْلك قَدْ بانَ عَلَيْهِ كما

بانَ لأهل الأرض ضَوْءُ الشّفَقْ

أمّا ذِمامُ الودِّ مِنِّي لَكُمْ

فَهْوَ من المَحْتومِ فيما سَبَقْ

والمتدبر لما تحمله هذه الأبيات بين طياتها من معانٍ، يلحظ أن ابن حبيب لم تكن حياته وردية، أو أن رحلته في طلب العلم كانت ميسورة، وسلسة، وإنما يتضح أنه نال في طريق رحلته إلى طلب العلم وتحصيله من صنوف المصاعب والتحديات الكثير، سواء جهد وعناء التحصيل أو معاملة الناس وازدرائهم له قبل أن يصبح العالم الجليل والفقيه المشهور.

توفِّي ابن حبيب وعمره أربع وستون عامًا، وقيل: ثلاث وخمسين عامًا، «**بعدما جال في الأرض، وقطع طولها والعَرْض، وجال في أكنافها، وانتهى إلى أطرافها**»، وكانت العلة التي مات بها هي الحصى، وعندما قيل لسحنون بن سعيد: مات عبد الملك بن حبيب الأندلسي، قال: «**مات عالم الأندلس، بل مات والله عالم الدنيا.**»



منذر بن سعيد البلوطي[1]

(حاكم الحكام)

«ما ظننت أن الشيطان - أخزاه الله - يبلغ بك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادتك هذا التمكين، مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين، حتى أنزلك منازل الكافرين.»

هذه المعاني التي تحمل من اللوم بقدر ما تحمل من التقريع لم يقُلْها منذر بن سعيد البلوطي لعالم من علماء زمانه، ولا صديق أو قريب، ولا لرجل من عامة الناس، وإنما قالها لحاكم من أعظم حكام زمانه آنذاك!

كان منذر من الفقهاء الذين يرون أن الاهتمام بالقصور والمنشآت ضربًا من البدع حتى إنه كان يذم تشييدها والاستغراق في زخرفة القصور والمجالس، والإسراف في الإنفاق عليها؛ لأن ذلك في رأيه «**متاع من الدنيا قليل والآخرة خير وأبقى**»، وبذلك تحدَّث في خطبة له في صلاة الجمعة عندما استغرق الناصر في بناء الزهراء، وعطَّل صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ثلاث جمع متوالية.

---

(١) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٣٧٢-٣٧٥، ج٢، ص١٦-٢٢؛ العذري: نصوص عن الأندلس، ص١٢٣؛ الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص٢٦٥؛ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٦، ص٢٧١٧؛ أبو الحسن النباهي: تأريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا)، ص٦٦؛ ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص٣٨؛ الحميدي: جذوة المقتبس، ص٥١٣.

لَمَّا بنى عبد الرحمن الناصر مدينته الخالدة الزهراء في الأندلس، تفنن في بنائها، وجعلها من أعاجيب المدن في العالم آنذاك، وكان مما بناه فيها «الصرح الممرد»، هذا الصرح الذي اتخذ لقُبَّته قراميد[١] من ذهب وفضة، مما دفعه إلى إنفاق الأموال العظيمة من خزينة الدولة حتى يتمكن من إتمام هذا الصرح كما يريد، وكان في قرطبة آنذاك قاضي الجماعة العالم الجليل والفقيه الجريء منذر بن سعيد البلوطي، فهاله انهماك الخليفة الناصر في بناء الزهراء، وما أنفقه في بنائها من أموال الدولة، فما كان منه إلا أن انتهز فرصة حضور الناصر لصلاة الجمعة في المسجد الجامع الذي كان هو خطيبه وإمامه، فابتدأ خطبته بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ۝ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

ثم وصل ذلك بقوله تعالى: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ وبعدها أخذ يذمُّ تشييد البنيان والقصور والإسراف في الإنفاق عليها، وكان لشدة ما حمله قلبه من صدق مقصده وهو النصح في الله ولله وبالله، وإيمانه بذلك أن الناس عقب سماعهم لما يقوله غشيتهم حالة من الخشوع حتى استولى عليهم البكاء والنحيب، وبالطبع لم يكن البلوطي يقصد من تلاوة هذه الآيات، وسرد مذمته لمن يستغرقون في البنيان ويسرفون في الإنفاق عليها إلا تقريع الناصر على إهداره أموال الدولة في بناء الزاهرة وانهماكه وانغماسه في تزيينها بالقصور الشاهقة والصروح المشيدة.

(١) القراميد: قيل إنها الحجارة التي تُسْتَخْدَم للبناء، وقيل: إنه الطلاء الذي تُطْلَى به الجدران وما شابه.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل اكتفى البلوطي بهذا التقريع شبه المباشر للناصر؟ من عَرَفَ سيرة البلوطي ووقف على شخصيته يعلم علم اليقين أن مثله لم يكن له أن يكتفي بمثل هذا التقريع شبه المباشر؛ لأن تقريعه شبه المباشر هذا لم يكن إلا تدرجًا في سبيل الوصول إلى التقريع المباشر الذي كان لا بد لمن يملك شخصية مثل شخصية البلوطي حتى وإن كان هذا التقريع لحاكم من أعظم حكام بل ملوك زمانه آنذاك، وهذا سمت العلماء الربانيين الذين لا تأخذهم في الله جل وعلا لومة لائم على مر العصور والأزمان.

عقب ذكر البلوطي للآيات السابقة وذمه وتقريعه الذي كان مقصده الأول والأخير به هو الخليفة الناصر، التفت مصوبًا عينيه في اتجاه الناصر، وقال له وهو يضع عينيه في عيني الناصر أمام الجموع الغفيرة التي تشهد صلاة الجمعة في المسجد الجامع، قال له: «**ما ظننت أن الشيطان أخزاه الله يبلغ بك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادتك هذا التمكين، مع ما آتاك الله وفضلك به على العالمين، حتى أنزلك منازل الكافرين.**»

فضلًا أَعِدْ قراءة كلمات البلوطي للناصر، وتدبرها بقلبك، ستلحظ أنه رغم هذا التقريع المباشر والذم الصريح للناصر على فعله، إلا أن الكلمات تحمل بين طياتها إعلاء شأن الناصر، حيث وضح له البلوطي أنه لم يكن يتخيل أن يستولي الشيطان ويتمكن من مثل الناصر، ولم يكن يُخَيَّل له أن ينقاد الناصر للشيطان مثل هذا الانقياد؛ لأن مثل الناصر أكبر من ذلك بكثير، وبالطبع لم يكن البلوطي يقصد من أن الناصر أكبر من أن يستحوذ عليه الشيطان بهذا الشكل لأنه حاكم من

أعظم حكام زمانه، بل لأنه رجل جدير بألا ينقاد إلى الشيطان مثل هذا الانقياد، وإن لم يكن حاكمًا، فالبلوطي هنا كره فعل الناصر، ولكنه لم يكره الناصر، ولم يكن لمثل البلوطي أن يبخس الناصر حقه في أنه رجل من طراز فريد لمجرد أنه سلك مسلك اتبع فيه قيادة الشيطان ونزوات نفسه صاحبة الحكم والسلطان.

بالتأمل والتدبر في زماننا قد ترى أن هذا يحدث قليلًا أو كثيرًا، قد يقول لك شخص أو تقول له: لم أكن أتخيل أن مثلك يصدر منه هذا الفعل أو يتفوَّه بمثل هذه الكلمات! إلا أنك تفاجأ أن المتلقي يعتبرها إهانة مصوَّبة على صميم كرامته وكبريائه؛ لذلك لا تستغرب أن يكيل لك التُّهم إن لم تكن الشتائم؛ اعلم أن هذه المقولة لا تحمل من الذم بقدر ما تحمل من إعلاء قدرك ورفعة شأنك، فلسان حال قائلها يهمس في قلبك وليس في أذنك منبهًا لك أن مثلك أكبر من أن ينزل إلى هذا المستوى من الفعل، أو التفوه بمثل هذه الكلمات التي تشين صاحبها قبل أن تسيء إلى غيره؛ لأن مثلك لا يليق به إلا معالي الأمور، فأَصْغِ لما تحمله كلماته من الرقي، وانْأَ بنفسك أن تأخذك مفاسد الدنيا ومباهجها الزائفة إلى سفاسف الأمور وتوافهها.

السؤال الأهم هنا من سابقه: ماذا كان رد فعل الخليفة الناصر أمام البلوطي؟ تخيل ماذا سيكون رد فعل حاكم من أعظم ملوك وحكام عصره يقال له مثل هذا الكلام من موظف في دولته وأمام الجموع الغفيرة من شعبه؟ بالطبع لم يكن للناصر أن يتخذ أي موقف من المواقف التي قد تطرأ على مخيلتنا بناءً على استنتاجات عصرنا الحالي، بل بمجرد أن سمع الناصر قول البلوطي: «**حتى أنزلك منازل**

الكافرين»، ذَهَلَ واهتزت أركان نفسه، حتى وصف المؤرخون حالته تلك، فقالوا: «**ارتجف الناصر، واهتز جنانه، واقشعرت أوصاله**»، وهذا الذهول الذي استولى على الناصر ترجمه بسؤاله الفوري للمنذر، وذلك رغم عدم جواز الكلام أثناء خطبة الجمعة، حيث قال له متسائلًا: «**ماذا تقول؟! كيف أنزلتني منازلهم؟!**» فرد عليه البلوطي: نعم، أليس الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ**﴾ وهنا سكت الناصر، وطأطأ رأسه خجلًا، وفاضت عيناه بالدموع حتى ابتلَّت لحيته خشوعًا لله تبارك وتعالى، وندمًا على ما فعل، وعقب انتهاء الخطبة ذهب إلى البلوطي وقال له: «**جزاك الله تعالى خيرًا عنِّي وعن المسلمين والدين، وكَثَّر في الناس أمثالك، فالذي قلتَ والله الحق**»، ولم يكتف الناصر بذلك، بل «**قام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى، وأمر بأن يُنْقَضَ سقف القبة، وأن تكون قراميدها ترابًا**».

بالنسبة للخليفة الناصر فيكفي لرسم صورة واضحة المعالم لمدى هيبته بين ملوك زمانه أن نورد نص ما أورده المؤرخون في وصف تودد الملوك للناصر، ورغبتهم في وصاله حيث قالوا: «**إن مُلك الناصر بالأندلس كان في غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادنته الروم، وازدلفت إليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر، ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية.**»

ليس الهدف هنا الحديث عن سيرة الناصر وشخصيته، حيث تم الاستفاضة في الحديث عنه في كتاب «رجال صنعوا التاريخ ... التاريخ الأندلسي»، وإنما الهدف من ذكر بعض سيرته هو رسم صورة للحاكم الذي وقف البلوطي في مواجهته معارضًا لكل فعل يتعارض مع مصلحة المسلمين، هذا الحاكم الذي هابه حكام وملوك زمانه في الشرق والغرب سواء.

تحدث الدكتور مصطفى السباعي عن هذا الخلق ممثلًا في النصح للحكام، موضحًا ما سوف تؤول إليه الأمة إذا اندثر هذا الخلق فقال: «**... حتى إذا تخلت الأمة عن هذا الخلق – النصح للحكام –؛ آذنت شمسها بالأفول، ومجدها بالانهيار، وكرامتها بالضياع والامتهان**».

وعندما نتطرق للحديث عن النصيحة للحكام وشروع الحكام في تقبلها ووضعها موضع التنفيذ لا ينبغي أن يخلو الحديث من فاروق الأمة عمر بن الخطاب، حيث قال له رجل من رعيته وكان عمر آنذاك خليفة المسلمين، قال له الرجل: «**يا أمير المؤمنين، اتقِ الله**»، وهنا نهره الحاضرون والشهود على الموقف، منبهين له: كيف له أن يتجرأ ويقول ذلك لأمير المؤمنين؟! فقال لهم عمر: «**دعوه فليقُلْهَا، لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها**»، بمثل هذا تعرف سر عظمة عمر وعصره والجيل الذي كان يعيش فيه، وبمثل هذا أيضًا تعرف سر عظمة الأندلس في عصر الناصر، الأندلس التي عاشت في عهد الناصر أزهى عصورها، بل عاشت عصرها الذهبي بما حوته بين جنباتها من حضارة ورقي على كافة المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ناهيك عن السياسية.

رحلة البلوطي في طلب العلم:

كانت الحياة في زمن عبد الرحمن الناصر مزدهرة بالعلم عامرة بالعلماء، خَرَّجَتْ الفضلاء والنجباء، وكان من أعظم من خَرَّجَتهم دولة الخلافة في قرطبة القاضي منذر بن سعيد البلوطي، هذا الرجل الذي يعتبر أحد أبرز أوعية العلم والفضل في زمانه، حيث كان عالمًا جليلًا وخطيبًا مفوهًا، وُصِفَ بأنه «**لم يكن بالأندلس مَنْ هو أخطب منه مع العلم البارع والمعرفة الكاملة واليقين والدين والورع**»، رحل إلى المشرق حاجًّا، ومكث هناك ما يقرب من عشرين سنة يأخذ العلم عن كبار أعلامه وعظام فضلائه؛ مما مَكَّنه من نقل علوم كثيرة وجليلة شَرَعَ في بثها ونشرها في ربوع موطنه ومسقط رأسه الأندلس، وكان لعظيم قدر ما حازه من علوم أن أشاد به الحَكَم المستنصر قائلًا: «**كان أعلم الناس بخلاف العلماء**»، وكان البلوطي من العلماء الربانيين المتخلقين بالإنصاف والعدل، والذين لا يميلون إلا إلى طريق الفضيلة ومكارم الأخلاق ونهج الصالحين.

كان مما رواه البلوطي بن سعيد عن نفسه أثناء رحلته في طلب العلم، أنه أثناء تواجده في مصر ذهب إلى أبي جعفر بن النحاس، وكان من العلماء الذين يجلسون لإملاء العلم على من يرغبون فيه، وحدث أن أبا جعفر أثناء قدوم البلوطي عليه كان في مجلسه يملي في أخبار الشعراء شعر قيس المجنون، حيث يقول:

خليلـيَّ هـل بالشـام عَيـنٌ حزينةٌ

تبكـي علـى نجـدٍ لعَلِّـي أُعينُهـا

قَـدَ أسْـلمها الباكـونْ إلا حمامةً

مُطَوَّقــةً باتَــتْ وبــاتَ قَرينُهــا

تُجاوِبهـا أخـرى علـى خَيْزُرانـةٍ

يـكاد يُدَنِّيهـا مـن الأرض لِينُهـا

عقب سماع البلوطي هذه الأبيات لصاحبها قيس المجنون من أبي جعفر بن النحاس، قال له: يا أبا جعفر، ماذا - أعزك الله تعالى - باتا يصنعان؟! فرد عليه أبو جعفر السؤال بسؤال، فقال له: وكيف تقول أنت يا أندلسي؟! فأفحمه البلوطي بقوله: بانت وبان قرينها، وهنا سكن أبو جعفر، ومنذ ذلك الحين وهو يستثقل - لا يطيق - البلوطي، حتى إن البلوطي عندما طلب منه أن يُعِيره كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي حتى ينسخ منه نسخة يحتفظ بها لنفسه؛ رفض أبا جعفر أن يعيره الكتاب؛ وعندما علم بعضهم ببحث البلوطي عن هذا الكتاب؛ أشاروا عليه أن يذهب إلى أبي العباس بن وَلَّاد ويستعيره منه، فذهب إليه البلوطي وطلب منه الكتاب فأعاره له، وعندما علم أبو جعفر أن أبا العباس أعار الكتاب للمنذر ندم على موقفه في عدم إعارته الكتاب للمنذر.

الجدير بالذكر أنه رغم أن أبا جعفر بن النحاس كان من العلماء الذين يدَرِّسون العلم ويُمْلُونه على طلاب العلم الذين يقصدون مجلسه من كل حدب وصوب، ورغم أن مؤلفاته بلغت الخمسين مؤلَّفًا، منها «شرح عشرة دواوين للعرب» و«إعراب القرآن» و «معاني القرآن» و «شرح أبيات الكتاب» وغيرها.

إلا أنه لم يكن من العلماء الذين هذَّبهم العلم والأدب شأن الكثير من علماء زماننا، بل كان كما رُوِيَ عنه لئيم النفس، شديد التقتير والبخل حتى على نفسه، حتى ذُكِرَ عنه أنه لو أهداه أحدهم عمامة قطَّعها وجعل منها ثلاث عمائم، والأكثر من ذلك أنه كان لا يشترى حوائجه أبدًا، بل يتحامل فيها على معارفه حتى يشترونها له.

الشاهد لا يخلو زمان من الأزمان من العلماء الذين يحملون العلم والأدب، إلا أن هذا العلم والأدب الذي تحويه جعبتهم يكون بمنأى عن أخلاقهم، وكأن العلم شيء، والأخلاق شيء آخر لا علاقة له بالعلوم والآداب والفنون، مع أن الهدف الجوهري من العلم هو الوصول إلى أعلى معاني الرقي الأخلاقي، وإلا فما الفائدة من عناء طلبه وتحصيله؟!

ما سبق يروي أحد السلوكيات السيئة التي حَوَتْهَا نفوس بعض العلماء، والتي لم ينجح ما حوته صدورهم من علم في تهذيبها وتصحيح مسارها، إلا أن هذا لا يمنع أن البعض من العلماء وصل بهم العلم إلى ارتقاء سُلَّم الجود والكرم ممزوجًا بأعلى درجات الرقي الأخلاقي.

ومنهم أبو علي القالي صاحب «الأمالي»، الذي أرسل له البلوطي طالبًا منه أن يُعِيره كتابًا من الغريب، فكتب له أبيات شعر تحوي مطلبه، قال فيها:

بحَـقِّ رِيـمٍ مُهَفْهَـفْ وصُدْغـه المُتَعَطَّـفْ
ابْعـثْ إلـيَّ بجُـزْء مـنَ الغَريـبِ المُصَنَّـفْ

فلبَّى أبو علي القالي على الفور مطلب البلوطي، ورد عليه قائلًا:

وحَــقِّ دُرٍّ تَألَّــفْ بفيــكَ أيَّ تألُّــفْ

لأبعَثَــنَّ بمــا قَـدْ حـوَى الغريـبُ المُصَنَّـفْ

ولَـوْ بَعَثْـتُ بنَفْسـي إليـك مـا كنـت أُسْـرِفْ

هكذا يكون أصحاب العلم وأهله والسائرين في دروبه ومسالكه.

البلوطي ورسل الإمبراطور:

كانت الفتوحات والغزوات التي وجَّهها الناصر ضد العدو القشتالي جعلته كما يقولون بلغة عصرنا أشهر من النار على العلم في زمن لم يكن فيه إعلام ولا مواقع تواصل اجتماعي كما هو معروف في زماننا، هذه الشهرة وهذا الصيت الذى حظي به الناصر جعل جُلَّ ملوك العالم آنذاك يطلبون وُدَّه ويتمنون رضاه، وكانت وسيلة الملوك في طلب ودِّ الناصر ورضاه هي إرسال البعوث والرسل إليه مُحَمَّلة بأجلِّ الهدايا، ومن هؤلاء الملوك: ملك الروم الإمبراطور قسطنطين بن ليون حاكم القسطنطينية الذي بعث رسله إلى الناصر، فتجهز الناصر لاستقبالهم في أفخم مظاهر الأبهة ممزوجة بإظهار القوة حتى يُعْلِم ملوك العالم آنذاك مدى قوة دولته ممثلة في قوة الإسلام، فأمر باستقبالهم بالجنود والقادة فضلًا عن أعيان الدولة، وكان من مظاهر التجهيز لهذا اليوم أن ولي العهد «الحكم» أمر الفقيه محمد بن عبد البر الكسنياني أن يجهز لهذا اللقاء الخلافي بين الخليفة ورسل

الإمبراطور خطبة أو كلمة حتى يلقيها في هذا المجلس الحافل، وكان الكسنياني من القادة والخطباء المفوهين الذين يملكون القدرة على تأليف الكلام ونَظْمِه وإلقائه بأفضل بيان وأجزله، بل كان يفوق في ذلك غيره وإلا لما وقع اختيار «الحكم» عليه تحديدًا دون غيره.

حضر رسل الإمبراطور وجلس الخليفة الناصر في مجلسه على سرير ملكه وعن يمينه ابنه وولي عهده الحكم، وباقي أبنائه عن يمينه ويساره، وجلس الوزراء والحُجَّاب في مجلسه صفوفًا متراصَّة كلٌّ حسب منزلته، فدخل عليه رسل الإمبراطور محمَّلين بالهدايا التي أحضروها له، وقد ظهرت على وجوههم علامات الدهشة ممزوجة بالهيبة والرهبة؛ مما دفعهم إلى الانحناء وتوجههم بالجلوس على ركبهم إجلالًا للناصر، إلا أن الناصر أشار لهم بيده أن يمتنعوا عن مثل هذا الفعل، فامتثلوا أمره، وقدَّموا له هدية مُرْسَلَة له خصيصًا من الإمبراطور، وهي عبارة عن كتاب مصبوغ بلون سمائي مكتوبًا بالذهب.

وقد تحدث ابن خلدون عن هذا الحدث قائلًا: «**ركبت في ذلك اليوم العساكر بالسلاح في أكمل شكلة، وزُيِّنَ القصر الخلافي بأنواع الزينة وأصناف الستور، وجُمِّلَ السرير الخلافي بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقرابة، ورتب الوزارة والخدمة في مواقفهم، ودخل الرسل فهالهم ما رأوه، وقربوا حتى أدوا رسالتهم، وأمر يومئذ الأعلام أن يخطبوا في ذلك الحفل، ويعظموا من أمر الإسلام والخلافة، ويشكروا نعمة الله على ظهور دينه وإعزازه وذل عدوه،**

فاستعدوا لذلك، ثم بهرهم هول المجلس فوجموا[١]، وشرعوا في القول فأُرْتِجَ[٢] عليهم.»

انتهى رسل الإمبراطور من إلقائهم التحية على الخليفة الناصر، وتقديمهم الهدايا المرسَلَة إليه من قبل الإمبراطور، وجلس كل مَنْ وُجِدَ في المجلس في المكان المخصص له، ثم أشار «الحكم» للكسنياني أن يبتدئ كلمته، فوقف الكسنياني إلا أنه لهول الموقف ورهبة المجلس لم يستطع أن يتفوَّه بكلمة، فسقط مغشيًّا عليه، وكان في المجلس إسماعيل بن القاسم القالي المشهور في العراق بأبي علي القالي، وفي الأندلس بأبي علي البغدادي، صاحب «الأمالي والنوادر»، وكان خطيبًا مفوهًا حضر من العراق إلى الأندلس ضيفًا على الخليفة الناصر، فطلب منه «الحكم» أن يُلقي كلمة، فقام القالي وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ، ثم توقَّف لا يجد كلامًا يبدأ به أو مدخلًا يدخل منه.

تخيل أن هذا حدث مع أعلام أجلَّاء نهلوا من منابع العلوم جمعاء، علماء تخرَّج على أيديهم تلاميذ صاروا فيما بعدُ أعلامًا أضاؤوا بعلومهم وفنونهم سماء قرطبة، بل سماء الأندلس، بل سماء العالم الإسلامي آنذاك شرقًا وغربًا، الخلاصة: إذا ما وقفت في موقف التحدث أمام الجمهور لا تعتمد على تمكنك من العلم الذي ستتحدث فيه، وإنما الجأ إلى الله واستعن به، وادعوه أن يفتح عليك فتوح العارفين، بمعنى تجرَّد من حولك وقوتك والجأ إلى حول الله جل وعلا وقدرته حتى يفتح لك ولا يغلق عليك.

(١) سكتوا وعجزوا عن الكلام انبهارًا بما شاهدوا.

(٢)استغلق عليهم الكلام.

عقب توقف القالي، ابتدأ الفقيه منذر بن سعيد البلوطي من حيث وقف، فوصل ما ابتدأه القالي قائلًا: «**أما بعدُ، الحمد لله والثناء عليه، والتعدد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقامًا، ولكل مقام مقال، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إليَّ معشر الملأ بأسماعكم، ولقنوا عني بأفئدتكم، إن من الحق أن يقال للمحق: صدقت، وللمبطل: كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه، أمر كليمه موسى-صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه- أن يذكِّر قومه بأيام الله ﷻ عندهم، وفيه في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وإني أذكركم بأيام الله ندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، وأمنت سربكم، ورفعت فرقكم، بعد أن كنتم قليلًا فكثَّركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، ولّاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سُرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شُعَل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء.**[1]»

استوقفني من هذه الخطبة - وإن كان كل حرف فيها يستحق الوقوف - قول الفقيه منذر: «**إن من الحق أن يقال للمحق: صدقت، وللمبطل: كذبت**»، فهذه الجملة على بساطتها الممزوجة بعمق المعاني ينبغي إهداؤها ليس فقط لرجال الدولة الذين يتوددون الحاكم، بإيحائهم له فعلًا وقولًا أنه محق في كل قرار يتخذه سواء

(١)المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج٢، ص٣٦٨-٣٧١.

كان هذا هو الحق أو الباطل، بل ينبغي إهداؤها لنا نحن الأفراد الذين نركز على الخطأ وكأن أعيننا لا ترى غيره، وإذا وقع صواب كأن أعيننا لم تره، فلنتذكر أن الفعل الجميل إذا ما كُوفئ ماديًّا أو معنويًّا سيزهر، ومن ثم يثمر ثمرة طيبة الرائحة حلوة المذاق، ولكن إذا تُرِكَ ولم يُنظَر إليه سيذبل؛ بل سيجف قبل أن يزهر.

كانت الخطبة التي ألقاها البلوطي من الطول بحيث يصعب إيرادها كاملة، وفي نفس الوقت لم يكن لي أن أتركها جملة، وبها من عظيم المعاني ورقيها ما لا يخفى على فَطِن؛ لذلك آثرت أن أحيلكم إلى مصدرها لتستزيدوا من فيضها وعذوبة معانيها، فأتمنى ألا يفوتكم؛ وقد أشاد المؤرخون بهذه الخطبة قائلين: «**فوصل – منذر – افتتاح أبي علي – يقصد القالي – لأول خطبته بكلام عجيب، ونادى في الإحسان من ذلك المقام كل مجيب، يسحه سحًّا كأنما كان يحفظه من قبل ذلك بمدة**»، وقالوا في موضع آخر: «**ووصل افتتاحه بكلام عجيب بهر العقول جزالة، وملأ الأسماع جلالة**»، بل أشاد بهذه الخطبة الخليفة الناصر نفسه، حيث قال في الإشادة بها: «**لقد أحسن ما شاء، فلئن حَبَّر**[1] **خطبته هذه وأعدَّها مخافة أن يدور ما دار فيتلافى الوهي**[2]**؛ فإنه لِبَديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته فإنه لأَعْجَب وأَغْرَب**».

ولم يكن الهدف من إيراد هذا الموقف للمنذر إلا لكي يُدرك القارئ الكريم قيمة وعِظَم قدر الشخصية التي نحن بصدد الحديث عنها، خاصة إذا علمنا أن هذا الموقف للمنذر كان قبل أن يصبح

(١) كتب أو سطر.

(٢) النسيان أو الخطأ.

العالم الجليل والفقيه النابه، فلمَّا رأى فيه عبد الرحمن الناصر هذا القدر من العلم والأدب فضلًا عن الفصاحة والبيان قدَّمه حتى جعله من أكابر علماء دولته.

البلوطي والخليفة الناصر:

كان البلوطي نموذجًا متجسدًا للعدل والورع والحرص على تطبيق شريعة الله حتى وإن كلفه ذلك دوام المعارضة والوقوف في وجه الحاكم، فمما يُرْوَى بهذا الشأن أن الخليفة الناصر أراد يومًا أن يشتري دارًا لإحدى جواريه فأعجبته دار يتصل بها قاعة فسيحة وحمام يدرُّ على أصحابها دخلًا يتعيشون منه، وعندما سأل عن أصحابها حتى يشتريها منهم علم أنها مِلْك لأيتام تحت وصاية القاضي البلوطي، فأرسل الناصر إلى البلوطي يطلب منه أن يبيع له هذه الدار، فرد عليه البلوطي قائلًا: «**البيع على الأيتام لا يصح إلا لوجوه: منها الحاجة، ومنها الوهي الشديد**[١]**، ومنها الغبطة**[٢]**؛ أما الحاجة فلا حاجة لهؤلاء الأيتام إلى البيع، وأما الوهي فليس فيها، وأما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين فيها ما تستبين به الغبطة أمرت وصيهم بالبيع، وإلا فلا**»، وعندما نُقِلَ رد البلوطي للناصر، أظهر الناصر أنه لم يعد يريد شراءها؛ وذلك حتى يتراجع البلوطي عن الغلو في ثمنها، وعند ذلك خشي البلوطي أن يأخذ الخليفة الدار غصبًا؛ فأمر بهدم الدار، وبَيْع أنقاضها، وعندما علم الخليفة بما فعله البلوطي سأله عن سبب فعله هذا.

---

(١) ضعف أو تهدم الدار.

(٢) ارتفاع الثمن.

فرد عليه البلوطي قائلًا: أخذت بقول الله تعالى: ﴿**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا**﴾ ثم تابع حديثه قائلًا: «**مُقَوِّموك**[1] **لم يقدروها إلا بكذا، فقد نَضَّ**[2] **في أنقاضها أكثر من ذلك، وبقيت القاعة والحمام فضلًا**»، وبذلك عارض البلوطي الخليفة الناصر حتى يتمكَّن من حفظ مال الأيتام الذي أُمِّنَ عليهم، فلم يكن من الناصر إلا أن قال له: «**نحن أولى من انقاد إلى الحق، فجزاك الله تعالى عنا وعن أمانتك خيرًا.**»

كان القاضي البلوطي يؤمن أن البلاء يَعُمُّ البلاد إذا فسد الحاكم وأن الخير يسود إذا صلح؛ لذلك عندما أرسل له الناصر عند انقطاع المطر وطلب منه أن يصلي بالناس صلاة الاستسقاء، وذلك لعلمه بصلاح البلوطي وتقواه، رفض البلوطي الصلاة، إلا أنه تحت إلحاح الناصر عليه وافق، وبعد أن خرج البلوطي بالناس للاستسقاء أرسل أحد أتباعه لينظر الحال التي عليها الخليفة الناصر الآن، هل على حال الصلاح وخشية الله؟! أم على حال الركون إلى الراحة والانهماك في ملهيات الدنيا وملذاتها الزائفة؟! فلما اقترب الرجل من القصر وجد الخليفة خاشعًا ذليلًا مفترش التراب، باكيًا مستغفرًا يدعو الله أن يرفع البلاء عن البلاد، فلما عاد الرجل إلى القاضي البلوطي وأبلغه بحال الخليفة تهلل وجه البلوطي واستبشر بنزول المطر، وتوجه للناس قائلًا لهم: «**إذا خشع جبار الأرض رحم جبار السماء**»، ثم أقام الصلاة وتلا قول الله جل وعلا: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**

---

(١) الرجال الذين أرسلهم الناصر لتقدير ثمن الدار، السماسرة بلغة العصر.

(٢) يقصد بعت أنقاض الدار بأكثر مما قدره رجالك من ثمن الدار كلها.

أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ولم يتلُ على الناس إلا هذه الآية، فما تفرَّق الناس إلا ونزل المطر؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا**﴾.

كان القاضي البلوطي يُكثر من الإنكار على الخليفة الناصر في خطبة جامع قرطبة يوم الجمعة، ولم يكن يصدر حكمًا أو يعلن رأيًا، وإنما كان يُذَكِّر بآيات الله عز وجل، إلا أنه مع تكرر الوعظ والتقريع للناصر شكاه الأخير إلى ابنه الحكم، وقال له: «**والله! لقد تعمَّدني مُنذر بخطبته، وما عنى بها غيري! فأسرف عليَّ وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي، فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني**»، ثم أقسم الناصر ألا يصلي خلفه، وأخذ يصلي خلف أحمد بن مطرف أحد فقهاء وأئمة قرطبة، وعندما رأى الحكم حالته تلك من الغيظ والغضب على فعل البلوطي، سأله: ما الذي يمنعك من عزل البلوطي من الخطبة والقضاء وكافة المناصب التي يتولاها ما دمت ضقت ذرعًا من وعظه وتقريعه لك؛ فغضب الناصر وقال للحكم ونبرته تعلوها الحدة والضيق من مثل هذا الاقتراح: «**أَمِثْل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه يُعْزَلُ لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد؟! هذا ما لا يكون، وإني لأستحي من الله أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكنه أحرجني فأقسمتُ، ولوددت أني أجدُ سبيلًا إلى كفارة يمنيني**

بملكي، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى، فما أظننا نعتاض[1] منه أبدًا.»

أثناء قراءتي لهذه القصة واطلاعي على رد فعل الناصر تذكرت حادثة شهدتها بنفسي، وخلاصتها أنه كان بأحد المساجد إمام يُحْسَب أنه على خير ومن أهل الفضل، وكان مداومًا على إلقاء الخطب والدروس لتفقيه الناس وإعلامهم بأمور دينهم، وكان يحدث أحيانًا أن يسترسل في خطبه تلك، ويطيلها بعض الشيء، فكان رد فعل البعض من الناس أن شتموه، شتموه بالفعل وجهًا لوجه، بل وسعوا في شكايته حتى تم عزله عن إمامة المسجد؛ فقِسْ هذا على ذاك.

ما سبق عرضه من مواقف للبلوطي مع الخليفة الناصر يدفعنا إلى طرح سؤال مفاده: بِمَ حَكَمَ البلوطي الحكام؟

الجواب: حُكم الحكام لا يكون إلا بقول كلمة الحق وعدم الخوف في الله لومة لائم، وبهذا الفعل الذي دأب عليه البلوطي طوال حياته كان حاكمًا للناصر، وليس الناصر حاكمًا له أو عليه، بمعنى أن البلوطي لم يكن حاكمًا لمجرد حاكم عادي، وإنما حاكم لحاكم من أعظم ملوك زمانه آنذاك، حاكم كان يهابه البعيد قبل القريب، القوي قبل الضعيف.

نظرًا أن مثل البلوطي في صلاحه وتقواه لم يكن يُحْرَم حاقدًا أو حاسدًا، فقد طلب البعض ممن يُطْلَق عليهم علماء السلطان من الناصر أن يعزل البلوطي حتى يتخلص من زجره ووعظه وتقريعه، إلا أن الناصر رفض رأيهم آنذاك قائلًا لهم: «**ما كنت لأعزل رجلًا**

(١) نستغني عنه.

قد جعلته حجة بيني وبين الله عز وجل»، إلا أنه مع إكثار البلوطي لهذه الخطب لا سيما أن الترف قد عَمَّ قرطبة، وجاء زرياب من المشرق من أرض بغداد ودخل الأندلس، وظهر الغناء فيها، وقتها عزل الناصر القاضي البلوطي، ولم يعزله إلا من خطبة جامع قرطبة، وأبقاه على قضائه معززًا مكرمًا.

أخلاق البلوطي وسجاياه:

كان البلوطي من أبرز الخطباء المفوهين، والعلماء الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، ومَنْ يتمعن في الكلمات القليلة التي انطوت عليها خطبته آنفة الذكر يتضح له جليًّا شخصية هذا الفقيه بما حَوَتْه من نزاهة ورقي؛ له الكثير من الكتب المؤلفة في القرآن والسنة النبوية والورع، وفي الرد على أهل الأهواء والبدع، ناهيك عن خطبه ومجالسه العلمية والوعظية التي كان دائمًا ما يجذب فيها أهل الباطل إلى طريق الحق مهما كانت مكانتهم ومنصبهم.

كما كان من ذوي الأخلاق العالية، حدث أن شتمه رجل وآذاه، فحدثه البلوطي ونادي عليه بكنيته، فقيل له: يشتمك وتناديه بكنيته، فقال:

لا تعجبوا من أنني كنَّيته
من بعد ما قد سبَّنا وآذانا
فالله قد كنَّى أبا لهب وما
كنَّاه إلا خزية وهوانا

أما بالنسبة للصفات والسجايا التي تمتع بها البلوطي والتي أشاد بها المؤرخون فكثيرة ومتنوعة، حيث قالوا فيه: إنه «كان مهيبًا صليبًا صارمًا غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم، وكان غزير العلم، كثير الأدب، متكلمًا بالحق، متبينًا بالصدق»، هذه المزايا التي تميز بها القاضي البلوطي هي التي خَوَّلت له ألا تُحْفَظ له مدة توليه القضاء قضية جور ظُلِمَ فيها أحد، ولا عُدَّت عليه زَلَّة، وذلك على الرغم أن ولايته ظلت منذ أيام الناصر حتى زمن ابنه الحَكَم المستنصر، وخلال ولايته تلك طلب من «الحَكَم المستنصر» أن يعفيه من القضاء مرارًا إلا أن «الحكم» كان دائم الرفض لطلبه، وذلك لعلمه بأمانته ونزاهته، ناهيك عن علمه وحكمته.

أيضًا كان من المعاني التي أشاد بها المؤرخون في شخصية البلوطي وعلمه وفضله، قولهم فيه: «**كان خطيبًا بليغًا عالمًا بالجدل حاذقًا فيه، شديد العارضة، حاضر الجواب عتيده**[1] **ثابت الحجة ذا شارة**[2] **عجيبة، ومنظر جميل، وخلق حميد، وتواضع لأهل الطلب، وانحطاط**[3] **إليهم وإقبال عليهم، وكان مع وقاره التام فيه دُعابة مستملحة، وله نوادر مستحسنة**».

على الرغم مما تمتع به البلوطي من الصلاح وتقوى الله جل وعلا في كل حال، إلا أنه كان دومًا ينظر إلى نفسه أنه المقصر في حق ربه،

---

(١) يقصد به الجواب المفحم.

(٢) هيبة.

(٣) لا يقصد به المعنى السلبي وإنما يقصد به «أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ».

فمما رُوِيَ عنه من حال تأنيبه لنفسه وزجرها أن رجلًا سمعه بينما هو جالس في المسجد يقول بينه وبين نفسه: «**يا نفس ما لي أراكِ تعظين ولا تتعظين، وتزجرين ولا تزدجرين، تَهْدِين الناس إلى طريق الصالحين، وتبقين في طريق الحائلين**»، ثم بكى رحمه الله تعالى وانهمرت دموعه على لحيته، كما كان يحدث أن يفتتح خطبه بمثل هذا التأنيب والتقريع لنفسه، فكان مما افتتح به أحد خطبه قوله: «**حتى متى أعظ ولا أتعظ، وأزجر ولا أزدجر، أدل الطرق على المستدلين، وأبقى مُقيمًا مع الحائرين؟! كلا، إن هذا لهو البلاء المبين: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾**[(١)] **اللهم فرِّغني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما تكفَّلت لي به، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا أستغفرك، يا أرحم الراحمين.**»

وفي النهاية نؤكد ونكرر أن تسليط الضوء على مثل هذه الصفات والمزايا التي تمتع بها الكثير من رموز أمتنا الإسلامية وعلمائها ليس الهدف منه مجرد العلم بأنهم كانوا يتصفون بمثل هذه الصفات ويتدثرون بمثل هذه المزايا، ومن ثَمَّ التباهي أننا نعلم أن هذا الرجل أو ذاك يتمتع بهذه الصفات أو تلك، أو لأجل مصمصة الشفاه تعجبًا لما حوته شخصية هؤلاء من جميل الأخلاق ورقي معانيها، وإنما يتم ذكرها لنقوم بقياسها على أنفسنا، أين نحن من هذه الأخلاق؟ أليست هذه هي أخلاق الإسلام؟ إذًا لماذا لا نتمسك بها وننزلها على أرض الواقع كما فعل أسلافنا؟! أليس هؤلاء هم قدواتنا في زمن ندرت فيه القدوات مثل زماننا؟! فليتنا نقتدي.

---

(١) الأعراف: ١٥٥.

أشعار البلوطي:

إضافة إلى كون البلوطي خطيبًا مفوهًا فقد كان شاعرًا جزلًا، ومن نَظْمه إضافة إلى ما سبق ذكره:

المـوت حـوض وكلنـا نـرد

لـم ينـج ممـا يخافـه أحـد

فـلا تكـن مغرمًـا بـرزق غـد

فلسـت تـدري بمـا يجـيء غـد

وخـذ مـن الدهـر مـا أتـاك بـه

ويسـلم الـروح منـك والجسـد

والخيـر والشـر لا تدعـه فمـا

في النـاس إلا التشـنيع والحسـد

ومن شعره في الزهد:

كـم تَصابى وقـد عـلاك المشـيب

وتَعامـى عمـدًا وأنـت اللبيـب؟

كيـف تلهـو وقـد أتـاك نذيـر

أن سيأتي الحِمـام منـك قريـب

يـا سـفيهًا قـد حـان منـه رحيـل

بعـد ذاك الرحيـل يـومٌ عصيـب

إن للمــوت ســكرة فارتقبهــا

لا يُــداوِي إذا أتتــك طبيــب

كــم توانــى حتــى نصيــر رهنًــا

ثــم تأتيــك دعــوة فتجيــب

بأمــور الميعــاد أنــت عليــم

فاعملــن جاهــدًا لــه يــا أريــب

وتذكــر يومًــا تحاســب فيــه

إن مــن يدَّكِــر فســوف يُنيــب

ليس مـن ساعة مـن الدهـر إلا

للمنايــا بهــا عليــك رقيــب

رغم هذه الأشعار والنظم الجزلة التي نظمها البلوطي، والخطب البديعة التي ألقاها، والمواعظ المبهرة التي وعظ بها، والزجر الصادق الذي زجر به، إلا أنه يظل من أجلِّ الأقوال، أو بالأحرى المعاني التي جادت بها قريحته في دعوة الناس لتزكية أنفسهم والارتقاء وإن كان بأسلوب الأحكام القضائية بحكم كونه قاضي القضاة في قرطبة، حيث قال: «**اعلم أن العدالة من أشدِّ الأشياء تفاوتًا وتباينًا، ومتى حصلت ذلك عرفت حالة الشهود؛ لأن بين عدالة أصحاب النبي ﷺ وعدالة التابعين-رضي الله عنها- بون عظيم**[١] **وتباين شديد**[٢]**، وبين عدالة**

(١) فرق عظيم.

(٢) اختلاف كبير.

زماننا وعدالة أولئك -يقصد التابعين- مثلُ ما بين السماء والأرض، وعدالة أهل زماننا على ما هي عليه، بعيدة التباين أيضًا، والأصل في هذا عندي-والله الموفق للصواب- أن من كان الخير أغلب عليه من الشر، وكان متنزهًا عن الكبائر، فواجب أن تعمل شهادته، فإن الله تعالى قد أخبرنا بنص الكتاب أن: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (سورة القارعة: ٦-٧)، وقال في موضع آخر: **﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** (سورة القارعة: ٨)، **فمن ثقلت موازين حسناته بشيء، لم يدخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته، لم يدخل الجنة في زمرة الداخلين أولًا، وهم أصحاب الأعراف، فذلك عقوبة لهم، إذ تخلَّفوا عمن تزيد حسناتهم على سيئاتهم، فهذا حكم الله في عباده»**، ثم عرَّج بعد هذه المعاني التي تُسْطَرُ بحروف النور إلى توضيح المنهج الذي ينبغي أن يسير وفقه القضاة في الحكم على الناس، حيث قال: «**ونحن إنما كُلِّفْنَا الحكم بالظاهر، فمن ظهر لنا أن خيره أغلب عليه من شرِّه، حكمنا له بحكم الله بعباده، ولم نطلع له على الباطن**»، ثم تابع حديثه موضحًا أنه ينبغي أن يراعي القاضي الأعراف والعادات والتقاليد التي تسير وفقها البلد التي يقضي فيها ما دام أن هذه الأعراف والعادات والتقاليد لا تتعارض وشرع الله جل وعلا، إضافة إلى مراعاته الأخذ برأي كبراء البلد وأعيانها في مَنْ مَثُل أمامه في قضية أو واقعة، باعتبار معرفتهم بأخلاق الناس الذين يستوطنون معهم نفس البلد، وعلمهم بأحوالهم من صلاح أو فساد، حيث قال: «**ولأهل كل بلد قوم قد تراضى عليهم عامتهم، فبهم تنعقد مناكحهم وبيوعهم، وقد قدموهم في مساجدهم، ولجُمعهم وأعيادهم، فالواجب على من استقضى في موضع، أن يقبل شهادة أماثلهم وفقهائهم وأصحاب صلواتهم، وإلا**

ضاعت حقوق ضعيفهم وقويِّهم وبطلت أحكامهم، ويجب عليه أن يُسأل إن استراب في بعضهم في الظاهر والباطن عنهم، فمن لم يثبت عنده عليه اشتهارٌ في كبيرة، فهو على عدالة ظاهرة، حتى يثبت غير ذلك.»

بما سبق سَطْرُه يعطي البلوطي النهج والمنهج الذي ينبغي أن يراعيه ويسير وفقه كل من وُكِّلَ أو تصدَّر هذا المنصب الجلل ممثلًا في القضاء، باعتبار أنه منصب مختص بالحكم في أحوال الناس، والهدف من هذه الأحكام هو تنظيم وتسيير وتسهيل حياة الناس، وليس الضغط والتضييق عليهم وتصعيب حياتهم.

كان البلوطي معتدًّا بنفسه، يعلم لها قدرها، ليس من قبيل الغرور، وإنما من قبيل المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف؛ لذلك حدث أن نَظَمَ شعرًا فيما تمتع به من عدم خوفه في الله لومة لائم، وقوله كلمة الحق حتى لو كلفته حياته، فقال:

مقالي لحدِّ السيف وَسْطَ المحافل
أميزُ به ما بين حقٍ وباطل
بقلبٍ ذكيٍّ قد توقَّدَ نورُهُ
كبرقٍ مضيءٍ عند تسكابِ وابلِ
فما زلفتْ رجلي ولا زلَّ مِقْوَلي
ولا طاش عقلي عند تلك الزلازل

وقـد حَدَّقَـت حولـي عيـرنُ إخالهـا
كمثــلِ ســهامٍ أُثْبِتَــتْ في المَقَاتــل

رغم هذه الصلابة في الحق والدين التي تمتع بها البلوطي، إلا أنه لم يكن من العلماء المتشددين الذين يتصلَّبون عند رأيهم ومذهبهم لا يتزحزحون عنه قيد أنملة، وإنما كان لينًا مرنًا، فرغم ميله للمذهب الظاهري، إلا أنه لم يكن يقضي ولا يفتي في الأندلس إلا بمذهب مالك؛ وذلك لأنه المذهب الذي يُحكم به في الأندلس، فلم يكن يحدث أن يؤثر هواه على علمه.

إضافة إلى ما سبق كان البلوطي من العلماء أصحاب الدعابة والمزاح، فمما رواه عنه ابنه سعيد في دعابته ومزاحه الدائم معهم، أنه قال: إنهم كانوا في إحدى أيام رمضان يفطرون في ساحة دارهم، وأثناء ذلك مَرَّ سائل – محتاج أو متسول – يقول: «**أطعمونا مِنْ عشائكم أطعمكم الله تعالى من ثمار الجنة هذه الليلة**»، وظل الرجل يكرر هذا الدعاء مرارًا، فقال البلوطي: «**إن اسْتُجِيب لهذا السائل فيكم فليس يصبح منَّا واحد**»، بمعنى أننا لو لبَّينا نداء السائل وأعطيناه من هذا الطعام سنموت جميعًا الليلة حتى نتمكن من الأكل من ثمار الجنة.

الخلاصة أن البلوطي – رغم حزمه وصلابته في الحق – لين الطبع والخُلق، وكثير الدعابة والمزاح، وكان من كثرة مزاحه مع من حوله أن البعض قد يظن أنه لا يكفُّ عن المزاح أبدًا، بمعنى ربما استخفَّ به من يعرفه حق المعرفة لكثرة هذا المزاح، حتى إذا ما تعرض لأمر

يتعلق بالإساءة أو الخطأ في الدين كان رده إلجامًا لمن ظن به هذا الاستخفاف، وقد عبر المؤرخون عن حالته تلك، فقالوا: «**كان على متانته وجزالته حسَنَ الخُلق كثير الدعابة، فربما ساء ظنٌّ من لا يعرفه، حتى إذا رام أن يصيب من دينه شعرة ثار له ثورة الأسد الضاري، وتبدلت بشاشته عبوسًا.**»

العالم لا يكون عالمًا ربانيًّا إلا إذا كان عالمًا عاملًا، فقد قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ وقد ظل البلوطي على هذه الحالة المَرْضِيَّة من العمل بما يعلم، وعدم أخذه في الله لومة لائم حتى ناهز التسعين من عمره، ثم توفِّي رحمه الله تعالى عن حياة مليئة بالعلم والعمل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما زلنا إلى يومنا هذا نستضيء بسيرته إلا أنه ينقصنا أن نقتدي بأثره.



عباس بن فرناس[1]

(رائد التجربة الأولى في الطيران)

عباس بن فرناس بن ورداس، عالم يرجع أصله إلى البربر، وقيل: يُنْسَب إلى المولدة، أصله من كورة تاكرنا[2]، وُلِدَ وعاش في قرطبة، كان مقربًا للأمير عبد الرحمن الأوسط، أحد أمراء بني أمية وممن اشتهرت دولة بني أمية في زمانه بالعلم، حيث امضى عبد الرحمن الأوسط النصف الثاني من إمارته في دعم العلم ورعاية العلماء، فكان العلماء والفقهاء في مختلف العلوم والآداب والفنون يتزاحمون على بلاطه، إلا أن عباس بن فرناس لم يكثر من التردد على الأمير عبد الرحمن، وإنما قويت علاقته بابنه وولي عهده محمد بن عبد الرحمن الذي صار بعد وفاة أبيه أميرًا على الأندلس.

أشاد المؤرخون بابن فرناس فقالوا: إنه «**كان عالمًا مُفَنِّنًا فيلسوفًا حاذقًا، وشاعرًا مفلقًا، ومُنَجِّمًا مطبوعًا موفقًا، صحيح الخاطر، ثاقب الذهن، جيد الفكر، حسن الاختراع، كثير الإبداع**»، وقيل عنه

---

(١) ابن حيان: المقتبس، تحقيق: محمود مكي، ص٢٣٨-٢٤٣؛ ص٣٤٧-٣٥٠؛ الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص٢٦٨-٢٧٠؛ الحميدي: جذوة المقتبس، ص٤٦٤، المقري: نفح الطيب، ج٣، ص٣٧٤-٣٧٥.

(٢) تاكرنا: عاصمة مدينة رندة.

أيضًا: «**حكيم الأندلس الزائد على جماعة علمائهم بكثرة الأدوات والفنون.**»

كثيرًا ما يتمثل الناس في زماننا بالمثل القائل: «**يخلق من الشبه أربعين**»، فإن لم يكن خُلِقَ من ابن فرناس أربعون شبيهًا له، فقد خلق ربنا – جل وعلا – له شبيهًا بمنأى عن بلده بل وموطنه، حيث هناك في أرض الحضارة والرقي بغداد، كان ابن فرناس أشبه الناس بأبي عبادة البحتري الشاعر، ونترك هنا محمد بن عبد الملك بن أيمن يروي القصة بنفسه عن نفسه، حيث قال: «**ولقد مشيت يومًا ببغداد، فرأيت رجلًا ذا شارة جميلة، قاعدًا في دهليزه، فتخيَّل إليَّ أنه عباس بن فرناس، وأنا قد خلَّفته – تركته – في قرطبة، فذهب بي الشك مذهبه حتى سألت بعض جيران ذلك الرجل، فقلت له: يا سيدي، أيكون هذا الرجل عباس بن فرناس الأندلسي؟! فقال لي: والله يا ابن أخي، ما سمعت بهذا الاسم قط فضلًا عن أن أعرف حامله، وإنما هذا الذي تشير إليه أبو عبادة البحتري الشاعر، قال: فعجبت من فرط تشابههما!**»

وقد يقول قائل: لِمَ لَمْ يذهب عبد الملك إلى الرجل نفسه ويتأكد من كونه عباس بن فرناس أم لا؟!

الإجابة: إن عباس بن فرناس اشتهر بين الناس بالسحر والشعوذة، وغيرها من الاختراعات والإبداعات التي كان ينظر إليها الناس على أنها ضرب من السحر والشعوذة، وعندما قَدِمَ هذا الرجل إلى بغداد كان تاركًا عباس بن فرناس في قرطبة، فهاله بمجرد وصوله إلى بغداد أن يجد ابن فرناس فيها، ولعل الظن ضرب به كل مضرب، مثل أن

ابن فرناس استخدم سحره الذي حمله إلى بغداد بهذه السرعة، وكأنه صعد على ظهر البراق.

ابن فرناس والعلم:

رغم اشتغال ابن فرناس بطلب العلم والعناية به والتعمق فيه منذ زمن الأمير الحكم إلا أن سطوع نجمه كان زمن ابنه الأمير عبد الرحمن بن الحكم، حيث أضحى ابن فرناس من ندماء الأمير عبد الرحمن وأبرز مجالسيه، وكان السبب في هذه العلاقة الوطيدة بين نجمنا والأمير هو فكه طلاسم كتاب العَرُوض للخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي استعصى على علماء وفقهاء عصره فك طلاسمه على ما سيأتي ذكره في الصفحات القليلة القادمة.

مما تميز به عباس بن فرناس أنه جمع علومًا شتى، ثم جعل من هذه العلوم مادة يستفيد منها في دراسة علوم أخرى، فدرس علم الفلك وعلوم الرياضيات والهندسة، ودرس الكيمياء والطب والصيدلة، كذلك درس العلوم الشرعية والعلوم الفلسفية، وكانت له دراية بعلوم اللغة والأدب، كما أنه كان شاعرًا متقنًا لنَظْمِ الشعر يمدح ويرثي؛ الخلاصة أن ابن فرناس كان يحمل بين طيات نفسه موسوعة علمية وفكرية ومعرفية في علوم وفنون شتى استطاع أن يوظفها في اختراعاته وإبداعاته، فعلمه في الرياضة على سبيل المثال استفاد منه في دراسته لعلم الفلك، وعلمه في الفلك أهَّلَه للتفكير في فكرة الطيران؛ كما أن اشتغاله في الكيمياء أهَّلَه لاختراع لم يسبق له

أحد وهو آلة الكتابة التي تطورت فيما بعدُ إلى قلم الحبر؛ كما أنه استطاع أن يوظف النبات والتراب في تصنيع الزجاج، وغيرها من الاختراعات والإبداعات الكثيرة التي سنأتي على الحديث عنها تفصيلًا خلال الصفحات القادمة.

كان من الأخبار التي تدلل على عظم قدر عباس بن فرناس، بما اتسم به من سعة العلم وحدة الذكاء ما رواه عنه الفقيه محمد بن عمر بن لبابة، حيث روى أن البعض من التجار حملوا معهم إلى الأندلس كتاب العروض للخليل بن أحمد الفراهيدي، وحملوه إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط، فلم يفهم منه الأمير شيئًا، مما دعا به إلى استقدام علماء النحو وفقهاء الأندلس حتى يوضحوا له ما يحوي هذا الكتاب بين طياته، إلا أن العلماء والنحويين والفقهاء لم يفهموا منه شيئًا، ومن هنا أُلْقِيَ هذا الكتاب، وظل مطروحًا في القصر تعبث به الجواري، حتى إن بعضهم كان يقول للآخر: «**صيَّر الله عقلك كعقل هذا الذي ملأ كتابه من مفاعيل مفاعيل!**»

بلغ خبر هذا الكتاب ابن فرناس، فرفع طلبًا إلى الأمير عبد الرحمن يطلب فيه أن يبذل له هذا الكتاب حتى يَطَّلِع عليه، فَلَبَّى الأمير مطلبه، وعندما أخذه ابن فرناس واطَّلع عليه؛ انفتح له ما أُغْلِقَ على غيره، وأدرك أن هذا الكتاب مؤلَّف في علم العروض، وذكر ابن فرناس للأمير عبد الرحمن أن ما يُطْرَح في هذا الكتاب يدل على أن هناك كتابًا سابقًا له يوضح ما فيه، فأرسل الأمير إلى المشرق في طلب هذا الكتاب فجيء له بكتاب «القرش»، وقيل: إنه طلب من ابن فرناس أن يذهب إلى المشرق لإحضار هذا الكتاب، وكان من نتائج معرفة

ما يحتويه هذا الكتاب بين دفتيه، وإحضار الكتاب السابق المُعَرِّف له، أن أمر الأمير عبد الرحمن لابن فرناس بمكافأة قدرها ثلاث مائة دينار وكسوة.

وقيل: إن الأمير عبد الرحمن بن الحكم أبطأ أو تأخر في مكافأة ابن فرناس، فنَظَمَ له ابن فرناس شعرًا يطلب فيه أن يُجْرِي عليه ما يُجْرِي على علماء وفقهاء العصر فقال:

ما بالُ مولاكَ ليس يوجَدُ في

ديوان أهل العطاءِ ملحوقًا

فأُعْجِبَ الأمير بشعره هذا، وازداد به إعجابًا عندما تغنى به زرياب المغني بصوت أطربه، ومن وقتها أجرى الأمير عبد الرحمن على ابن فرناس ما يُجْريه على ندمائه وجلسائه من علماء وفقهاء وأدباء عصره، بل زاده عليهم بأن أعطاه «**رزقًا للشعر وآخر للتنجيم، وأزلفه بالمنادمة**» كما رُوِيَ عنه، وكان من جملة الشعر الذي نَظَمَه ابن فرناس مادحًا فيه الأمير عبد الرحمن:

أصبحَ خَلْقُ الرحمن حيثُ نوى

من جود عبد الرحيم مرزوقًا

هو الذي عزَّ أن يُرَى أبدًا

في غاية المأثُراتِ مسبوقًا

تهمي سماواته اللجين إذا

أصبح فَستْقُ السماء مرتوقًا

يــا وارث العــدلِ بعــد أربعــة

كانـوا لديـن الهُـدى مَصَاديقـا

المصطفـى خاتـمَ النبـوةِ والثَّانِـي

لاثنيــنِ كان صِدِّيقًــا

والعُمَرَيْـــنِ اللذيــن فــازا معــا

فسُــمِّيا طيِّبًــا وفاروقــا

مما سبق يتضح أنه يعود الفضل في إدخال علم العَرُوض لبلاد الأندلس، ومعرفة أهل الأندلس به، وتوجههم لسبر أغواره والتعمق فيه؛ يعود الفضل في ذلك إلى عباس بن فرناس، الذي استطاع بما وهبه الله - جل وعلا - من حدة ذكاء ونباهة أن يفقه ويفهم ويعي ما عجز عن فهمه علماء النحو وفقهاء العصر آنذاك.

كذلك يوضح هذا الموقف جانب من شخصية ابن فرناس هذه الشخصية التي كانت تعشق سبر أغوار كل جديد، وتهتم بفهم وفك طلاسم كل غامض، ناهيك عن بُعْدِ نظره وحدة ذكائه، هذه المزية أو الخصلة التي تميز بها ابن فرناس جعلته يطمح بخياله كثيرًا، ويحاول جاهدًا أن يجعل من هذا الخيال واقعًا ملموسًا؛ لذلك أبدع العديد من الإبداعات، واخترع الكثير من الاختراعات العجيبة التي يحمل البعض منها الجدية، ولا يُحْرَم البعض الآخر منها الهزل.

ابن فرناس والتجارب والاختراعات:

كانت معرفتي بشأن عباس بن فرناس تتلخص في تجربته في الطيران، ولكن عندما اتجهت إلى البحث عن سيرته هالني كمية الاختراعات التي قام بها في زمن لم يكن فيه تكنولوجيا ولا معامل مجهزة بأحدث الأجهزة والمعدات، ومن هنا نعرف لماذا يتم التعتيم على هؤلاء القدوات الذي ينبغي أن يتخذهم الشباب والفتيات في عصرنا الحالي نبراسًا يهتدون به في ظلمات الطريق وشتاته.

قَدَّمَ عباس بن فرناس للبشرية مجموعة من الاختراعات والأدوات التي نعتمد عليها إلى يومنا هذا، فلم توقف إبداعات ابن فرناس واختراعاته عند حد تجربته في الطيران فحسب، كان ابن فرناس أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، بل وتعمق في دراسة الزجاج، مما مكنه من إنتاج الزجاج الشفاف الخالص من اللون؛ كما قام بأول تجربة لإنتاج عدسات الإبصار، كذلك ابتكر تقنية لتقطيع أحجار الكريستال الصلب بعد أن كانت تُرْسَل خصيصًا إلى مصر لتقطيعها، كما قام بتصميم أول ساعة مائية، والتي عُرِفَت باسم الميقاتة.

كان عباس بن فرناس كثير الإبداع والاختراع والاستنباط، واسع الحيل، هذه المزايا التي تميز بها، والتي لم يقف تميزه بها عند حد التباهي والتفاخر، حيث وضعها موضع التنفيذ، فقام بصنع الآلة المعروفة بالمنقانة أو الميقاتة التي تُسْتَخْدَم في معرفة الأوقات، وقدمها للأمير محمد حفيد الأمير الحكم، بعد أن نقش عليها أبياتًا من نَظْمِه، قال فيها:

ألا إنَّنـــي للديـــن خيـــرُ أداةِ
إذا غــابَ عنكــم وَقْــتُ كُلِّ صــلاة
ولــم تُــرَ شــمسٌ بالنهــار ولــم تَبِــنْ
كواكــب ليــلٍ حالــكِ الظلمــات
بِيُمْــنِ إمــام المســلمين محمــد
تجلَّــت بِــيَ الأوقــاتُ للصَّلــواتِ

أيضًا من الآلات الغريبة والعجيبة التي صنعها ابن فرناس، آلة تُعْرَف بـ«ذاتَ الحَلَق»، وهي ألة تُسْتَخدم لرصد حركة الشمس وحركة القمر والكواكب خلال الليل، وقدمها للأمير عبد الرحمن بن الحكم، بعد أن سَطَرَ عليها من شعره:

قــد تَــمَّ مــا حَمَّلْتَنِــي مــن آلــة
أعيــا الفلاسِــفَة الجهابِــذَ دُوني
لـو كان بَطْلَيْمـوسُ أُلْهِـمَ صُنْعَهُ
لــم يشــتغِل بجَـدَاولِ القانــونِ
فــإذا رأَتْــهُ الشــمس في آفاقِهــا
بَعَثَــتُ إليــه بنوُرِهــا المَــوْزُونِ
ومنازِلُ القمر التي حُجِبَتْ مَعًا
دونَ العيــونِ لــكُلِّ طالــع حِيــنِ

فَيَـرَوْنَ فيهـا بالنهـارِ كمـا بَـدَتْ
بالليــل في ظُلُماتهــنَّ الجُــونِ

كان ابن فرناس نموذجًا متجسدًا للعالم الذي أفنى حياته لتحقيق فكرة استحوذت على عقله وفكره، وهي فكرة الطيران، وكان من نتائج ذلك أن تمكَّن ابن فرناس من وضع اللبنة الأولى لواحد من أعظم وأهم الاختراعات التي شهدتها البشرية وهو الطيران.

فابن فرناس لا يقل أهمية ولا قيمة عن مخترع الكهرباء والسيارة والطباعة والهاتف وغيرها من الاختراعات التي أَثَّرت تأثيرًا بالغًا في حياة البشرية إلى يوم الناس هذا، حتى وإن تطورت هذه الاختراعات بصورة هائلة إلا أن الفضل يعود دائمًا إلى صاحب الفكرة الأولى الذي بادر بالتجربة، واتهمه مَنْ حوله بالجنون، غير أن هذا الاتهام لم يمنعه أن يحاول جاهدًا أن يسير قُدمًا في سبيل وضع فكرته موضع التنفيذ، ولكن ما يحدث في زماننا أنه يتم التعتيم على هذه القدوات التي مُلئت بها صفحات تاريخنا الإسلامي حتى لا نجد نحن جيل الشباب والفتيات قدوة نقتدي بها، ولا شخصية عظيمة وبارزة نسير على إثرها.

رغم ارتباط ذكر عباس بن فرناس بتجربته في الطيران، إلا أنه كان له قصب السبق في كثير من الإبداعات والاختراعات كما أشرنا سابقًا، فيحق لكل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها أن يحتفي ويفخر، بل ويَشْرُف بأن هذا الرجل ينتمي لأمتنا أمة الإسلام التي ينعتها أعداؤها على الدوام بالتخلف والرجعية فضلاً عن الوحشية والهمجية، مع

ذلك في إطار فخرنا وافتخارنا بأعلام ورموز أمتنا في الماضي لا ينبغي أن ننسى سؤالَ أنفسنا: ماذا قدمنا نحن لأمتنا وديننا؟

والجدير بالذكر أن معنى أن تكون عالمًا أو رمزًا ليس بالضرورة أن تُسَجَّلَ لك براءة اختراع، أو يجوب صوتك الشرق والغرب داعيًا للإسلام، وإنما يكفي أن تكون شخصًا متميزًا في مجالك، وبالتالي تقدم من خلاله ما يفيد البلاد والعباد، ولكن لا تنس قبل ذلك ومع ذلك وبعد ذلك:

إنَّمــا الأمــمُ الأخــلاقُ مــا بقيــت

فــإن هــم ذهبــت أخلاقهــم ذهبــوا

كان ابن فرناس دائم التأمل في السماء وطيورها ونجومها وفلكها، فاهتم بدراسة الفلك وحركة النجوم؛ ونظرًا لأن حلمه الأشهر والأكبر كان حلم الطيران؛ لذلك قام ابن فرناس بدراسة وتشريح أجنحة الطيور لمعرفة كيف تطير، وقام بدراسات وتجارب عديدة لمعرفة ثقل الأجسام ومقاومتها وتأثير ضغط الهواء عليها أثناء التحليق في السماء، فقام بكساء نفسه بالريش المصنَّع من الحرير الأبيض لمتانته وقوته، وبعد أن استعد جيدًا لتجربته، وانتهى من دراسته وأبحاثه النظرية جاء وقت التطبيق؛ لذا أعلن على الملأ أنه سيطير في الفضاء أمام العامة، وسيكون طيرانه من قصر الرصافة في ظهر مدينة قرطبة، فكيف كانت تجربته الأولى في الطيران؟

فكر عباس ابن فرناس في الطيران، وبعد دراسة وتمحيص وبحث طويل واستشارة من الكثيرين قرر أن يضع فكرته موضع التنفيذ،

فرُوِيَ عنه أنه احتال على تطيير جسده بأن كسى نفسه ريشًا مصنوعًا من الحرير، ومدَّ لنفسه جناحين، وصعد إلى مكان مرتفع بالقرب من الرصافة، وطار في الهواء مسافة بعيدة إلا أنه لم يلبث أن وقع وتأذى من شدة الوقوع والارتطام بالأرض؛ لأنه لم يصنع له ذيلًا كما صنع لنفسه جناحين، ولم يدرك أن الذيل أحد العوامل التي تساعد الطائر في الهبوط إلى الأرض دون أن يتأذى، إلا أن هذه التجربة من ابن فرناس جعلته حديث القاصي والداني خاصة ممن لمحوه يطير في الهواء من بعيد دون أن يعلموا مَنْ هو؛ إلا أن ابن فرناس لم ييأس من فشل تجربته الأولى في الطيران، كما لم يمنعه كبر سنه من المحاولة مرة ثانية، حيث كان في محاولته الثانية تلك لتجربة الطيران يبلغ من العمر ستين عامًا.

لم يَكُفَّ بعض فقهاء قرطبة المتعصبين من اتهام عباس بن فرناس بالكفر والإلحاد، كما اتهموه بالسحر خاصة لاشتغاله بالكيمياء والفلك، أما عن تجربته في الطيران، فكانوا يؤمنون باستحالة أن ينجح الإنسان في الطيران، بل وادعوا أن الطيران تبديل لخلق الله وحكمته، فقاموا بتحريض العامة ضده، وتعرَّضوا له وقاموا بضربه عندما كان يصلي بجامع قرطبة؛ حتى فقد وعيه، فحملوه للقاضي متهمين إياه بأنه ساحر يهذي بكلمات غير مفهومة.

كان من نتائج ما سبق أن عُقِدَت لعباس بن فرناس وثيقة باشتغاله بالزندقة، وشهد بذلك عليه جماعة من العامة لدى القاضي سليمان بن أسود، فمنهم من قال فيه: سمعته يقول مفاعيل مفاعيل، ومنهم من قال: رأيت الدم يفور من قناة داره ليلة ينير، وغيرها من الحماقات

التي شهد بها جملة من عوام الناس الذين امتازوا بالحماقة والجهالة كما وصفهم المؤرخون، هذه الحماقات التي استشار فيها القاضي ابن أسود الفقهاء، فلم يجد بعد مشاورتهم وأخذ رأيهم سبيلًا إلى معاقبة عباس بن فرناس، فأطلق سراحه، ولم يتعرض له بسوء، بل وحذر الناس من التعرض له بأي سوء.

عالم كعباس بن فرناس حينما ينشأ في جو علمي يؤهل العلماء ويرعاهم لا شك أنه سيجد أثر ذلك، فإن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط كان له شغف بالاختراعات والإبداعات وحب العلم؛ لذلك عندما تولى الأمر بعد أبيه قرب ابن فرناس وجعله طبيبه الخاص.

كانت لابن فرناس - كما أشرنا - عناية بالعديد من العلوم المختلفة والمتباينة، ومنها الطب والصيدلة، وعناية ابن فرناس بالطب والصيدلة لم تقف عند حد القراءة في كتب مَنْ سبقه من الأطباء، بل تعدى ذلك إلى القيام بأبحاث خاصة به، فكان عباس بن فرناس يؤدي تجاربه الطبية ويختبرها بنفسه.

الأطباء في الأندلس في ذلك الوقت كانوا يستفيدون من الطبيعة التي يعيشون في أكنافها، وينهلون من خيراتها، فبلاد الأندلس كانت من أقصاها إلى أدناها مليئة بالنباتات والأعشاب والأزهار، هذه النباتات والأعشاب والأزهار التي كانت محلًّا لتجارب الأطباء، هذا التنوع الهائل في هذه النباتات والأعشاب والأزهار جعلهم يستفيدون منها فائدة كبيرة في إجراء تجاربهم الشخصية التي جعلتهم

بعد ذلك يستفيدون منها في الأدوية، فكان ابن فرناس يقرأ في علم النبات، ويبحث فيه، ويقرأ في كل ما يتعلق بتربة النبات.

الخلاصة أن تمرُّس ابن فرناس في الطب أهله أن يكون الطبيب الخاص للبلاط الأموي، كما كانت عنايته بالاستشفاء ومداواة البلاط وأهل القصر، جعلته يحكم أحيانًا على نوع الطعام الذي يتناولونه، هذا الطعام يصلح وهذا لا يصلح، كُلُوا هذا ولا تأكلوا ذاك، وإذا أصيب أحدهم بمرض كان يصف لهم من دوائه الذي جربه بنفسه.

لم يكن ابن فرناس مخترعًا فحسب، بل كان شاعرًا مجيدًا، يَنْظِم الشعر الرائد الراقي، كثير المحاسن جم الفوائد، الذي يحمل بين معانيه الخصال الرائدة والأخبار السائرة، كما أنه كان يحسن الضرب على العود، وصياغة الألحان الحسنة الجميلة.

كذلك من جملة الاختراعات التي أبدعتها يدا عباس بن فرناس قيامه بصنع آلة تشبه السماء وضعها في بيته، حيث أضاف لها بعض الأدوات التي يُخَيَّل للناظر لها أنها أفلاك ونجوم وغيوم وبروق ورعود، وقد أراها ابن فرناس للكثير من الناس، مفتخرًا بما وهبه الله - جل وعلا - من حكمة ومقدرة على صنع مثل هذا الشيء المبدع الذي بهر كل من رآه.

إلا أن ابن فرناس شأنه شأن كل المبدعين في كل زمان ومكان لم يحرم من حاقد أو حاسد، فضلًا عن ساخر ومستهزئ بما فعل ويفعل، ناهيك عن الطعن في دينه وعقيدته، وكان ممن سخر من صنيعه هذا بنَظْم أبيات الشعر التي تحدث عنه الشاعر مؤمن بن سعيد حيث قال فيه:

قَعدتُ تحت سماء لابن فرناس
فخِلْتُ أن رَحى دارات على رأسي
سماءُ أنْوكَ سوَّاها وحفَّفها
بِحَيَّة ذات أنياب وأضراس
لها نجوم تُنَبِّي أن خالِقها
إذا نظرت إليها أحمق الناس
يُمسي ويُصْبح من شُغْل بصَنْعَتِها
نَجِيَّ هَمٍّ وتفكير ووَسْواسِ
كانَ الجدير بأنْ يَرْقَى إليه بها
راقٍ فَيَدْحُو به منها على الرَّاس

كما رُوِيَ أن عباس بن فرناس كتب إلى هذا الشاعر أبياتًا عن هذه السماء يمازحه بها فقال:

دِنْ لسمائي يا خَلْقَ خالِقِها
واستشعر الخوف من صواعقها

وعندما وقعت هذه الأبيات على مسمع الشاعر مؤمن بن سعيد استشاط غضبًا، وأجابه بأبيات أكثر استهزاءً وسخرية من سابقتها، بل وزادها فحشًا في القول واللفظ، فقال:

سماءُ عباس الأريب أبي القاسم

ناهيكَ حُسْنُ رائِقِها

أمَّا ضُراط اسْتِهِ فراعِدُها

فليتَ شعرِي ما لَمْعُ بارِقِها

أَجَلْتُ عَينيَّ في مغارِبها

فحار طرفي وفي مشارِقِها

هِمٌّ[1] له في جُنونِهِ هِمَمٌ

يقصر كِيوانُ[2] عن شواهقها

لقد تمنَّيْتُ حين دَوَّمها[3]

فِكْرِي بالبَصْقِ في اسْتِ خالِقِها

ابن فرناس والصداقة:

كان لابن فرناس صديق منه بمرتبة الروح من الجسد، هذا الصديق هو الشاعر مؤمن بن سعيد الذي تمت الإشارة إليه سابقًا، عندما سمع مؤمن ما جرى على ابن فرناس بإدراج الأمير له في جملة أخص ندمائه، بل صيره أقربهم وأجرى عليه الأرزاق والأعطيات، نظم فرحًا ومهنئًا لصديقه بعض أبيات الشعر التي قال فيها:

(١) الهِمُّ: الشيخ الطاعن في السن.

(٢) كيوان: كوكب زحل.

(٣) وقيل: دوَّخها فكري.

يَهْنِــى أبــا القاســم مــا نــالا

وزاده المُفْضِــلُ إفضــالًا

صــار نديمًــا لإمــام الهــدى

فأصبحَــتْ حالــي بــه حــالًا

سُــرِرْتُ بالقــدرِ الــذي نالــه

كأننــي نلــتُ الــذي نــالا

فضلًا تمعَّن أخي القارئ وأختي القارئة في هذه الأبيات جيدًا، وقف عندها ليس وقفة فحسب بل وقفات، هذه الأبيات أو المعاني المرصعة وكأنها الدر والياقوت والتي توضح ما انطوت عليه من عبق ورقي المعاني عمق العلاقة بين ابن فرناس وصديقه ابن سعيد، هذه المعاني التي تنطق بأن الاثنين قلب واحد في جسدين؛ لأنه قريبًا سينقسم هذا القلب، ويصبح لكل جسد قلب خاص به، ولن يحدث هذا فحسب، بل سيكيل كل قلب من هذين القلبين الذم والقدح للآخر وكأنهما لم يكونا يومًا قلبًا واحدًا، بل خُلِقَا منذ الأمد عدوين لم يعيشا فضلًا عن أن يستشعرا حلاوة وطلاوة الصداقة ولو يومًا واحدًا، وأعتقد أن القارئ لا يحتاج أن أشير إلى مدى التشابه بين هذا الموقف وبين ما يحدث في زماننا؛ لأن القارئ نفسه قد يكون تعرض لهذا الموقف، وعاش آلامه وآهاته، وليس من عاش كمن سمع أو قرأ.

كان ابن فرناس صديقًا وذا علاقة وطيدة بالشاعر مؤمن بن سعيد، هذه الصداقة التي استمرت زمنًا ليس بالقصير، إلا أنه خلال الزمن

التي مرت به هذه الصداقة على طوله، كان ابن سعيد دائمًا ما يتطاول على صديقه ابن فرناس تصريحًا أو تلميحًا، جدًّا أو هزلًا، مستغلًّا مكانته وقدره لديه.

وظل ابن سعيد على حاله من التطاول، وظل ابن فرناس على طبعه في التجاوز أمدًا بعيدًا، حتى جاء اليوم الذي حمل فيه البعير الشعرة التي قصمت ظهره، هذه القشة رواها لنا محمد بن عتبة الشَّقَّاق وكان صديقًا لمؤمن بن سعيد صديق ابن فرناس، حيث روى أنه كان ذات يوم عند ابن سعيد، وجاءه آنذاك ابن فرناس زائرًا كعادته في زيارة صديقه ابن سعيد، وكان يرتقي بغلة بلغت الغاية من الهزال والضعف، فنزل عنها وجلس بجوار صديقه، وتساءلا عن الحال، وتحدثا حديثًا طويلًا، فلما نال القدر الكافي من حديثهما سَلَّمَ ابن فرناس على صديقه ابن سعيد وارتقى ظهر بغلته وانصرف، فلم يكد ابن فرناس يتجاوز الباب حتى عَثُرَتْ بغلته به حتى كاد أن يسقط من على ظهرها منكبًّا على وجهه، وهنا قام ابن سعيد وراءه متهافتًا يصفق بكلتا يديه ويضحك ملأ شدقيه، ثم قال لابن فرناس: أتدري لِمَ عثرت بغلتك يا أبا القاسم؟ فرد عليه ابن فرناس: لا، فتناول ابن سعيد قشة من الأرض، وقال لابن فرناس: «في هذه والله عثرت، وقد بلغ بها الجهد، فأشْبِع وإلا فَبِع»، وهنا استشاط ابن فرناس غضبًا، هذا الغضب الذي دفعه أن يقول لصديقه: «يا مأبون»، ثم أردف قوله هذا لصديقه قائلًا: «وإلى ها هنا انتهيت بي؟ تنزلني منزلة من يُتَهَكَّم به؟! لتعلمنَّ غِبَّها - أي تبعة هذا الفعل -».

ثم ولي ابن فرناس والغضب ينخر في عضده من فعلة صديقه تلك، وأخذا الصديقان من يومها في هجو كلٍّ منهما الآخر، بل واشتد الشر بينهما ولم يصطلحا إلى أن ماتا، وقيل: إن من أفحش الأبيات التي هجا بها ابن فرناس صديقه، قوله:

تـرى أثَـر الأعـرادِ في جنـسِ مؤمـنِ

كآثـار بَيْـض في رمـادٍ مُغَرْبَـلِ

الجدير بالذكر أن محمد بن عتبة الشقاق صديق ابن سعيد عند روايته لهذه القصة كان يبلغ من العمر ما يزيد عن تسعين عامًا، هذا العمر المديد الذي يحمل بين طياته الكثير، فمما يحمله هذا العمر المديد أن ابن سعيد وابن فرناس لم يكونا آنذاك شابين يافعين متهورين، وإنما كانا شيخين كبيرين، ويحمل هذا العمر أيضًا أن عمرًا كبيرًا وعريضًا مضى على صداقتهما التي كُتِبَ لها الانتهاء لمجرد موقف قد ينظر له الكثير أنه موقف تافه، وهو بحق تافه، إلا أن الرد على هذا الموقف على تفاهته بإنهاء علاقة صداقة استمرت لسنوات طويلة يدل على أن ابن سعيد هذا كان متماديًا ومتطاولًا على صديقه منذ أمد، وأن ابن فرناس كان متغافلًا ومتجاوزًا عن صديقه منذ زمن؛ تدل أيضًا على أن ابن سعيد لم يكن تماديه وتطاوله هذا من قبيل المزاح مع صديق عمره، وإنما كان عن قصد إن لم يكن خُبثًا انطوت عليه نفسه، وعلى الصعيد الآخر تدل على أن ابن فرناس قد يتجاوز كثيرًا ومرارًا وتكرارًا على أمر وقع بينه وبين صديقه، وإنما أن يتجه صديقه إلى التقليل من شأنه وإهانته أمام الآخرين، فهذا ما لا يستطيع التجاوز فيه أو التغافل عنه.

لذلك لا تحسبن التوافه شيئًا تافهًا، فكما أن صغائر الذنوب تجتمع على المرء حتى تهلكه، كذلك توافه الأمور قد تجتمع على المرء حتى تجعله يخسر أقرب الناس إليه.

كذلك روى إسحاق بن سلمة الحبيبي عن ابن سعيد وابن فرناس بعد تعكير صفو صداقتهما أنه بينما كان ابن سعيد سائرًا على ضفة نهر قرطبة، ينظر إلى السفن المنحدرة إلى إشبيلية، إذ وقع بصره على ابن فرناس وهو يصيح على مؤمن بن سعيد ويناديه: أبا مروان، فتوجه إليه مؤمن بوجهه، وقال له: من أين عرفتني يا أبا القاسم، وأنت لم تر وجهي؟! فرد عليه ابن فرناس: ولِمَ لا، وأنا أعْرَفُ بقفائك مني بوجهك، فأُفْحِمَ مؤمن ولم يرد عليه.

وقيل: إن ابن فرناس نَظَمَ ذات يوم أبياتًا يمدح فيها الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، قال فيها:

رأيـتُ أميـرَ المؤمنيـن محمـدًا

وفي وجهـه بـذرُ المحبـة يثمـرُ

فسخر منه ابن سعيد قائلًا: «قبحًا لما ارتكبته، جعلت وجه الخليفة مَحْرَثًا يثمر فيه البذر؟!» فخجل ابن فرناس من تهكُّمه هذا، وشتمه ومضى.

ولا يفوتنا أن نذكر أن تصرفات مؤمن بن سعيد وسوء فعله هي السبب الذي أدى إلى فساد صداقته مع ابن فرناس، وتعكير صفو هذه الصداقة والأخوة، حيث قال عنهما المؤرخون: «**كان عباس بن فرناس صديقًا لمؤمن بن سعيد الشاعر دهرًا - أي زمنًا طويلًا-،**

ثم ما زال مؤمن تبذؤ[1] لسانه وخبث طويته، فتحكك بعباس حتى استفسده، فتكاشفا وتصارما وساء ما بينهما جدًّا، فتهاجيا وتماضيا، وجرت بينهما نقائض مفحشة»، والجدير بالذكر أن مؤمن بن سعيد هو من بدأ في التغير على صديقه عباس بن فرناس، حيث قيل عنه: «ثم تغير مؤمن على عباس حسب تغيره على الناس، فتهاجيا وتماضا، وجرت بينهما خطوب طويلة».

أخيرًا

لنا أن نتساءل: هل كانت سيرة عباس بن فرناس هذه سببًا في أن يُهْمَلَ ذكرها، فلا نجد من يذكره أو يدين له بفضله؟ فقلما نجد من جيل الفتيات والشباب المسلمين من يعرف عباس بن فرناس، قلما نجد في المؤسسات التي تخصص جزءًا من أقسامها في العناية بالابتكار والاختراع في بلاد المسلمين من تذكر عباس بن فرناس.

لم يجهل العالم قيمة وقدر عباس بن فرناس رغم تجاهل بعض كتب التاريخ لدوره الرئيس في تجربة الطيران الأولى في التاريخ، فحديثًا تم تكريم اسمه حيث قامت وكالة ناسا بتسمية فوهات قمرية باسمه، كما افتتح مركزًا فلكيًّا يحمل اسمه في رندة أصل عائلته، بينما أنشأ جسر عباس بن فرناس في قرطبة على نهر الوادي الكبير، وفي منتصف الجسر تمثال لابن فرناس مثبت به جناحان يمتدان إلى نهاية الجسر، ولما له وهو عالم لم يمض يوم في حياته بدون دراسة وبحث وتجربة.

(١) يتطاول.

قضى ابن فرناس حياته في العلم في بلاط بني أمية، ومات في حياة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، بعد حياة مليئة بالعلم، طال عمر ابن فرناس حتى بلغ ما يربو على الثمانين عامًا، ويلخص هذا العمر المديد في أن العلم لا حدود له، والتجربة لا ينبغي لها أن تتوقف، والطموح لا ينبغي له أن ينتهي لا حدود للعلم.



بَقِيٌّ بن مخلد[1]

(محدث الأندلس)

كان بَقِي بن مَخْلَد أحد أبرز علماء الأندلس يبيع ثوبه ليشتري أوراقًا وأقلامًا ليستخدمها في تدوين ما يحصِّله من علوم؛ وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى عناية أهل الأندلس بالعلم وشغفهم به إلى درجة أن يبيع طالب العلم منهم ثوبه ويشتري بثمنه أوراقًا وأقلامًا يُدَوِّن بها هذا العلم حتى لا يفوته شيء منه، ولا يندثر فيفوت من يأتي بعده من أجيال.

هذا الحرص الذي تميز به بَقِيُّ بن مخلد على طلب العلم والشغف بتحصيله، كان سببًا في أن يُلَقَّب بـ«المكنسة»؛ وذلك لكثرة ما كان يُحصله من العلم في كل بلد يحل فيه.

رحلته في طلب العلم:

وُلِدَ بَقِيُّ بن مَخْلَد في قرطبة ونشأ بها، وبعد أن أخذ العلم على

(١) الخشني: أخبار الفقهاء والمحدثين، ص٤٩؛ ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ج١، ص ١٤٥؛ الحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٥٢؛ المقري التلمساني: نفح الطيب، ج٢، ص٥١٨-٥١٩؛ الضبي: بغية الملتمس، ج١، ص٣٠٢؛ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج٢، ص٧٤٦؛ ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص١٩٥؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص١٢٦؛ ابن سعيد: المغرب، ج١، ص٥٢.

أيدي أعلامها المتواجدين آنذاك مثل: يحيى بن يحيى الليثي ومحمد بن عيسى الأعشى، اتجه صوب المشرق لأخذ العلم وتحصيله من منابعه الأصيلة، فكانت له رحلتان إلى المشرق مكث في إحداهما عشرة أعوام، وفي الأخرى خمسة وعشرين عامًا، سمع وتفقَّه على أيدي العديد من علماء المشرق، سمع بالحجاز مصعبًا الزهري وإبراهيم بن المنذر وغيرهم، وبمصر سمع من يحيى بن بكير وزهير بن عباد، وبدمشق من إبراهيم بن هشام الغساني وصفوان بن صالح، وببغداد من أحمد بن حنبل، وبالكوفة من يحيى بن عبد الحميد، فكان لكثرة العلماء والفقهاء الذين أخذ عنهم في المشرق أن رُوِيَ عنه أنه تعلم على أيدي ١٨٤ عالم، وقيل: ٢٨٤، هذا الكمُّ من العلماء والفقهاء الذين أخذ ابن مخلد عنهم العلم يدلل إلى أي مدى كانت عنايته واهتمامه بطلب العلم وتحصيله وشغفه به.

نظرًا لحالة بَقِيٍّ بن مخلد ممثَّلة في الفقر وضيق العيش حدث أثناء رحلته إلى المشرق في سبيل طلب العلم أن اجتمع بداود بن عيسى[1] وكان ابن مخلد قليل المال، في حين كان ابن عيسى ذا سعة في المال والرزق، فطلب منه ابن مخلد أن يبيح له من ماله ما يشتري به الكتب ويجمع به الدواوين له، وقال له: «**أرجو أن ينفعك الله بذلك**»، فاستجاب ابن عيسى لمطلبه، فكان ذلك سبب استكثار ابن مخلد من الرواية والجمع، ولما انصرف ابن مخلد إلى الأندلس نسخ هذه الكتب والدواوين لنفسه.

---

(١) داود بن عيسي بن جبويه الكلابي الأحول: من أهل قرطبة، مما ذُكِرَ عنه أنه كان مجاب الدعوة، كان ذا سعة من المال، وقيل عنه: إنه «كان مغفلًا لا علم عنده أصلًا»، ولم يتقيد له تاريخ وفاة كما ذكر ابن الفرضي.

يظل لكل شخص أو طالب علم طقوسه الخاصة في طلب العلم، وكذلك كان لِبَقِيٍّ بن مخلد طقوسه الخاصة شأنه شأن غيره من السائرين في طريق العلم ودروبه، ذُكِرَ عنه أنه كان يطوف في الأمصار على أهل الحديث، فإذا أتى وقت الحج أتى إلى مكة فحج، وكان يقوم بهذا الفعل كل عام في رحلتيه إلى المشرق، اللاتي استغرقتا خمسة وعشرون عامًا، وكان يلتزم صيام الدهر، فإذا أتى يوم الجمعة أفطر، كما كانت له عبادات كثيرة من قراءة القرآن وغيرها من الصلوات، إضافة إلى نشر العلم وبذله لأهله والراغبين فيه.

روى بَقِيُّ بن مخلد في رحلته لطلب العلم أنه ذهب إلى بغداد، وكان أكبر سبب دفعه للذهاب إليها أن يسمع من أحمد بن حنبل، وفور وصوله دخل إلى المسجد الجامع بها، وجلس في إحدى حلقات العلم هناك، وفيها سأل الفقيه القائم على الحلقة عن رأيه في أبي الوليد هشام بن عمار الدمشقي، وهو أحد أعلام دمشق الذين أخذ عنهم ابن مخلد، فقال له الفقيه: «**أبو الوليد هشام بن عمار ثقة وفوق الثقة، ولو كان تحت ردائه كِبر أو كان متقلدًا كِبرًا ما ضره شيئًا لخيره وفضله.**»

فضلاً أخي القارئ وأختي القارئة أَعِدْ قراءة الكلمات التي وُصِفَ بها الفقيه والعلامة الجليل أبو الوليد بن هشام، ستلحظ أنه ذُكِرَ أن أبا الوليد هذا لو كان يتصف بالكِبر ما ضره هذا الاتصاف؛ وذلك لما احتواه بين طيات نفسه من سعة خير وفضل، فوصفه بهذه الصفة وهي الكبر والتي قد لا ينظر إليها الكثيرون أنها إحدى الذنوب الكبار، يدل على عظيم فعلها في توجيه الإنسان إلى طريق الضلال،

والتي قال فيها الحبيب المحب ﷺ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ.**»

كما يوضح هذا الوصف أنه رغم عظم مغبة الكبر إلا أن هذه الصفة لو اتصف بها أبو الوليد ما ضرته؛ وذلك لما احتواه بين طيات نفسه من خير وفضل لا يبخل في بذله لأي أحد قريب أو غريب؛ فلو بلغت ذنوبك عنان السماء حاوِلْ أن تزاحمها بفعل الحسنات والخيرات، مهما صغر قدرها في عينك، وتذكَّر أن العمل الصغير تعظِّمه النية الصادقة لوجه الله وتعالى، كما أن العمل الكبير قد يحقره عدم وجود النية، وتذكَّر أيضًا أن لا أحد منَّا يدري بأي عمل يدخل الجنة، فانثر عبير فعالك الطيبة وأخلاقك العطرة في كل موطن تطؤه قدمك، لعلها تكون شاهدًا لك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله – جل وعلا – بقلب سليم.

انتهى بَقِيٌّ بن مخلد من سؤال الفقيه عن أبي الوليد هشام، وتوجَّه إلى سؤاله عن أحمد بن حنبل، فرد عليه الرجل قائلًا: «**ما أقول! ذاك سيدنا وخيرنا وأفضلنا**»، فخرج بَقِيٌّ بن مخلد من المسجد وتوجَّه إلى السؤال عن مسكن أحمد بن حنبل، فدله الناس عليه، فذهب إلى بيته وطَرَقَ عليه الباب، فخرج له ابن حنبل وسأله عن حاجته، فقال له بَقِيٌّ: «**أبا عبد الله، إني رجل غريب من أقصى المغرب لم تكن رحلتي إلى هذا البلد إلا من أجلك، وذهبت إلى أن تحدثني وأكتب عنك**»، فقال له أحمد بن حنبل: «**يا هذا ما كان شيء أحب إليَّ من عون مثلك، غير أنك صادفتني ممتحنًا بالمحنة التي ترى، وهذا شيء منعته**»، حيث إن أحمد بن حنبل أثناء محنة خلق القرآن

مُنِعَ من تدريس العلم ونشره، وأُمِرَ بأن يلزم بيته لا يخرج منه، فكان لا يخرج منه اللهم إلا لأجل أداء الصلوات.

بالطبع أن يأتي طالب علم من أقصى البلاد إلى أدناها لأخذ علم يعلم علم اليقين أنه قد لا يجده إلا عند هذا العالم، ثم يحدث ألا يتمكن من تحقيق هدفه بعد أن قطع كل هذه المسافات في زمن لم يكن فيه سيارات أو طائرات أو قطارات، فهذا بالنسبة له سيكون الطامة الكبرى، وقد يكون سببًا أن يتوقف عن طلب العلم بالجملة، إلا أن بَقِيَّ بن مخلد لم يكن من طراز الناس الذين قد تثنيهم المحن والصعاب والتحديات التي قد تعترض طريقهم عن السير قدمًا في سبيل تحقيق أهدافهم، بل كان من طراز الرجال الذين يقومون بتذليل هذه الصعاب في سبيل تحقيق ما يرنو إليه بصرهم.

بناءً على ما سبق اقترح بَقِيُّ بن مخلد على أحمد بن حنبل أن يسمح له أن يستخدم الحيلة حتى يتحصَّل على ما في جعبته من علوم وآداب وفنون، فسأله ابن حنبل وما حيلتك؟! فقال له ابن مخلد: «**إني رجل مجهول العين في هذا البلد فآتيك كل يوم في زي سائل –شحاذ أو متسول– وأنادي بالباب، فإذا سمعتني فتفضل بالخروج إليَّ، وأنا أستعد بكاغدي –ورقي– ومحبرتي فتملي عليَّ ما أمكن كل يوم**»؛ فوافقه الإمام أحمد بن حنبل على اقتراحه.

ظل بَقِيُّ بن مخلد يذهب إلى أحمد بن حنبل يوميًّا وهو يرتدى ملابس رديئة، ويلف على رأسه خرقة باليه، وبيده عصا يتوكأ عليها، وهو يخبئ أوراقه ومحبرته في ملابسه حتى لا يفطن إليه أحد، فينادي على أحمد بن حنبل على أنه متسول، ويخرج ابن حنبل فيملي عليه

الحديث والاثنين والثلاثة على حسب ما تتسنى لهما الظروف، وذكر ابن مخلد أنه كتب عنه في ظل هذا الوضع ما يربو على ثلاث مائة حديث، ثم حدث أن انجلت محنة ابن حنبل وخرج لينشر علمه على الناس، فظل بَقِيُّ بن مخلد يلزم حلقته ويسمع معهم.

هنا لا بد أن يحتاج قارئ مثل هذا الموقف الذي قام به ابن مخلد من أجل تحصيل العلم تساؤلًا مفاده: أين نحن طلاب العلم والراغبين فيه من بذل الغالي والنفيس في سبيل تحصيله؟ أين نحن الخلف من جهود السلف؟

كما روى بَقِيُّ بن مَخْلَد عن نفسه في رحلته الطويلة تلك لطلب العلم أنه ذات يوم بينما كان يجلس مع أصحابه يتناقشون ويتداولون العلم، وقفوا عند مسألة في النكاح، خالفهم فيها بقي، فقالوا له: «**اتسعت في معرفة الاختلاف**»، بمعنى أضحيت تخالفنا في الرأي كثيرًا، فقال لهم بَقِي: إنه لا يذكر المسائل إلا على مذهب مالك ورأيه، فقالوا له: وما نقوله نحن في المسألة هو مذهب مالك، فأمر بقي أن يؤتى له برزمة كتب دَوَّنَها بيده عن الإمام مالك وفيها مسألة النكاح، وقال لهم: إن المسألة في موضع كذا من الكتاب، فتصفحوا الكتاب فوجدوها في الموضع الذي قال، فعَلَتْ وجوههم علامات التعجب والدهشة من قوة ذاكرته التي مكنته أن يتذكر الموضع المُدَوَّن فيه المسألة، فقال لهم بقي: «**وأعجب من هذا أنها والله رزمة ما حللتها بعد أن ربطتها بالمشرق وهذا من حفظي القديم.**»

هنا وقفة: كثيرًا ما يشتكي القراء اليوم من أنهم لا يتذكرون ما يقرؤون، وبالتالي ينتابهم شعور أنهم لا يستفيدون شيئًا من هذه

القراءة التي يبذلون فيها وقتهم وجهدهم، ودلالتهم على ذلك أنهم إذا تعرضوا لموقف نقاش في مسألة معينة لا يعرفوا أن يتحدثوا فيها رغم قراءتهم عنها؛ الجواب: تجده هنا بين طيات سيرة بَقِي بن مخلد وغيره من أعلامنا وقدواتنا، فهؤلاء العلماء لم يصلوا إلى ما وصلوا إليه من هذا التمكن إلا أنهم جعلوا العلم وطلبه هو شغلهم الشاغل، جعلوا منه هدفهم الذي لم يلتفتوا لغيره، وقد يقول قائل: نحن لدينا أعمالنا والسعي في سبيل طلب الرزق لأولادنا وأهلنا، فكيف لنا أن نتفرغ كليةً لطلب العلم؟!

اعلم أنه ليست المعضلة في طلبك الرزق والسعي في مصالح أبنائك وأهلك ومن يهمك أمرهم، وإنما المعضلة في التشتت الذي بُلينا به من تلفاز ومواقع تواصل اجتماعي وغيرها من المشتتات التي يموج بها واقعنا المعاصر، فهؤلاء العلماء كان لهم أبناؤهم ومشاغلهم التي لم يتركوها أو يرموا بها عرض الحائط، وإنما كانوا يحاولون جاهدين إذا أتى وقت طلب العلم أن يركزوا عليه بكليتهم وكيانهم.

أيضًا كان من المواقف التي ذكرها ابن مخلد أثناء رحلته في طلب العلم، أنه قال: كنت أسمع من محمد بن سحنون في داخل بيت سحنون بالقيروان أشياء سمعتها بالعراق، فرأيت كتبًا مجموعة في داخل البيت، فقلت له: «**أبا سعيد - يقصد سحنون - إن كانت هذه الكتب رواية رويتها عنك!**» فقال له سحنون: «**هذه كتب لأبي حنيفة**»، فقال له بَقِيٌّ: «**كيف حلَّ لك أن تنظر في كتب أبي حنيفة؟!**»

قال سحنون: «**يا بَقِيَّ، كيف كان يحل لنا أن نخطِّئه ولم ننظر إلى مذهبه وما يقول؟!**»

في هذه الموقف تحديدًا أترك لكم أحبائي القراء جني ثمار طيبة المذاق كطيب قراءتكم واطلاعكم.

العلوم التي أَدْخَلَهَا إلى الأندلس:

عاد بَقِيُّ بن مخلد إلى الأندلس بكتب عديدة في ألوان مختلفة من العلم كالفقه والتراجم والتاريخ، هذه الكتب التي كان لها تأثير عظيم في تغذية الحياة العلمية في الأندلس، حيث فتحت كتبه التي نقلها آفاق البحث العلمي في الأندلس، فأقبل أهل الأندلس على دراستها والنظر فيها، وسبر أغوار ما تحويه بين دفتيها من علوم وآداب وفنون.

كان مما انفرد به بَقِيُّ بن مخلد ولم يدخله الأندلس أحد سواه من المصنفات: «مصنف» أبي بكر ابن أبي شيبة، وكتاب «الفقه» للشافعي، وكتاب «التاريخ» لخليفة بن خياط، وكتابه في «الطبقات»، وكتاب «سِير عمر بن عبد العزيز» للدورقي.

قيل عن بَقِيِّ بن مخلد: إنه ملأ الأندلس حديثًا ورواية، حيث أدخل إلى الأندلس العديد من المصنفات التي لم يُدْخِلْها غيره، وقد أنكر عليه بعض أصحابه ما أدخله إلى الأندلس من كتب الاختلاف وغرائب الحديث، بل وأوغروا صدر السلطان عليه، إلا أن الله - جل وعلا - عصمه منهم وأظهره عليهم، فنشر حديثه وقرأ رواياته على الناس، وتلاه في نشر الحديث ابن وضاح حتى صارت الأندلس دار

حديث وإسناد[1] وكانت الأندلس سابقًا يغلب عليها حفظ رأى مالك وأصحابه.

علاقته بالحكام ورجال الدولة:

كان «محمد بن عبد الرحمن الأوسط» من المحبين للعلم المعظمين لأهله، وكان محبًّا بشكل خاص لأهل الحديث، ومن المواقف التي توضح حبه للعلم وأهله أنه حدث عند عودة «بَقِي بن مخلد» الذي أضحى آنذاك أحد أعلام الأندلس من أحد رحلاته إلى المشرق أحضر معه كتابًا لـ«أبي بكر بن أبي شيبة»، وهو كتاب في الحديث، وفتاوى الصحابة والتابعين، وقد أنكر أهل الرأي في الأندلس هذا الكتاب، بل واستشنعوا ما وُجِدَ فيه حتى إنهم منعوا من قراءته، كما أنهم جرَّأوا العامة على «بقي بن مخلد»، موضحين لهم أن بهذا الكتاب الذي أحضره معه من المشرق مسائل منكرة لا تصح في حق الصحابة، فانقلب الناس على «بَقِي بن مخلد»، وبمجرد أن سمع الأمير «محمد» بالأمر، أمر رجاله بإحضار «بقي بن مخلد» ومعه الكتاب، إضافةً إلى أمره بإحضار مَنْ قاموا بالاعتراض واستنكار ما احتواه هذا الكتاب بين دفتيه، وعندما حضر الجميع أخذ الأمير الكتاب وتصفحه جزءًا جزءًا، حتى وصل إلى آخره، وقد ظن المتواجدون في المجلس أنه يوافقهم الرأي في الاعتراض على ما فيه، إلا أنه بمجرد الانتهاء من تصفحه، طلب حضور خازن

---

(١) هذا لا يعنى أنهما أول مَنْ أدخلا الحديث إلى الأندلس، حيث كان أول مَنْ أدخل الحديث إلى الأندلس، هو صعصعة بن سلام الشامى.

الكتب، وأمره بوضع هذا الكتاب في المكتبة، كما أمره بانتساخ نسخة شخصية له منه، موضحًا له أن مثل هذا الكتاب لا ينبغي أن تخلو منه مكتبته، ثم وجَّه كلامه لـ«بَقِي بن مخلد»، مبلغـًا له أن يقوم بنشر علمه، وأن يجلس للحديث إلى الناس حيث أراد، ومنع أن يتعرض له أحد حيثما حل وحَدَّث.

كان بَقِيُّ بن مخلد يعلم للأمير محمد قدره، حيث قال عنه: «ما كلمت أحدًا من ملوك الدنيا أكمل عقلًا ولا أبلغ فضلًا من الأمير محمد، دخلت عليه يومًا في مجلس خلافته، فافتتح الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر الخلفاء خليفةً خليفةً، فحلَّى كل واحد منهم بتحليته ووصفه بصفته، وذكر مآثره ومناقبه بأفصح لسان وأبلغ بيان، حتى انتهى إلى نفسه، فسكت.»

هذا لا يمنع من ذكر أن الأمير «محمد» عندما تسلم مقاليد الدولة تركها بيد أحد أعظم وزرائه آنذاك ويُدْعَى «هاشم بن عبد العزيز»، وكان من الرجال الذين حازوا الرياسة، فعَظُمَ قدره لدى الأمير «محمد»، فقدمه على جميع رجاله، وجعله من أخص وزرائه بل على قمتهم، وكان من سمت هذا الوزير الشخصية أنه كان دائم اللجوء إلى حياكة المكائد والدسائس، ناهيك عن استغلاله الخصومات بين العباد فيؤججها في سبيل الوصول إلى مبتغاه، وخدمة مصالحه والكرسي الذي يجلس عليه، وكان من الوزراء المستبدين، الحقودين الذين لا يهمهم سوى السلطة والجاه ومصالحهم؛ مما أدى إلى إساءته استخدام سلطاته في الدولة فضلاً عن سوء أخلاقه التي كَرَّهَتْ فيه

الجميع حتى مَنْ هم تحت إمرته، وقد حدث أن خرج ذات مرة إلى غرب الأندلس للقيام بقمع ثورة قامت هناك، فأساء وضع الخطط، ناهيك عن سوء معاملته مع الجند مما أدى إلى قيام الجند بتسليمه للثوار فأُخِذَ أسيرًا، ثم قام الأمير «محمد» بفدائه بأموال عظيمة.

كما حدث أن أرسله الأمير «محمد» مع ابنه المنذر إلى ثغر سرقسطة، فأساء الأدب مع المنذر مما أدى إلى كرهه له وحقده عليه؛ لذلك عندما تولى المنذر أمور الدولة عقب وفاة والده، كان همُّه الأول - وإن شئت فقل: الأوحد آنذاك - هو الانتقام من هذا الوزير؛ لذلك أمر رجاله أن يقبضوا عليه، ففعلوا وقيَّدوه بالحديد، ثم سُجِنَ وأذاقه ألوان وأشد أنواع العذاب، وذلك بعد أن ذَكَّرَه بما اقترفه معه من سوء أدب وتقليل شأن، وفي النهاية أخذه المنذر إلى دار كان الوزير «هاشم» قد بناها على أشد ما تكون من فخامة وأُبَّهة، وكان يعلق عليها كل أمانيه وآماله، فقام المنذر بقتله فيها، ثم فتك بأولاده ولم يراعِ حرمة لأيٍّ من أهله أو ممن ينتمون له بصلة.

محنة ابن مخلد:

عاد العلامة الجليل «بَقِيُّ بن مخلد» إلى الأندلس من رحلته الطويلة إلى المشرق بعلوم واسعة ومتباينة، ناهيك عن الروايات والاختلافات الفقهية، وجلس في قرطبة يحدِّث بما في جعبته من علوم وآداب وفنون؛ لذلك لم يكن له أن يحرم حاقدًا أو حاسدًا من بعض علماء قرطبة وفقهائها؛ هؤلاء العلماء والفقهاء الذين طُبِعوا على الحفظ والتقليد دون إعمال للعقل والفكر، فكيف يروق لهم

ما أتى به «بَقِيُّ بن مخلد» من رحلته المشرقية من آراء واختلافات فقهية؟!

والجدير بالذكر، لم يكن اتهام البعض من العلماء والفقهاء لبَقِيٍّ بالزندقة عن علم وفقه، بل لم يكن هذا إلا من قبيل الغيرة منه والحسد، وقد فَسَّرَ لنا ذلك صاحب «البيان المغرب» قائلًا: «**لما قدم بَقِيُّ بن مخلد من المشرق عن رحلته الطويلة بما جمع من العلوم الواسعة والروايات العالية والاختلافات الفقهية، أغاظ ذلك فقهاء قرطبة أصحاب الرأي والتقليد، الزاهدين في الحديث، الفارِّين عن علوم التحقيق، المقصرين عن التوسع في المعرفة، فحسدوه، ووضعوا فيه القول القبيح عند الأمير حتى ألزموه البدعة، وشنَّؤوه إلى العامة، وتخطى كثير منهم برميه إلى الإلحاد والزندقة، وتشاهدوا عليه بغليظ الشهادة، داعين إلى سفك دمه.**»

كان من نتائج ما سبق أن طعن هؤلاء العلماء والفقهاء في بَقِيِّ بن مَخْلَد بين العامة واتهموه بالبدعة والزندقة – الإلحاد –، وكان هدفهم من ذلك هو ثورة العامة عليه ومن ثَمَّ إهدار دمه، ولم يكتفوا بذلك بل رفعوا أمره إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، وقالوا في حقه كل ما يدفع الأمير إلى سفك دمه، بل أغروه أن يُسْرِعَ في الحكم عليه، وكان من جراء ذلك أن امتلأ «ابن مخلد» بالخوف، وفكر في الفرار من الأندلس إن استطاع، إلا أنه تراجع وفكر في اللجوء إلى الوزير هاشم بن عبد العزيز، فذهب إليه وحكى له أمره واتهام الناس له، وطلب منه أن يرفع أمره للأمير محمد، وأن يجمع بينه وبين من

اتهمه من العلماء حتى يناظرهم، لعل الله - جل وعلا - يُظْهِر براءته أمام الجميع.

انصاع الوزير هاشم بن عبد العزيز لطلب بَقِي بن مخلد ورفع أمره إلى الأمير محمد، وقد وصف المؤرخون فعل الوزير مع ابن مخلد قائلين: «**فألقى الله في نفس هاشم الإصغاء إلى شكواه، والاعتناء بأمره، فشمَّر له عن ساعده، وأوصل كتابه إلى الأمير محمد بشرح حاله**»، وبالفعل عقد الأمير محمد مناظرة بين بَقِيِّ بن مخلد ومن اتهمه من العلماء والفقهاء بالتهم آنفة الذكر، وقدَّر ربنا - جل وعلا - ظهور بَقِي بن مخلد عليهم، فأمَّنه الأمير محمد وحذر أن يمسَّه أحد بسوء، وأخبره أن ينشر علمه في ربوع الأندلس متى شاء وأين شاء.

قد يكون من فضل الله - جل وعلا - عليك أن يُسَخِّر لك من يصغي لشكواك، ويحاول جاهدًا أن يساعدك في تجاوز هذه المحنة التي أنت بصددها، وأنت الذي خُيِّل لك أن جميع الأبواب قد أُوصدت في وجهك ولا سبيل لفتحها، فإذا بالله - جل وعلا - يفتح لك أبوابًا لم يُخَيَّل لك أن تستطيع النظر لما في داخلها، فضلاً عن أن تدخل منها!

الشاهد: وما يعلم جنود ربك إلا هو، فقد يسخِّر لك الله - جل وعلا - السبل والطرق من حيث لا تحتسب أنت أو يحتسب مَنْ هم حولك؛ لذلك نَحِّ الكتاب جانبًا وتدبر وتفكر وتذكر كم عدد المواقف التي تعرضت لها وكان من نتائجها أنْ ضاقت بك الدنيا ولم تجد لك مخرجًا، وإذ بك تجد من يسخره الله - جل وعلا - لك ويُعينك على أمرك.

والجدير بالذكر أن عقب هذا الموقف من قِبَلِ الوزير هاشم بن عبد العزيز سأل أحد أعلام قرطبة أسلم بن عبد العزيز، فقال له: «**هل كان بين بَقِيٍّ وبين أخيك هاشم خلطة - معرفة أو صحبة - قبل أن يعرض له ما عرض**»، فقال له أسلم: «**لا، وإنما كان سبب معرفته أن أخي كان يحضر في مسجد فطيس، فيمر بَقِيٌّ بالمسجد مغطيًا رأسه، فيخرج الصبيان ينظرون إليه ويقولون (بَقِي الزاهد)**»، وأضاف أسلم أن أخاه قال له: أنا أعرفه يقال له هذا - بَقِي الزاهد - وأنا صبي إذ ذاك.

لم يكتفِ أسلم بما ذكره للرجل الذي سأله عن سر العلاقة بين بَقِيٍّ والوزير هاشم، حتى يسعى هاشم ويجتهد في سبيل مساعدته للخروج من محنته، بل استطرد في الحديث فقال: «**كان بَقِيٌّ عند أمي متخفيًا ما بين العشر يومًا إلى العشرين، فكان يصوم النهار ويقوم الليل، ولم يأكل لنا شيئًا، كان إذا حان إفطاره أتى بكعيكات - كعك - من داره، فيأكلها ويشرب الماء، ثم يجمع بين قدميه إلى الصبح، فكانت أمي تقول: إن قومًا يريدون قتل مثل هذا الرجل لقوم سوء**»، ثم أكد أسلم عدم وجود صحبة أو صداقة بين بَقِيٍّ وأخيه هاشم تستوجب هذا السعي من قِبَل هاشم، فقال: «**فلم تكن عناية هاشم به إلا لله - جل وعز - ثم لفضله وزهده وعلمه، لم تكن بينهما خلطة قبل ذلك.**»

مؤلفات ابن مخلد:

كان من أبرز مؤلفات بَقِيِّ بن مخلد «تفسير القرآن»، و«مسند النبي ﷺ»، حتى إن البعض من العلماء كان عندما يتحدث عنه يقول «صاحب التفسير والمسند»؛ أشاد ابن حزم بتفسيره هذا قائلًا: «**أقطع أنه لم يؤلَّفْ في الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير محمد بن جرير ولا غيره**»؛ كما أشاد ابن حزم بمسنده، فقال: «**مسند بَقِيٍّ روى فيه عن ألف وثلاث مائة صاحب ونيِّف، ورتب حديث كل صاحب على أبواب الفقه، فهو مسند ومصنف، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث، وله مصنف في فتاوى الصحابة والتابعين ممن ذكرهم أربى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبة وعلى مصنف عبد الرزاق وعلى مصنف سعيد بن منصور**».

تخيَّل أن يأتي هذا المدح والثناء في حق بَقِيٍّ بن مخلد من ابن حزم الذي عُرِفَ بصرامة لسانه وحزمه، حتى وُصِفَ بأنه وسيف الحجاج شقيقين، فكما أن كثيرًا من الناس لم ينجوا من سيف الحجاج، فكذلك الكثير من العلماء لم ينجوا من لسان ابن حزم الذي شحذه في الحق ولأجل الحق، وليس لأجل عرض من الدنيا أو متاع مصيره إلى زوال.

كما حدث أن حُمِلَ جزء من مؤلف ابن مخلد وهو المسمى بـ «مسند النبي ﷺ» إلى المشرق وعُرِضَ على محمد بن إسماعيل الصائغ، فتعجب مما احتواه هذا المصنف بين طياته من علوم وفنون قائلًا: «**ما اغترف هذا إلا من بحر علم**»، كذلك لبَقِيٍّ بالإضافة إلى «المسند» و«التفسير» العديد من المصنفات.

كما كان هذين المصنفين من أبرز المصنفات التي أدت بالعلماء أن يشيدوا بمصنفاته حيث قالوا فيه: «**صاحب التأليف التي لم يؤلَّفْ مثلها في الإسلام**»؛ وقيل عنه أيضًا: «**صارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام، لا نظير لها، وكان متخيرًا لا يقلد أحدًا، وكان جاريًا في مضمار البخاري ومسلم والنسائي.**»

ثناء العلماء على ابن مخلد:

تحدث ابن حزم عن تفسيره قائلًا: «**أقطع أنه لم يؤلَّفْ في الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير محمد ابن جرير ولا غيره**»، وقال في موضع آخر: «**فصارت تصانيف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام، لا نظير لها، وكان متخيرًا لا يقلد أحدًا، وكان جاريًا في مضمار البخاري ومسلم والنسائي**».

كما أشاد به صاحب الجذوة قائلًا: «**من حفاظ المحدثين، وأئمة الدِّين، والزُّهاد الصَّالحين، رحَلَ إلى المشرِق، فروى عن الأئمة وأعلام السُّنة، وكتب المصنفات الكبار والمنثور الكثير، وبالغ في الجمع والرِّواية، ورجَعَ إلى الأندَلس، فمَلأها عِلمًا جمًّا، وألَّف كتُبًا حِسانًا، تدُلُّ على احتفالِهِ واستكثارِه**».

كذلك تحدَّث قاسم بن أصبغ عن بَقِيٍّ فقال: «**خرجت من الأندلس ولم أروِ عن بَقِيٍّ شيئًا، فلما دخلت العراق وغيره من البلدان سمعت من فضائله وتعظيمه ما أورثني ندمًا على ترك الرواية عنه، وقلت: إذا رجعت لزمته حتى أروي جميع ما عنده، فأتانا نعيه ونحن في طرابلس.**»

وما أكثر الشخصيات ذات القيمة والقامة الأخلاقية والعلمية والتي لا يعرف أهلها وبني جلدتها قيمتها إلا بعد انتقالها من الأرض متجهة صوب السماء، بل قد لا يعلمون قيمتها أبدًا.

علاقة ابن مخلد بأساتذته الذين أخذ عنهم العلم:

كان من المواقف التي تعرَّض لها بَقِيٌّ بن مخلد خاصة بأساتذته الذين أخذ عنهم العلم، أنه بعد أن وضع «مسنده»، جاءه عبيد الله وإسحاق ابنا يحيى بن يحيى الليثي، وقالوا له: بلغنا أنك وضعت مسندًا قدَّمت فيه أبا مصعب ويحيى بن بُكير وأخَّرت أبانا، فقال لهم بَقِيٌّ: أما تقديمي لأبي مصعب فإني قدمته لقول رسول الله - ﷺ -: «**قدِّموا قريشًا ولا تَقَدَّموها**»، وأما ابن بكير فإني قدمته لسنِّه، وقال النبي ﷺ: «**كبِّرْ كبِّرْ**»، كما أنه سمع «الموطأ» من مالك سبع عشرة مرة، ولم يسمع أبوكما إلا مرة واحدة، قال بَقِيٌّ: «**فخرجا عني، ولم يعودا إليَّ بعد ذلك، وخرجا إلى حد العداوة.**»

أعد قراءة الموقف ألا ترى أو تشعر وكأنك تقرأ موقفًا خاصًّا بعصرنا، فما أكثر من يتعصب لأبيه أو أخيه أو أمه أو أخته أو عائلته، وهذا يدل على أن النفوس البشرية لا تختلف باختلاف الأزمان والأماكن، فكما قال الشاعر:

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيبٌ سوانا
نهجو ذا الزمان بغير ذنب
ولو نطق الزمان لنا لهجانا

علاقة ابن مخلد بتلاميذه وطلابه:

كان بَقِيُّ بن مخلد دائم النصيحة لتلاميذه بهدف شحذ هممهم في سبيل طلب العلم، فكان من جملة وصاياه لهم: أنتم تطلبون العلم، أهكذا يُطْلَب العلم؟! إنما أحدكم إذا لم يكن عليه شغل يقول: أمضي أسمع العلم، إني لأعرف رجلًا تمضي عليه الأيام في وقت طلبه للعلم لا يكون له عيش إلا من ورق الكرنب الذي يلقيه الناس، وإني لأعرف رجلًا باع سراويله غير مرة في شرى كاغد حتى يسوق الله عليه من حيث يخلفها.

بمعنى أنكم تطلبون العلم في وقت فراغكم، وقت لا تجدون فيه شيئًا تقومون بفعله، فتذهبوا لطلب العلم، وإنما طلب العلم لا يكون هكذا، فالعلم إن لم تعطه كلك لن يعطيك بعضه؛ لذلك يجب عليك أن تتفرغ له قلبًا وقالبًا، وبالطبع هذا لا يعني أن ينشغل الناس عن أشغالهم ولا يسعون في طلب أرزاقهم، وإنما يعني أن يكون اهتمامك بالعلم وشغفك به مثل اهتمامك بمثل هذه الأمور والأساسيات.

كذلك من المواقف التي لا بد من ذكرها عن بَقِيٍّ بن مخلد أن أحد تلاميذه بعد أن أصبح من العلماء المشار إليهم بالبنان روى موقفًا حدث له معه، فقال: إنه صعد ذات يوم إلى بَقِيٍّ بن مخلد وهو في صومعة مسجده يصلي، فلما انتهى من الصلاة، ذكر له أنه يريد أن يتعلم من علمه، وهنا لاحظ أن قَسَمَات وجه ابن مخلد تغيرت وعلاها تعابير الغضب، ففطن التلميذ لسبب ظهور الغضب على ملامح ابن مخلد، فأعاد عليه مقالته قائلًا: أريد أن أقتدي بك، فلما قال له ذلك تهلَّل وجه بَقِيٍّ وقال له: «**منذ قدمت من المشرق أختم القرآن في كل**

يوم وليلة شتاءً وصيفًا، سوى قراءتي للعلم وشهودي الجنائز ومشيي في حوائج الناس»، ثم أردف التلميذ الذي أضحى عالمًا روايته تلك قائلًا: إن بَقِيًّا ذكر أعمالًا أخرى من البر كان يحرص على القيام بها إلا أني لا أتذكرها نظرًا لتقادم الزمن على هذا الموقف.

بتدبرنا لهذا الموقف نحصل على الكثير من المعاني والفوائد التي نحن في أمسِّ الحاجة إليها، فالعالم لم يُرِدْ من تلميذه أن يأخذ منه العلم فحسب، فيكون شخصًا أجوف، ليس للعاطفة والوجدان والروح لديه مكان، وإنما أراد منه أن يفكر في القدوة العملية التي قد لا يجدها عند أي أحد، أما العلم قد يجده في الكتب أو عند الكثير من أعلام العصر آنذاك.

تدبر أيضًا فطنة التلميذ الذي بمجرد أن انتبه لتغير ملامح أستاذه؛ أدرك الخطأ الذي وقع فيه، وشرع في تغيير أسلوب مطلبه، أيضًا تدبر ما كان يحرص عليه بَقِيٌّ من العبادات القلبية ويجتهد فيها كاجتهاده في طلب العلم وتحصيله.

كما رُوِيَ عن بَقِيٍّ بن مخلد أنه كان يسير مع طلابه وتلاميذه في أزقة قرطبة، فإذا مَرَّ بشخص ضعيف محتاج، ورأى رداءة ما عليه من ملابس، خلع له ما يرتديه وأعطاه إياه كرمًا منه وشفقة عليه، وكان يهدف من ذلك إلى أن يعطي درسًا عمليًّا لطلابه في الشفقة بالناس والرأفة بهم.

علاقته بمن حوله من عامة الناس:

كان مما امتاز به بَقِيُّ بن مخلد أنه لم يكن يرد أحدًا طلب منه مساعدة، بل كان يجتهد في تلبية مطلبه ومساعدته، فرُوِيَ عنه أنه كان هناك رجل له مظلمة لدى والي إشبيلية آنذاك وهو المنذر بن عبد الرحمن بن الحكم، فذهب مع صاحب المظلمة إلى الوالي في إشبيلية مشيًا على الأقدام حيث كان حينها في قرطبة، وفعل نفس الشيء مع آخر وذهب معه إلى إلبيرة مشيًا على الأقدام أيضًا، وهذه المساعدة من قِبل بَقِيٍّ للناس لم تكن خاصة بالضعفاء أو من تربطهم به علاقة قرابة أو صداقة أو حتى مجرد معرفة، بل كان يبذل مساعدته لكل الناس دون استثناء، فحدث أن كان لرجل ممن شهدوا على بَقِيٍّ بن مخلد بالزندقة وتَبَنِّي الآراء والأقوال المضللة حاجة، فذهب يطلبها من محمد بن وضاح، فأشار إليه ابن وضاح أن يذهب إلى بَقِيٍّ بن مَخْلَد ولن يرد طلبه، فقال له الرجل: كيف له أن يساعدني مع فعلي معه؟! فأكد له ابن وضاح أنه سيساعده، فذهب الرجل إلى بَقِيٍّ وابتدأ كلامه معتذرًا عما بَدَا منه بشأن شهادته ضده، فقاطعه ابن مخلد وطلب منه أن يذكر ما يريد، فذكر له أن له قريبًا في السجن يريد منه أن يساعده في أن يفرج عنه، فقام بَقِيٌّ معه على الفور، ودخل على صاحب المدينة المسؤول عن السجن، وطلب منه إطلاق سراح الرجل، ثم خرج وانتظر بباب السجن حتى تم إطلاق صراح الرجل المسجون.

ليست البطولة والأخلاق أن تعطي هذا وتساعد ذاك ممن هم منك بمرتبة اللحم والعظم، وإنما تتجسد البطولة بأسمى معانيها

والأخلاق بقمة رقيها أن تعطي وتساعد من طعنوك يومًا ما، ولكن حدث أن أجبرتهم الظروف على طَرْقِ بابك؛ فتذكر أنه ليس من الأخلاق بحال أن تردَّهم.

إلا أن مثل هذه المواقف النيرة من قِبَل بَقِيٍّ بن مخلد لا تعني أنه لم يكن يعادي أو يحمل على أحد، بما يحمله في داخله من طبائع النفس البشرية، بل كان يحمل في قلبه على محمد بن وضاح الذي شهد عليه، وكان يتملَّكه الضيق من تلاميذه الذين يذهبون للأخذ من ابن وضاح، وكذلك كان شأن ابن وضاح معه.

والجدير بالذكر أنه كان لمحمد بن وضاح ابنٌ يذهب متخفيًا للأخذ عن بَقِيٍّ حتى لا يعلم به أبوه، وحدث أن مات هذا الابن، فطلب بَقِيٌّ بن مخلد من أحد أصحابه أن يذهب إلى دار ابن وضاح فإذا خرج بنعش ولده، يأتي على الفور ويخبره، ففعل الرجل مثلما قيل له، وفور خروج النعش هرول إلى «بَقِي» وأخبره، فخرج «بَقِيٌّ» ووقف أمام النعش ودعا للولد بالعفو والمغفرة، ثم قال: «**وأما للحي - يقصد محمد بن وضاح - فلو مات ما حضرت جنازته**»، فقال له بعض أصحابه: «**مثل محمد بن وضاح لو مات لم تحضر جنازته؟!**» فقال بقيٌّ: «**لا والله، وكيف أحضر جنازة رجل بات معي طول الليل يشجعني ويقول: «ارتقِ - احمل - هذا الأمر، فبك أرجو ظهوره»، ثم يصبح فيشهد عليَّ؟!**

إلا أن ما كان يحمله ابن مخلد في قلبه اتجاه ابن وضاح لم يكن يمنعه أن يدافع عن عرضه، فقد حدث أن ذكر أحدهم كلامًا سيئًا عن ابن وضاح، وعندما سمعه ابن مخلد قال له: «**يا هذا، لا تأتنا بمثل**

هذه الأخبار لعل محمد بن وضاح قد قال ما تقول أو لعله لم يقل أو لعله تكلم بكلام فزدت فيه عليه، فإن كان حقًّا ما تقول فستجتمع معه بين يدي الله عز وجل غدًا، فلا تَعُدْ إلى شيء من هذه الأخبار.»

أيضًا من المواقف التي رُوِيَت عنه والتي تدل على فضله أن امرأة جاءته فقالت له: إن ابني قد أسرته الفرنج، وإني لا أنام الليل من شوقي إليه، ولي دُوَيرة أريد أن أبيعها لأفْتَكَّهُ بها، فإن رأيت أن تشير إلى من يأخذها ويسعى في فكاكه، فليس لي ليل ولا نهار، ولا صبر ولا قرار، فقال: نعم، انصرفي حتى ننظر في ذلك الأمر إن شاء الله؛ وفور أن ذهبت المرأة شَرَعَ ابن مخلد في الدعاء ليفكَّ أسر ابنها، فما كان غير قليل حتى جاءت وابنها معها، وقالت المرأة لبَقِيٍّ: اسمع خبره يرحمك الله تعالى، فسأله بقيٌّ: كيف كان أمرك؟! فقال الابن: إني كنت فيمن يخدم الملك ونحن في القيود، فبينا أنا ذات يوم أمشي إذ سقط القيد من رِجْلي، فأقبل عليَّ الموكل بي فشتمني، وقال: فككت القيد من رجليك، فقلت: لا والله، ولكن سقط ولم أشعر، فجاءوا بالحداد فأعاده، وسَمَّر مسماره وأيَّده، ثم قمت، فسقط أيضًا، فسألوا رُهبانهم، فقالوا: ألك والدة؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنه قد استُجيب دعاؤها له، فأطلِقُوه، فأطلقوني، وخفروني إلى أن وصلت إلى بلاد الإسلام، فسأله بَقِيٌّ عن الساعة التي سقط القيد من رجليه فيها، فإذا هي الساعة التي دعا له فيها.

هذه كانت أبرز المواقف التي تعرَّض لها بَقِيٌّ بن مخلد في رحلته لطلب العلم، ثم في رحلة تصدره لتدريس هذا العلم ونشره، ولمن أراد المزيد فليرجع لما تمت الإشارة إليه من المصادر والمراجع

التي تحدثت عن هذه الشخصية التي كانت من أبرز الشخصيات الأندلسية التي سُطِرَت سيرتها ومسيرتها العلمية والأخلاقية في التاريخ بحروف النور.

توفِّي بَقِيٌّ بن مخلد في سنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م، بعد رحلة طويلة عريضة في مشارق الأرض ومغاربها محصلاً للعلوم، ثم ناشرًا لها، حتى بلغت شهرته الآفاق، وكان إمامًا زاهدًا صوامًا كثير التهجد ومجاب الدعوة.



الزهراوي

(الرائد الأول في علم الجراحة)

في كتابه «حضارة العرب»، قال المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون: «إن الطب مَدِين للعرب بالعقاقير ووصف الأمراض وأنواع الدواء، وإن علم الجراحة مدينٌ للعرب في كثير من مبتكرات الأساسية وليس أفضل من استعراض تاريخ عالم العرب الأعظم أبي القاسم الزهراوي للتدليل على ما وصل إليه العرب من تقدم علمي مذهل»، فمَنْ هو هذا العالم الطبيب، عميد الجراحين الذي كرمه العالم وغفل عنه أهل حضارته؟

أبو القاسم الزهراوي خلف بن العباس الأنصاري الزهراوي من أشهر أطباء قرطبة خاصة والأندلس عامة، بل أضحى آنذاك من أشهر الأطباء في العالمين: الإسلامي والأوربي سواء، وُلِدَ في قرطبة وفي مدينة الزهراء تحديدًا؛ لذلك صار يُنْسَب إليها فيُقال: الزهراوي، هذه المدينة التي بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر، وجعلها عاصمة له، وأسَّس فيها كل ما يمكن أن يؤسَّسَ في المدن، فكان من جملة ما جعل فيها مستشفى لعلاج المرضى.

نشأ الزهراوي في قرطبة عاصمة الأندلس آنذاك في زمن ازدهرت فيه الحياة بكافة أطيافها، خاصة من الناحية العلمية والثقافية والفكرية، حيث برع في هذه الفترة جملة من العلماء والفقهاء والمفكرين الذين أَثْرَوا بعلومهم وآدابهم وفنونهم الحياة العلمية؛ مما جعل قرطبة في مصاف المدن الإسلامية الكبرى مثل: القيروان والإسكندرية وبغداد؛ هذه النشأة وهذا الجو العام أو بالأحرى العلمي الذي أحاط بالزهراوي أَهَّلَه أن يُصبح فيما بعدُ من مشاهير العلماء الذين أضاؤوا بعلومهم سماء قرطبة.

كان من نتائج المناخ والبيئة التي عاش في كنفها الزهراوي أن أصبح من أهل الفضل والدين والعلم، ومن هنا كَرَّسَ حياته لعلاج المرضى ولم يبخل بعلمه على الأطباء من بعده، حيث كان يخصص نصف نهاره لمعالجة المرضى مجانًا قربة لله تعالى، وكان يتابع حالات المرضى ويُدَوِّن الملاحظات السريرية، وهي الخبرة التي أصبحت فيما بعدُ مرجعًا للأطباء في العالم كله.

رغم أن الزهراوي يُعَدُّ من العلماء القرطبيين الموسوعيين نظرًا لما حرص على طلبه وتحصيله من العلوم المختلفة والمتباينة سواءً الشرعية أو اللغوية أو العلمية، إلا أن العلم الذي برع فيه هو علم الطب، خاصة علم الجراحة، هذه البراعة وهذا الشغف الذي احتوته جنبات الزهراوي بهذا العلم مَكَّنَه أن يضيف له الكثير من الإضافات التي نقلت الطب آنذاك نقلة نوعية، بل إن هذه الإضافات لا زالت الأساس الذي بُنِيَ عليه علم الجراحة حتى يوم الناس هذا.

تدرَّج أبو القاسم الزهراوي في قرطبة، حيث تلقى تعليمه في مستشفى الزهراء التي أسَّسها الخليفة الناصر، وفيما بعدُ استطاع الزهراوي أن يضيف للطب إضافات هامة جدًّا، ومنها: أن الناس قديمًا - الأطباء على وجه الخصوص - كانوا يأنفون من أن تمسَّ أيديهم الدم، فكانت بعض المهن كالحجامة والتوليد لا يقوم بها إلا الحجامون أو غيرهم ممن يجري مجراهم، فلما جاء أبو القاسم الزهراوي حمل لواء الجراحة، فكان أعظم جراح عرفته البشرية ليس لكونه حاز أشياءً لا يحوزها غيره، فقد جاء مَنْ بعده ممن قد يفوقه أحيانًا، لكن ما يميز الزهراوي أنه وضع اللبنة الأولى لطب الجراحة، فكيف كانت إسهامات الزهراوي في طب الجراحة؟

كانت الجراحة تحتل مكانة راقية واحترامًا كبيرًا في العالم الإسلامي كما نبه على ذلك المؤلف الكبير كاميل في كتاب الطب العربي، حيث قال: «**كانت الجراحة في الأندلس تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس أو لندن أو إدنبره؛ ذلك أن ممارسي مهنة الجراحة في سرقسطة كانوا يُمْنَحون لقب طبيب جراح، أما في أوروبا فكان لقبهم حلاقًا جراحًا، وظل هذا التقليد ساريًا حتى القرن السادس عشر الميلادي.**»

استعملت النهضة الأوربية مؤلفات علماء المسلمين العلمية - ومن بينها مؤلفات الزهراوي - كمراجع رئيسة لا يمكن الاستغناء عنها، وقد كان لمصنف الزهراوي في الجراحة أثره الكبير في أوربا حتى القرن الثامن عشر الميلادي، ولُقِّبَ الزهراوي بأبي الجراحة بين أطباء عصره؛ لما قدمه من عمل عظيم وقَيِّم في هذا الحقل؛

لذلك يقول الدوميلي في كتابه العلم عند العرب: إن «**الزهراوي أشهر أطباء الأندلس في ذلك العصر، بل من أعظم أطباء المسلمين أيضًا، وربما كان الزهراوي أعظم الجراحين العرب والمسلمين على وجه الخصوص.**»

حَوَّل الزهراوي الجراحة من مجرد حرفة يزاولها الحجامون والحلاقون إلى علم وثيق الصلة بالطب، وقائم على التشريح وفق أسس علمية مجربة؛ لذلك كان الزهراوي دائمًا ما ينصح المهتمين بدراسة الجراحة بأن يتعمقوا في دراسة علم التشريح ويتدربوا عليه قبل مزاولتهم لمهنة الطب، وذلك حتى يكونوا على علم بالأعضاء وأشكالها وتركيبها وارتباط بعضها ببعض، كذلك حتى يكونوا على اطلاع تام بالعظام والأوتار والعضلات ومواقعها والاتصالات فيما بينها.

حذر الزهراوي الأطباء من إجراء العمليات الجراحية إذا لم يكونوا مُلِمِّين بصغار الأمور وكبارها في استعمال الآلات الجراحية وتفننهم في التشريح، يتضح هذا مما ذكره في كتابه، حيث قال: «**يتعرض للوقوع في الأخطاء التي تؤدي إلى الموت كما رأيت ذلك يحدث للكثيرين**»، واستعمل الزهراوي الكي في كثير من الحالات، لكنه لم يقلل من أهمية وفائدة العلاج بالعقاقير، فهو بهذا الطبيب الناضح الذي يحاول أن يصل إلى علاج المريض بأي طريقة ممكنة؛ ولذا فقد رفع الزهراوي شأن الجراحة وجعلها فرعًا طبيًّا خاصًّا ذا مكانة سامية بين فروع الطب الأخرى، ولا غرابة على الإطلاق إذا نعته أصحاب الخبرة في الطب بأبي الجراحة.

ليت أطباء اليوم اطلعوا على هذه النصائح حتى يسلم من تحت أيديهم الكثير من المرضى الذين أصبحوا ضحية لأخطائهم الطبية الفادحة، هذه الأخطاء التي أنهت حياة البعض فعليًّا، وأنهت حياة البعض الآخر صوريًّا؛ بما سببته أخطاؤهم الطبية من عاهات مستديمة.

ابتكارات وإبداعات الزهراوي في الطب:

كان الزهراوي أول مَنْ ربط الشرايين والأوعية الدموية بالخيوط الحريرية لوقف النزيف أثناء الجراحة، كما استحدث طريقة خياطة الجروح بإبرتين وخيط واحد؛ كذلك كان الزهراوي أول من استخدم الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوان في خياطة الأمعاء.

أيضًا هناك من ابتكارات الزهراوي ما اختص بجراحة المسالك البولية، حيث كان الزهراوي أول مَنْ وصف طريقة تفتيت حصيات مجرى البول؛ لذلك نجده يَشْرَع في نصيحة الجراحين في كتابه الزاخر «التصريف» بالأسلوب الملائم لاستخراج حصاة المثانة الكبيرة، هذا الأسلوب الذي يعتمد على تكسيرها بالكلاليب وإخراجها جزءًا جزءًا.

كذلك طَوَّرَ الزهراوي جراحة شق القصبة الهوائية، ففي كتابه «التصريف» نجد فصلًا عن الاختناق شرح فيه الزهراوي كيفية إجراء الجراحة على أساس التطوير الذي أدخله عليها، وذكر أنه أجراها على الماعز ثم تابع حالته، فتوصَّل لأول مرة إلى إمكانية

التئام غضاريف القصبة الهوائية التئامًا تامًّا بعد نجاح الجراحة وتمام الشفاء؛ إلا أن هذه الجراحة في واقع الأمر ابتكرها المصريون القدماء لإنقاذ المصابين بحالة الاختناق الحنجري، ثم أخذها عنهم الإغريق ودوَّنوها في مؤلفاتهم، إلا أنهم تراجعوا عن إجرائها لخطورتها وارتفاع نسب الوفاة بين مَنْ تُجْرَى لهم، حتى إنهم جرَّموا إجراءها.

رغم أن هذه الجراحة قد تطورت الآن بدرجة كبيرة، فما زالت تجري وفقًا للأسس التي وضعها الزهراوي، ولعل أكثر ما يوضح براعة الزهراوي وتميزه في إجراء هذه الجراحة في زمن لم يكن فيه معامل حديثة مرتبطة بالأجهزة والتكنولوجيا، أن الرئيس الأمريكي الأول «جورج واشنطن» أصيب عام ١٧٩٩م – أي بعد عامين من تقاعده عن الرئاسة – بالاختناق الحنجري، هذا الاختناق الذي لم يمهله سوى يوم واحد ثم وافته المنية؛ وذلك لأن طبيبه كان يجهل جراحة شق القصبة الهوائية التي كان الزهراوي يجريها قبل ذلك بثمانية قرون، كما أنه لم يكن على علم بأنبوبة القصبة الهوائية التي ابتكرها ابن سينا لإنقاذ المصابين بحالات الاختناق[١].

كان الزهراوي دقيقًا في عمله، حيث كان يعقِّم آلاته التي يستخدمها في عملياته الجراحية بمادة صفراء للتأكد من تطهيرها قبل إجراء العملية، وقد أثبت الطب الحديث أن هذه المادة الصفراء تقلل من تواجد البكتريا.

---

(١) محمد غريب جودة: عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية في العلوم الطبيعية والطب، الطبعة الثانية، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤م، ص١١٠.

ابتكر الزهراوي بعض الأدوات الطبية الهامة، مثل: المحقنة الشرجية، والمعدنية، وآلة خفض الحرارة؛ كما ابتكر آلات دقيقة جدًّا لعلاج حالة انسداد فتحة البول الخارجية عند الأطفال الحديثي الولادة، من مشارط وموسعات، وابتكر حقنًا مختلفة لغسيل المثانة، كما وصف مختلف جراحات استخراج الحصوات.

كذلك درس الزهراوي الطب الجاهلي، وأخذ عنه بعض العلاجات والعمليات مثل الكي كوسيلة لعلاج آلام الخلوع والكسور وتسكين بعض الآلام الباطنية الناتجة عن تورم الكبد وكذلك لإيقاف النزيف؛ كما قام الزهراوي بجراحة صابونة الركبة، واستخراج الحصاة من مثانة المرأة، وتوسيع باب الرحم، كما وصف الزهراوي في كتابه «التصريف» بعض طرق الولادة التي ما زالت مُتَّبَعَة في عصرنا الحالي، وأجرى عمليات إخراج سَقْط الأجنة بآلة خاصة، وهو أول من وصف بعض الأوضاع الشاذة للجنين في الرحم، وعمليات البتر، كما عالَجَ بنجاح الشلل الناشئ عن كسر فقرات الظهر، كذلك استطاع تشخيص حالات الشلل الناجمة عن قطع الأعصاب، وأطلق عليها مصطلح «الاسترخاء»؛ كما أنه نجح في استئصال ورم اللحمية من الأنف.

كذلك وضع الزهراوي اللبنة الأولى في مجال جراحة التجميل، فقد عني بأسلوب الجراحة تحت الجلد للوقاية من التشوهات، كما قدَّم أكثر من مئتي مخطط لأدوات طبية اخترعها وصنعها بيده كالمشرط، وخيوط الجراحة المصنوعة من أمعاء القطط؛ لأنها المادة الوحيدة التي تتحلَّل داخل الجسم البشري ولا يلفظها، وهو

أول مَنْ توصل إلى طريقة وقف النزيف بربط الشرايين الكبيرة قبل ابتكار علماء الغرب لها بـ ٦٠٠ عام؛ كذلك كان للزهراوي باع كبير في علاج الأمراض بالكي، حيث قدم نظريات عديدة في علاج الأمراض السرطانية، وهو أول مَنْ أشار إلى تصنيف علاج السرطان باستئصال النسيج السرطاني، وكي الدائرة المحيطة به، حيث كان تعامل الزهراوي مع الأورام السرطانية إما أن يستأصلها تمامًا أو يتركها كلية، الأمر الذي أقرَّه عليه الطب الحديث؛ لأن استئصال جزء من الورم وترك جزء يسبب تفشي المرض ومن ثَمَّ موت المريض.

الخلاصة أن الزهراوي قدَّم طرقًا لعلاج أمراض ما زالت حتى يومنا هذا تعتمد على نظرياته وتجاربه في التوليد والجراحة النسائية وأمراض الفك والأسنان؛ كذلك من إسهامات الزهراوي المتميزة في حقل الطب ما يسمى بـ«وضع ولتر»، ويراد منه ولادة الحوض، حيث سبق الزهراوي «ولتر» في تفصيل هذا الأمر وبيانه، لكن هذا النوع من الطب نُسِبَ إلى «ولتر» ولم يُنْسَب إلى «الزهراوي».

تخيل أن يصل عالم إلى مثل هذه الاكتشافات في زمن لم يكن فيه تكنولوجيا كما هو حال عصرنا الحالي، بل ما يزيد من عظمة الزهراوي أن مخترعي التكنولوجيا والمعتمدين عليها في زماننا لا زالوا يعتمدون على تجاربه ونظرياته باعتبارها الأساس أو اللبنة الأولى التي بُنِيَ عليها علم الجراحة، ولعل هذا يوضح لنا إلى أي مدى يحاول أعداء الإسلام طمس تاريخنا وسيرة عظمائه؛ حتى لا تكون لنا قدوة نقتدي بها أو نموذج نسير على إثره، ويظل سبيلهم إلى ذلك هو تشتيت جيلنا جيل الشباب والفتيات، وإشغاله بتوافه

الأمور وسفاسفها، وتضييع أوقاته في أمور لا تعود عليه بالنفع لا في دنيا ولا دين.

وقد أشادت المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه بإبداعات وابتكارات الزهراوي في كتابها «**شمس الله تسطع على الغرب**»، فكان من جملة ما قالت: «**وقد درس الزهراوي علاج تشويهات الفم والفك باستعماله عقافة (صنابير)، واستئصال العينية أو (البوليب أو الأورام الليفية) في الأغشية المخاطية، ونجح في عملية شق القصبة الهوائية (تراكوتومي)، وقد أجرى هذه العملية على خادمه، ووُفِّقَ أيضًا في إيقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة، محسنًا بذلك عملياته الجراحية، وهو فتح علمي كبير ادعى تحقيقه - لأول مرة - الجراح الفرنسي الشهير أمبرواز باري عام ١٥٥٢م، في حين أن أبا القاسم الزهراوي العربي قد حققه وعلمه قبل ذلك بـ ٦٠٠ سنة، كما أنه علَّم تلاميذه كيفية تخييط الجروح بشكل داخلي لا يترك شيئًا مرئيًّا منها، والتدريز المثمن (نسبة إلى ثمانية) في جراحات البطن، وكيفية التخطيط بإبرتين وخيط واحد مثبت بهما، واستعمل الخيطان المستمدة من أمعاء القطط في جراحات الأمعاء، وقد أوصى في كل العمليات الجراحية في النصف السفلي من الإنسان، أن يُرْفَع الحوض والأرجل قبل كل شيء، وهذه الطريقة اكتسبها الغرب مباشرة عن الجراح العربي واستعملها كثيرًا حتى قرننا هذا، فعُرِفَت باسم الجراح الألماني القدير فريدريك ترند - لنبورغ، ولكن من يذكر أفضال الجراح العربي العظيم؟! وعنه أخذنا أيضًا طريقة ترك فتحة في رباط الجبس في الكسور المفتوحة، وأمدَّ الجراحين وأطباء العيون**

والأسنان الأوربيين بالآلات اللازمة للعمليات بواسطة الرسوم الجديدة التي وصفها.»

يُعَدُّ أبو القاسم خلف الزهراوي رائد علم الجراحة عند العرب في القرون الوسطى، حيث زاول مهنة الطب في أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر الميلاديين، أيام الخليفة الحكم المستنصر وابنه هشام المؤيد، وكان طبيبًا متواضعًا زاهدًا، فقد ذكر أنه كان يخصص نصف نهاره لمعالجة المرضى مجانًا على سبيل الإحسان، ومارس فن التشريح بنفسه لأهميته في تطوير حقل الجراحة.

الزهراوي وعلم الصيدلة:

كان من إسهامات الزهراوي أيضًا ما يتعلق بالصيدلة، فالزهراوي كان يؤمن أنه لا ينبغي أن يقتصر دور الطبيب على تشخيص الأمراض فحسب، بل ينبغي له أن يصف لهم الأدوية المناسبة، والأكثر من ذلك أنه ينبغي على الطبيب أن يكون على علم ودراية بتركيب هذه الأدوية التي يصفها للمرضى، وأضف إلى ذلك أن يكون على علم بكيفية تعقيمها حتى لا تؤدي إلى الضرر والهدف منها النفع، وهذا ما فعله الزهراوي حيث كان يعقم أدويته بمادة صفراء، وقد صار الطب الحديث اليوم يعترف أن هذه المادة الصفراء مطهرة للبكتيريا كما تم الإشارة سابقًا.

بَحَثَ الزهراوي في تحضير بعض العقاقير المعدنية والنباتية والحيوانية وأعطاها أسماءً بخمس لغات هي: اليونانية، السريانية،

الفارسية، البربرية، العربية، وقد اعتمد على المراجع الأجنبية مثل: كتب ديسكوريد وجالينوس وبولس وهران، ومؤلفات أساتذته الأفاضل من علماء المسلمين مثل: الرازي وابن الجزار وابن جلجل وغيرهم، كما تعلم الزهراوي من البتاني -العالم المسلم المشهور- وابن البيطار كيفية صنع الخبز المركب من أجود أنواع القمح، وأيضًا استخراج الزيت من النبات، ويمدح ابن أبي أصيبعة الزهراوي في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، فيقول: «**كان الزهراوي طبيبًا فاضلًا خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج.**»

كان الزهراوي يميل إلى التعقيد في تحضير الأدوية وتعدد عناصرها، بالرغم من أنه قال بأن الوصفات تضم عادةً عددًا كبيرًا من العقاقير المتشابهة بالتأثير؛ لذلك فإن نقصان أحد أفرادها لا يغير بتأثير المجموع، وقد سبقه إلى هذه الفكرة البيروني، كما أن الزهراوي كان أول من استعمل قوالب خاصة لصنع الأقراص الدوائية.

كذلك أَلَّفَ الزهراوي كتابًا في علم الصيدلة وهو: «**أعمار العقاقير المفردة والمركبة**»، كما تحدث في جزء من كتابه الزاخر أو بالأحرى موسوعته الطبية الزاخرة «**التصريف لمن عجز عن التأليف**» عن الأدوية المفردة والمركبة.

مؤلفاته:

كان ولا زال من أشهر كتب الزهراوي: كتاب «**التصريف لمن عجز عن التأليف**»، فيعتبر هذا الكتاب بحق موسوعة طبية، وقد

تُرْجِمَ إلى اللاتينية، وكثر اعتماد الناس عليه في العصور الوسطى، وهو كتاب شامل عن الطب في كافة فروعه، بحيث لا يحتاج مستعمله إلى غيره من الكتب، ويشتمل الكتاب على ثلاثين مقالة تتناول أولاها الأمزجة والأدوية المركبة والتشريح، وتتناول المقالة الثانية الأمراض وأعراضها وكيفية معالجتها، وتتناول بقية المقالات المواد الطبية وإعداد الأدوية واستعمالها والأقراص وغيرها.

لقد أصبح الزهراوي بفضل هذه الموسوعة أستاذ أطباء أوروبا لمدة خمس قرون، حيث كان الكتاب المعتمد في مجال الطب لسهولة أسلوبه وكثرة رسومه للآلات التي تُسْتَعمل في الجراحة آنذاك، ولقد نص الزهراوي في كتابه هذا ما يلي: «**لما أكملت لكم يا بني هذا الكتاب الذي هو جزء العلم في الطب بكماله، وبلغت فيه من وضوحه وبيانه، رأيت أن أكمله لكم بهذه المقالة التي هي جزء العمل باليد؛ لأن العمل باليد (الجراحة) في بلادنا وفي زماننا معدوم البتة؛ حتى كاد أن يندرس علمه وينقطع أثره، والسبب أنه لا يوجد صانع محسن في زماننا هذا؛ لأن صناعة الطب طويلة وينبغي لصاحبها أن يرتاض قبل ذلك في علم التشريح الذي وضعه «جالينوس» حتى يقف على منافع الأعضاء وهيئتها وأمزجتها واتصالها وانفصالها، ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات وعددها ومخارجها، والعروق والنوابض والسواكن ومواضع مخارجها؛ ولذلك قال أبقراط: إن الأطباء بأسماء كثيرة وبأفعال قليلة لا سيما صناعة اليد، وقد ذكرنا عن ذلك طرقًا في المدخل من هذا الكتاب؛ لأنه مَنْ لم يكن عالمًا بما ذكرنا من التشريح لم يخلُ أن يقع في خطأ يقتل الناس به.**»

إلا أن أشهر فصول الكتاب المقالة الثلاثون عن الجراحة، وسرعان ما ذاعت شهرة كتاب (الجراحة) في العالم الإسلامي، وتَرْجَمَ الكتاب إلى اللغة اللاتينية جيرارد الكريموني في طليطلة في أواخر القرن الثالث عشر، وكان للكتاب أثر كبير على الجراحين الإيطاليين ثم الفرنسيين، وعَدَّ بعضهم صاحبه في مرتبة أبقراط وجالينوس.

تُرْجِمَتْ موسوعة الزهراوي من اللغة العربية إلى لغات كثيرة، وفي فترات مختلفة، فمثلًا في عام ٨٩٩هـ/ ١٤٩٥م تُرْجِمَ إلى اللاتينية بالبندقية، وفي عام ٩٣٨هـ/ ١٥٣٢م ظهرت ترجمة أخرى في استراسبرج، وكذلك في عام ٩٥٠هـ/ ١٥٤١م ظهرت ترجمة ممتازة في بال، وكانت من أكثر الترجمات الدارجة تلك التي قام بها جيرارد كريمونا، وقد أجمع المتخصصون في الطب في العصر الحديث أن الزهراوي كان جراحًا ماهرًا ذا خبرة واسعة حصل عليها من ممارسته لفن الجراحة؛ ولذا يعتبر الزهراوي واضع أسس الجراحة الحديثة.

والجدير بالذكر أن الكتاب لم يُتَرْجَمْ بأكمله في وقت واحد، فقد ظهر الجزء الخاص بالعقاقير سنة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م، والخاص بالجراحة سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م، والباطني سنة ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م، وأما الجزء الخاص بأمراض النساء فقد تواجد سنة ٩٧٣هـ/ ١٥٦٦م.

وقد أشاد بهذا الكتاب جورج سارتون في كتابه «**المدخل إلى تاريخ العلوم**»، حيث قال: «**إن خلف بن العباس الزهراوي من مدينة الزهراء قرب قرطبة، ويعتبر أشهر الجراحين المسلمين، وقد كتب**

موسوعة في الطب تتكون من ثلاثين جزءًا سماها «التصريف لمن عجز عن التأليف»، وقد تناول في هذه الموسوعة بعض المواضيع الهامة في الطب، مثل التعقيم والتوليد وعلاج العين والأذن والأسنان واستخراج حصى المثانة بالشق والتفتيت، ووصف علاج الكسور والخلع، وأعطى وصفًا دقيقًا للشلل الناشئ عن كسر فقار الظهر، كما أجرى عمليات عدة لإخراج الجنين الميت من رحم الأنثى.»

منذ مئات السنين عاشت الدولة الإسلامية عصرها الذهبي في الأندلس، وذلك بما أظلَّته سماؤها من علماء وفلاسفة وأدباء وفقهاء كانوا وما زالوا نقاطًا منيرة في التاريخ الإسلامي، هؤلاء الأعلام الذين لم تقتصر تجاربهم ونجاحاتهم على المرحلة التاريخية التي عاشوا فيها، وإنما ظلوا بمثابة الدليل الهادي للسالكين في دروب العلم والأدب والطب والفنون.

لُقِّبَ أبو القاسم الزهراوي بأبي الجراحة، ورغم أنه يُنْسَبُ إليه الفضل في اكتشاف العديد من الأمراض، إلا أن البعض من نظرياته واختراعاته التي توصل إليها بالدراسة والتمحيص والبحث والتجارب مواصلًا الليل بالنهار لم تُنْسَبْ إليه، حتى إنها لم تُنْسَب لنظرائه من أعلام المسلمين، وإنما نُسِبَت لعلماء الغرب الذين ظلوا حتى القرن الثامن عشر الميلادي يقتاتون العلوم والآداب والفنون على يد المسلمين، أضف إلى ذلك أنه رغم استشهاد علماء العرب والمؤرخين بقيمة الزهراوي إلا أن كتب التاريخ الأندلسي لم تُشِرْ إليه إلا من خلال كتابات ابن حزم الذي وصفه بأنه أحد أعظم أطباء الأندلس.

ثناء العلماء القدماء والمُحْدَثين عليه:

يقول ابن أبي أصيبعة: إن الزهراوي «**كان طبيبًا فاضلًا خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج، وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب، منها كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وهو أكبر تصانيفه وأشهرها، وهو كتاب تامٌّ في معناه.**»

أما بالنسبة للعلماء المحدثين الذين أشادوا بالزهراوي، فمنهم: د. مصطفى شحاته، وذلك في مقاله بمجلة الفيصل الطبية، وهو بعنوان: «**الحنجرة وأمراضها في الطب الإسلامي**»، حيث قال عنه: «**ولكن عندما تقدَّم الطب الإسلامي تقدَّمت معه الجراحة حتى وصلت أوجها على يد أبي القاسم الزهراوي في الأندلس في القرن العاشر الميلادي، في وقت لم تكن أوربا تعرف عن الجراحة شيئًا، وبلغ الأمر من تحقير شأن الجراحة وإهمالها أن مدرسة طب مونبيلييه بفرنسا ألغت دراسة الجراحة ومنعت مزاولتها في القرن السابع عشر، وذلك عندما اكتشف الطبيب الفرنسي «لانفرانك» جهل الأطباء الفرنسيين وتأخرهم حين قرأ كتاب الزهراوي وأعجب به، ثم كتب رأيه الذي اتهم فيه كل أطباء فرنسا بالجهل والتأخر، وقال: إنه لا يوجد فيهم جراح واحد عالم بصنعته.**»

أيضًا ممن أشاد بالزهراوي من علماء عصرنا: د. أمين خير الله في كتابه «**الطب العربي**»، حيث كان من ضمن ما قال عن كتاب التصريف: «**ومن يطالع كتابه لا يتمالك نفسه عن الاعتقاد بأنه قد شَرَّحَ الجثث هو نفسه؛ لأن وصفه الدقيق لإجراء العمليات المختلفة لا يمكن أن يكون نتيجة نظريات فقط.**»

لم تقف الإشادة بالزهراوي عند حد علمائنا القدامى أو المحدثين، بل أشاد به أيضًا المستشرقون، ومنهم: «جاك ريسلر» في كتابه «**الحضارة العربية**»، فقال: «**وشرح جراح كبير -يقصد الزهراوي- علم الجراحة، وابتكر طرقًا جديدة في الجراحة، امتد نجاحها فيما وراء حدود إسبانيا الإسلامية بكثير، وكان الناس من جميع أنحاء العالم المسيحي يذهبون لإجراء العمليات الجراحية في قرطبة**»، كما يقول في موضع آخر: «**وكان أبو القاسم الزهراوي يطبق عمليًّا الربط الصناعي لمنع نزف الدم، وجراحة استخراج المياه (الجلوكوما) من العين قبل «أمبرواز باريه» بستة قرون، وكان على معرفة عميقة بمرض بو الذي يُطْلق عليه «تدرن العمود الفقري**»، وفي هذا المعنى يقول الجراح الفرنسي «إميل فورج»: «**كان له الفضل في تلخيص جميع المعارف الجراحية في عصره، وسوف يظل بحثه «التصريف لمن عجز عن التأليف» المنشور فيه مائتا صورة هو التعبير الأول عن الجراحة.**»

ويقول عنه جورج سارتون في كتابه المدخل إلى تاريخ العلوم: «**هو أبو القاسم خلف الزهراوي، أول من نبغ في الجراحة بين العرب، بل هو فخر الجراحة العربية، ثالث الثلاثة من نوابغ العرب، وهم: الرازي وابن سينا والزهراوي، كانوا بمثابة المصابيح التي أضاءت منها أوروبا قناديلها في العلوم الطبية.**»

الزهراوي طُوِيَت صفحته عند العلماء وطُوِيَت صفحته عند الناس فلم يعد له ذكر إلا القليل عند المتخصصين فقط، في اليوم الذي نرى فيه الكثير من الشعوب يشيدون بعلمائه ويبرزون دورهم

في مجال العلم وغيره، إلا أننا قصرنا في حق علمائنا، ما أحوجنا إلى أن نُعَرِّفَ أبناءنا بالزهراوي وبأن نجعل له ذكرًا لبيان دوره في مجال طب الجراحة، نأمل أن نجد في المستشفيات الحكومية أو الخاصة جناحًا من أجنحتها في علم الجراحة مكتوب عليه جناح أبو القاسم الزهراوي، وتوضع تحته نبذة تُعَرِّف بهذا العالم الذي وصفه غير المسلمين من علماء الغرب بأنه من أبرع من تكلم في طب الجراحة في العالم.



ابن حزم الأندلسي[1]

(فارس المناظرات)

ينتمي ابن حزم لأسرة عريقة قال عنها الفتح بن خاقان: «**بنو حزم فتية علم وأدب وثنية مجد وحسب**»، فهو من بيت عريق، تهيأت له حياة الترف وما يتبعها من لهو وركون للدَّعة والراحة، فضلًا عن الانغماس في الشهوات والملذات، لكنه أعرض عن هذه الحياة إنْ صح أن يطلق عليها مصطلح حياة، وتوجه إلى البحث والدرس وطلب العلم، فخالف ما عليه أهل البلاد، وكان كلامه نابعًا من عقله واجتهاده، بمعنى أنه لم يكن مقلدًا لأحد كما كان شأن البعض من التلاميذ في تقليد مشايخهم وأساتذتهم.

لقيت شخصية ابن حزم الظاهري اهتمامًا واسعًا من العلماء والباحثين المتقدمين منهم والمتأخرين، وما ذاك إلا لشهرته،

---

(١) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٣٥٩؛ الحميدي: جذوة المقتبس، ص١٢٦؛ ابن بشكوال: الصلة، ج٢، ص٥٧؛ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ج١٢، ص٢٤٠؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص١٣؛ ابن حزم: طوق الحمامة، ص١٥٤؛ عبد الحليم عويس: ابن حزم الأندلسي مؤرخًا؛ محمود علي حماية: ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان؛ عبد السلام بن محمد بن عبد الكريم: الإمام ابن حزم ومنهجه التجديدي في أصول الفقه؛ عبد المحسن بن محمد الريس: تأصيل ما أنكره ابن حزم على الفقهاء من خلال كتابه الإحكام؛ أحمد بن محمد بن سعد آل سعد الغامدي: القواعد الفقهية عند الإمام ابن حزم من خلال كتاب المحلى، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى؛ عبد الله سالم عبد الله سعيد آل طه: الضوابط الفقهية عند ابن حزم من خلال كتابه المحلى، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى؛ علي بن محمد بن علي باروم: مسالك الترجيح التي ردَّها ابن حزم، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى.

وكثرت مؤلفاته في شتى العلوم والآداب والفنون، وُصِفَ بأنه: **«رَجُل في أمَّة، وأمَّة في رجل، فهو مفسر مع المفسرين، ومحدِّث مع المحدثين، وحافظ مع الحفاظ، وفقيه مع الفقهاء، ومقرئ مع المقرئين، وأصولي مع الأصوليين، ومتكلم مع المتكلمين، وفيلسوف مع الفلاسفة، وحكيم مع الحكماء، وزاهد مع الزهاد، وعابد مع العباد، وداعٍ إلى الله مع الدعاة، وأديب مع الأدباء، ولُغوي مع اللغويين، وكاتبٍ مع الكتاب، وشاعر مع الشعراء، وخطيب مع الخطباء، ومؤرخ مع المؤرخين، ورئيس مع الرؤساء، ووزير مع الوزراء، وحاكم مع الحكام»**، هذه الخصال والمزايا التي وصف بها المؤرخون المتقدمون والمتأخرون فارسَ المناظرات في زمانه ابن حزم الأندلسي؛ إن دلت على شيء فإنما تدل على عظم قدر الشخصية التي نحن بصدد الحديث عنها.

في عام ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م في أحد البيوت المرموقة في قرطبة وُلِدَ علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي، لعائلة اختلف المؤرخون حول نسبها، فالبعض قال بأصولها العربية، والبعض ذهبوا إلى أنها ذات أصول غربية، على أن أغلب المصادر تثبت أو تقول بالنسب الفارسي لأسرة ابن حزم، وأيًّا كان نسبه فهنا لا يهمنا نسب ابن حزم وحسبه بقدر ما يهمنا ما قدمه للأمة الإسلامية من إسهامات جليلة سَطَّرَت سيرته في صفحاتها بحروف من نور، خاصة أن هذا الأمر لم يؤثر على نقده اللاذع للأديان لاحقًا بما فيها الأديان الفارسية، أو بالأحرى العادات أو المعتقدات التي يعتبرونها عبادات وديانات.

أَضِفْ إلى ذلك أن ابن حزم ذاته لم يكن يهتم بمسألة النسب والأصول؛ حيث إنه كان معتدًّا بكونه أندلسيًّا حد التعصب، لكن المشهور أو المعلوم عن أصله أو أصل عائلته أنها اشتركت في الفتوحات الإسلامية على عهد الدولة الأموية، فكان جده الثاني ويُدْعَى خلف ممن دخلوا الأندلس بصحبة الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام (الداخل)، وكان جده هذا من كبار أتباع الداخل ورجاله، حيث كان من أوائل المشاركين في تأسيس دولة بني أمية في الأندلس بعد سقوطها في المشرق.

ما سبق يوضح لنا أن ابن حزم نشأ في بيت له أصالته وتاريخه ومكانته وسمعته، والدليل على ذلك أن العديد من رجالات هذه العائلة تولوا مناصب هامة في الدولة، حتى إن والد بن حزم كان وزيرًا عالي الشأن رفيع المكانة في دولة الحاجب المنصور بن أبي عامر، كما كان منزل والده - أو بالأحرى قصره - ملاصقًا لقصر الحاجب المنصور.

نشأ ابن حزم في قصر والده وأشرف على تربيته النساء والجواري اللاتي ملأن قصر أبيه وأقربائه، فحفَّظنه القرآن الكريم، وعلَّمنه الأدب والشعر، ويذكر هو نفسه هذا الأمر معترفًا بفضل هؤلاء النسوة عليه، إذ يقول: «**لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري؛ لأني رُبِّيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب، وهن علمنني القرآن وروَّينني كثيرًا في الأشعار، ودرَّبنني على الخط.**»

هنا وقفة: نلحظ أن ابن حزم على الرغم مما تبوأه فيما بعدُ من مكانة شخصية وعلمية مرموقة إلا أنه لم يفكر مجرد التفكير في الخجل من ذكر أن أسس مبادئ العلم والأدب لديه أخذها عن النساء سواءً من أقربائه أو من الجواري هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فكلمات ابن حزم هذه تسلِّط الضوء على المكانة العلمية والأدبية الرفيعة التي تمتَّعن بها نساء الأندلس سواء من الأحرار أو الجواري، هذه المكانة التي خَوَّلت لهن بناء أسس شخصية مرموقة مثل شخصية ابن حزم الأندلسي.

إذا أسقطنا هذه المسألة على واقعنا المعاصر، نلحظ أن أسوأ الشباب أو الفتيات أو بالأحرى أكثر الفتيات أو الشباب الذين يكونون عرضة للانحراف والضياع هُم من تربيهم أمهاتهم دون آبائهم، وكذلك الشاب الذي تربى على يد أمه حتى إنه يقال عنه: «ابن أمه»، وتجد من الفتيات من تقول مستحيل أن أقبل به زوجًا فهذا ابن أمه، يأتمر بأمرها وينتهي بنهيها، وهنا لم يكن مقصد الفتاة أن يعارض الشاب أمه أو يعقها، وإنما تقصد أنه لا يُعمل عقله في أي شيء وإنما من تتحدث عنه أمه، ومن تقرر عنه أمه، فأمه هي القائد والسائس له، أما هو فمجرد رجل مجازًا ليس إلا، وبالطبع هذه القاعدة ليست مطلقة، فهناك من الأبناء من تربيهم أمهاتهم وإذ بهم يخرجون أفضل ممن يُربُّون في ظل الأم والأب.

كان أصل أسرة ابن حزم قبل أن تهاجر إلى قرطبة من قرية «منت ليشم» وتسمى الآن منتيخر أو منتيخ بدون الراء، وهي قرية تقع في

مقاطعة «ولبة»[١] جنوب غرب الأندلس، حيث ذكر ياقوت الحموي أنها: «**كانت ملكه وملك سلفه من قبله**»، **إلا أن ابن حزم وُلِدَ في قرطبة ونشأ بها، وقد حدَّث تلميذه صاعد الأندلسي عن مكان وعام مولده قائلًا**: «**وُلِدت بقرطبة في الجانب الشرقي من ربض منية المغيرة، قبل طلوع الشمس وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح، آخر ليلة من شهر رمضان المعظم، سنة أربع وثمانين وثلاث مائة.**»

كان أحمد بن سعيد والد ابن حزم من عقلاء الرجال الذين نالوا حظًّا وافرًا من الثقافة والعلم؛ ولذلك كان يعجب ممن يلحن في الكلام، ويقول: «**إني لأعجب ممن يلحن في مخاطبة، أو يجيء بلفظة قلقة في مكاتبة؛ لأنه ينبغي له إذا شك في شيء أن يتركه ويطلب غيره، فالكلام أوسع من هذا.**»

هذه النصيحة التي جادت بها قريحة والد ابن حزم لا تقتصر على العصر الذي عاش فيه فحسب، بل تتجاوز هذا العصر إلى ما تلاه من عصور وصولًا إلى هذا العصر الذي نعيش فيه، حيث نرى اهتزازَ -وربما انحدار- اللغة بين أهلها، فكأن لسان حال أحمد بن سعيد يهمس في أذن كل واحد منَّا قائلًا: «**إن اللغة العربية غنية بالمفردات والعبارات فضلًا عن فيض المعاني، فلا ينبغي لأهلها أن يتصلبوا أو يتجمدوا عند مفرد أو عبارة أو معنى بعينه، وكأن اللغة تقتصر على هذا المفرد أو العبارة أو المعنى دون غيره.**»

---

(١) ولبة: وقيل لبلة، وهي قصبة مورة الأندلس، غربي قرطبة، برية بحرية، غزيرة الفضائل والثمر والشجر، تُعْرَف بالحمراء، ولها سور ممتنع.

قد يتساءل القارئ كيف لي أن أتملَّكَ زمام القدرة على معرفة أو استيعاب المفردات والعبارات والمعاني اللغوية التي تمكنني من التنقل بين المعاني العربية بسلاسة وخِفة؟! ويكون الإجابة على هذا التساؤل: إن السبيل الوحيد إلى ذلك ممثلًا في كلمة واحدة هي «اقرأ»، هذا الأمر الإلهي الأول، فلنتذكر جميعًا أنه ليس من فراغ أن يكون الأمر الإلهي الأول هو «اقرأ»، وليس «صلِّ» أو «صُمْ» أو «تصدَّق» مع عظم وجلال قدر هذه الأعمال.

كان أحمد بن سعيد والد ابن حزم هو الذي بنى مجد أسرة بني حزم حتى إن المؤرخين وصفوه بقولهم: إنه - أحمد - هو الذي «**بنى بيت نفسه**»، ولكن السؤال: بماذا بنى أحمد بن سعيد هذا البيت؟ هل بناه بالحجر؟ أم بناه بالرمل والطوب؟ أم بناه بالإسمنت والحديد؟! لم يَبْنِهِ بأيٍّ من هذه المواد وإنما بناه بالخصال الحميدة والمزايا الرفيعة والأخلاق الكريمة، فقال عنه المؤرخون بناه بـ «**الخلال - الخصال - الفاضلة ورجاحة العقل والمعرفة والرجولة والرأي**»، فبهذه المزايا والخصال بُنِيَ بيت ابن حزم، وكأن والد ابن حزم يعطينا درسًا عمليًّا في كيفية بناء البيوت التي يراد لها أن تَغْرِسَ جذورها في العمق، وتظل شامخة مهما كانت الرياح عاتية والعواصف مدمرة، فالبيوت التي تُبْنَى على أساس الأخلاق الفاضلة والعقل الراجح تمر عليها العواصف تلو العواصف، وتظل هي كما هي شامخة لا تستطيع العواصف فضلًا عن الزمان أن ينال من شموخها شيئًا.

هذا البيت الذي بناه أحمد والد ابن حزم بالخصال الفاضلة والعقل الراجح كان بذرة الشرف لعقبه، بمعنى أنه كان الأساس

الذي أغنى أولاده وأحفاده فيما بعدُ عن التفكير في وضع الأساس؛ لأنه كان موضوعًا بالفعل؛ لذلك جاء عقبه وأكملوا البناء وجعلوه في أبهى صورة وأرقى حُلَّة.

وقد تحدَّث ابن حزم عن أبيه ذاكرًا الوصايا التي كان يوصيه بها والتي منها قوله له:

إذا شئتَ أن تحيا غنيًّا فلا تكن

على حالةٍ إلا رضيتَ بدونها

ويقصد بذلك أنه لا ينبغي أن يكون ابنه قاصر النظر ويرضى بالحال التي عليها دون أن يحاول أن يرتقي بنفسه ويطورها على الدوام، وإذا أمعنَّا النظر في حالنا نرى هذا كثيرًا في حياتنا، فقد تكون على صلة وثيقة بإنسان وله سلوكيات وتصرفات معينة، فيحدث أن تفترقا لسنوات وبعد هذه السنوات قد تلتقيه، وعندما تتحدث معه تشعر كأنه هو نفسه لم يطرأ عليه أي تغيير لا في فكره ولا سلوكه، في حين أن الجدران نفسها تتغيَّر وتتبدل بمرور الأيام والأزمان.

لذلك لا تمر على الوصية أو النصيحة وكأنها خاصة بابن حزم دون غيره باعتبارها من وصايا أبيه له، وإنما اعتبرها موجَّهة لك أيضًا، اعتبرها وصية أبيك لك، ووصِّ بها نفسك، فلم يقدِّر ربنا – جل وعلا – إيصال هذه الوصية لك حتى تمر عليها مرور الكرام، وإنما حتى تستنشق عبيرها وتسعى للاعتبار بها؛ لأنه لا يوجد شيء صدفة، وإنما كل شيء عنده سبحانه وتعالى بقَدَر، فتدبر رسائل ربنا جل وعلا لك.

كان والد ابن حزم ذا مكانة علمية جليلة، مكنته هذه المكانة العلمية التي احتلها أن يتبوأ مكانة رفيعة في الدولة العامرية، حيث إنه كان من أشهر وأجلِّ وزرائها، تولى الوزارة للمنصور ابن أبي عامر، ولابنه المظفر من بعده، وقد وصفه ابن بشكوال قائلًا: «**كان من أهل العلم والأدب والخبر، وكانت له في البلاغة يد قوية**»، ولا جرم أن هذه الخلال الكريمة التي أضفتها الأقدار إلى والد ابن حزم هي التي أَهَّلَتْه لمنصب الوزارة الذي اختاره له المنصور ابن أبي عامر الذي عُرِفَ بدقة حكمه، ونفوذ بصيرته في الحكم على الرجال، وتمييز جواهرهم.

حرص والد ابن حزم على تربية ابنه التربية الحسنة، وتنشئته النشأة الصالحة، فكلَّف بعضًا من النساء بتربيته وتعليمه، فعلَّمنه القرآن، وحفَّظنه كثيرًا من الأشعار، ودرَّبنه على الخط كما أشرنا سابقًا، وهذا يوضح لنا أن ابن حزم عاش حياته الأولى بين الجواري في قصر والده ولم يكن يغادره، ولا يتصل بغير مربياته من الجواري؛ ورغم هذه النشأة التي نشأها ابن حزم في حجر الجواري وكنف النساء، حتى إنه لم يكن يتصل بأحد غيرهن إلا أنه أضحى العالِمَ الجليل والفقيه البارع الذي لا يُشَقُّ له غبار في الدراسات الفقهية والمناظرات الجدلية والفنون الأدبية.

قد يأتي هنا شخص ويقول: إنه لا داعي للحديث عن التحذير من ترك الآباء والأمهات أبنائهم في يدي المربيات يقمن بخدمتهم وتعليمهم ومرافقتهم إلى المدرسة ذهابًا وإيابًا، متحججين بما يقع على عاتقهم من أعمال لا تمكنهم من رعاية أبنائهم الذين هم في

الأصل ثمرة حياتهم، فقد يقول هؤلاء الأهل لا علاقة بنجاح الولد أو فشله بالمربيات، وإنما الأمر متعلق به هو، فهذا هو ابن حزم رغم أنه نشأ في حجور النساء إلا أنه أضحى عالمًا ملأ السمع والبصر، يتداول الناس سيرته ومسيرته حتى يوم الناس هذا، بل لا تنفك أن تصدر الكتب والمؤلفات التي تتحدث عن حياته وشخصيته وإنتاجه العلمي والفكري.

إلا أنه قد يكون فات الآباء والأمهات عند إطلاقهما هذا الحكم نوعية النساء التي نشأ ابن حزم في حجورهنَّ، حتى استطاع أبوه الوزير صاحب الصيت والجاه أن يتركه في حجورهن معتمدًا عليهن في تعليمه هذه واحدة؛ أما الثانية: كان ابن حزم يدرك تمام الإدراك أنَّ والده جعل من هؤلاء النسوة رقيبات عليه داخل القصر، فكان لهذا أثر كبير في سلوكه، وبُعده عن سفاسف الأمور وتوافهها، وعنايته بعظائم الأمور ومعاليها.

بعد أن تعلم ابن حزم القرآن وحفظ كثيرًا من الأشعار وجَّهَه والده إلى رجل مستقيم النفس والخُلق، هو أبو علي الحسين الفاسي[1] فكان لهذا الرجل - بما تمتع به من علم غزير وعقل مستنير وشخصية حكيمة ومعاملة حسنة ومتزنة - الأثر القوي والبالغ في بناء شخصية ابن حزم وعفته واستقامته في تلك الحياة الرغدة التي عاش في كنفها، وعندما بلغ ابن حزم سن الثالثة عشر من عمره، كان والده يصطحبه معه إلى مجالس العامة، التي كانت تضم بين طياتها العلماء والأدباء والشعراء والمفكرين، حتى يتعلم منهم حسن المنطق والأدب.

---

(١) أبو علي الحسين بن علي الفاسي: من أهل العلم والفضل مع العقيدة الخالصة، كان ديِّنًا عالمًا عاقلاً ورعًا حَسَنَ الخلق، لازم العلماء حتى مات.

عند قراءتنا في سير العديد من العظماء أو أصحاب النجاحات سواء القدماء منهم أو المحدثين نجد أنهم تشابهوا في نقطة بعينها ممثَّلة في أن كلًّا منهم كان لأبيه بصمة في حياته سواء بقصد أو غير قصد، فأحدهم خَلَّفَ له أبوه مكتبة كانت هي بداية طريقه لحب العلم والسير في طلبه، وآخر كان أبوه دائم الإيقاظ له لأداء صلاة الفجر، وثالث انطبعت في ذاكرته صورة أبيه وهو يجلس بعد صلاة الفجر لتلاوة القرآن حتى شروق الشمس، ورابع كان دائمًا ما يصطحبه أبوه معه لحضور مجالس الكبار وهو صبي صغير لم يتجاوز الحلم، وخامس يتذكر أباه وهو يتعمد التصدق أمامه صدقة مغلفة بالعزة ليعطي ابنه درسًا في مراعاة مشاعر الآخرين، وسادس وسابع؛ فلا تحرم نفسك أن تكون لك بصمة في حياة أبنائك تظل في ميزان حسناتك أبد الدهر.

كان لابن حزم أخ أكبر منه سنًّا يُكنَّى أبا بكر، تزوج بامرأة تُدْعَى عاتكة بنت قند وأبوها كان حاكم الثغر الأعلى زمن المنصور ابن أبي عامر، ويَصِف ابن حزم زوجة أخيه هذه فيقول: «**وكانت لا مرمى وراءها في جمالها وكريم خلالها، ولا تأتي الدنيا بمثل فضائلها**»، ويبدو أن ابن حزم لم يكن له من الأخوة غير أبي بكر هذا؛ لأنه ألَّف كتابًا مفقودًا عنوانه: «**تواريخ أعمامه وأبيه وأخيه**»، حيث نص على أخيه بصيغة المفرد وليس الجمع.

نشأ ابن حزم نشأة مترفة بين القصور والحدائق في بيت عز ومال وجاه عريض، بمعنى أنه نشأ نشأة مترفة تحوط بها النعمة، وتلازمها الراحة والدَّعة والترف، وذلك شأن أبناء الوزراء والأمراء الذين

يجدون كل وسائل المتع والبذخ ميسَّرة لهم، فلا ضيق في رزق ولا حاجة إلى مال، حيث كانت أسرته غنية ذات مجد وحَسَب، ناهيك عن العلم والأدب الذي مكنها من تبوُّأ المنازل العليا في الدولة.

ما سبق إن دل على شيء فإنما يدل على أن طلب ابن حزم للعلم لم يكن بحثًا عن المال أو سعيًا وراء الجاه والسلطان والشهرة، وإنما كان وليد رغبة مشتعلة في المعرفة، وإيمان عميق بقيمة العلم وأثره في إصلاح الناس وصلاحهم؛ إنَّ طيب العيش كثيرًا ما يسوِّل للنفس التمادي في طلب المتعة واللذة، بدلًا من التفاني في طلب العلم والصبر من أجل تحصيله، لكنه لدى العقلاء ومحبي المعرفة خادم العلم وعون على تحصيله.

إلا أن تلك السعادة الهانئة، وذاك النعيم الخلاب، والعيش الهادئ لم يَدُمْ لابن حزم، فسرعان ما قَلَبَ له الدهر ظهر المِجَنِّ، وقديمًا قال الحكماء: «**من أكل من مال السلطان فقد سعى بقدمه إلى دمه**»، خاصة عندما تتبدل الأحوال بتغيير الحكم وخروجه من سلطان إلى سلطان، وقد قصَّ علينا ابن حزم كيف تبدل به الحال، وكيف ذاق مُرَّ كأس الحياة وآلامها وهو في ريعان شبابه، فيقول: «**شُغِلْنَا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات، وباعتداء أرباب دولته، وامْتُحِنَّا بالاعتقال والتغريب والإغرام الفادح والاستتار، وأَرْزَمَت - اشتدت - الفتنة وألقت باعها وعَمَّت الناس وخَصَّتنا.**»

وقد أضيف إلى هذه النوازل المجتمعية أولى كوارث ابن حزم العائلية، وهي وفاة أخيه أبي بكر الذي لم نعرف له أخًا غيره في الطاعون الواقع بقرطبة عام ٤٠١هـ، وكان يبلغ من العمر ٢٢ عامًا،

ثم كانت النازلة العائلية الثانية والتي تعتبر قاصمة الظهر بالنسبة لابن حزم وهي وفاة والده الوزير أحمد بن سعيد غمًّا وكمدًا لما حلَّ به وبعائلته من نكبات ومحن، وكان ذلك عام ٤٠٢هـ، فاتصلت حياة ابن حزم بعده بالنكبات والعقبات والصعوبات المتصلة والمتواصلة.

حلَّ العام التالي لوفاة والد ابن حزم وحمل معه فاجعة أخرى ألمَّت بابن حزم، فأَدْمَت قلبه وروحه قبل مقلتيه، حيث ماتت جارية له عام ٤٠٣هـ، وكانت من أحب الجواري وأقربهم إلى قلبه وروحه، وكان قد وصفها وأجاد في وصفها، هذا الوصف الذي يجد القارئ بين طياته إلى أي مدى شُغِفَ ابن حزم بهذه الجارية وتعلق قلبه بها، فقال عنها: كانت - يقصد الجارية - فيما خلا اسمها «نُعَمْ»، وكانت أمنية المتمني، وغاية الحسن خَلقًا وخُلُقًا، وموافِقَة لي، وكنت أبا عذرها، وكنا قد تكافأنا المودة»، ثم تابع حديثه عنها واصفًا فجيعته فيها فقال: «**ففجعتني بها الأقدار، واخترمتها الليالي ومر النهار، وصارت ثالثة التراب والأحجار، وسِنِّي حين وفاتها دون العشرين سنة، وكانت هي دوني في السن**»، ثم اتجه إلى وصف حاله عقب وفاتها قائلًا: «**فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابي، ولا تفتر لي دمعة على جمود عيني وقلة إسعادها، وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن، ولو قُبِلَ فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف**»، هذا ابن حزم العالم الجليل الذي حاز العديد من العلوم والآداب والفنون وبرع فيها، يصف لنا محنته العاطفية، فاتجاه ابن حزم إلى طلب العلم واهتمامه وعنايته به لا يعني أنه لم يكن يملك قلبًا يعشق وينزف ألمًا لفراق محبوبه.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أنه دومًا ما ينظر الناس إلى أهل العلم أو الساعين في طلبه أنهم يملكون قلبًا جامدًا حازمًا كما هو شأن مظهرهم، وحالهم في المناظرات واللقاءات والندوات والمحاضرات والمجالس العلمية، إلا أن الواقع بخلاف ذلك تمامًا، فأهل العلم هم أرقُّ الناس قلوبًا، وأعذبهم روحًا، وأنبلهم خلقًا، فإذا أحبوا أحبوا بكل كيانهم، وتمنوا لو يقدمون عمرهم وأعز ما يملكوا ويضعونه تحت أقدام من شُغِفَت به قلوبهم.

استمرت المحن والفتن تنخر في عضد ابن حزم وأهله حتى اضطروا للخروج من قرطبة، حيث انتهب جُند البربر منازل قرطبة، فخرجوا من قرطبة إلى المِرْيَة[١]، وكان ذلك عام ٤٠٤هـ، وقد وصف ابن حزم هذه الحال التي وصل إليها وأسرته قائلًا: «**ثم ضرب الدهر ضرباته، وأُجْلينا عن منازلنا، وتغلَّب علينا جند البربر؛ فخرجت عن قرطبة أول محرم سنة ٤٠٤هـ، وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام أو أكثر.**»

هذه جوانب من حياة ابن حزم الأندلسي وومضات من نشأته، وهي دالة على تقلُّب الحياة به، فبينما هو ذاك الابن المنعم المترف، إذ به طريد ومُشرد عن بلده ومسكنه، لكنه مع تلك النكبات والأزمات التي ألمَّت به، ظل مجتهدًا ومثابرًا في سبيل مواجهتها والتغلب عليها؛ لذلك لم تَعُقْه أو تؤخره قيد أنملة عن متابعة تحصيله العلمي، والتردد على حلقات العلماء، حتى أصبح مرجعًا علميًّا يُحْتَذَى به على مر العصور والأزمان.

---

(١) المِرْيَة: هي مدينة كبيرة محدثة، أمر ببنائها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤هـ من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس، منها يركب التجار، وفيها تحلُّ مراكبهم، وفيها مرسى للسفن، وهي اليوم من أشهر مدن شرق الأندلس وأعمرها.

طلب ابن حزم للعلم:

أشرنا سابقًا في بداية نشأة ابن حزم أنه نشأ نشأة مترفة في قصر أبيه الوزير بالدولة العامرية آنذاك، وفي هذا القصر تلقَّى ابن حزم مبادئ العلم في صغره، فحفظ القرآن، وكثيرًا من الأشعار، وتعلم الخط والكتابة، وكان ذلك على أيدي النساء اللاتي لم يَكُنَّ قوَّامات عليه في التعليم فحسب، بل كُنَّ حريصات عليه يمنعنه من الوقوع في الفتنة، لا سيما وأنه في غَرَارة الصبا وحدَّة الشباب.

ولم يكتفِ أبوه بذلك، بل جعل له رجلًا تقيًّا وقورًا عالمًا ورعًا يلازمه، ويُجْلِسه في مجالس العلماء الأجلاء يستمع إليهم ويتلقى عليهم ما تدركه سِنُّه، ذلك الرجل هو أبو الحسين بن علي الفاسي كما ذكرنا، فتلقى العلوم والمعارف المتنوعة من فقه ولغة وأدب وشعر وغيرها، كما تلقى ابن حزم الحديث وطلبه مبكرًا، فكان أول سماعه قبل سنة ٤٠٠هـ، أي قبل بلوغه سنَّ السادسة عشرة من العمر، وكان أول شيخ سمع منه هو ابن الجسور[1].

نظرًا لكون الحديث والفقه علمين متلازمين، ولا ينبغي أن يُطْلَب أحدهما بمعزل عن الآخر، أو على الأقل: ينبغي أن يكون دارس الحديث مُلِمًّا بالمعارف الأولية للفقه، فحينئذ نستطيع القول بأن ابن حزم ابتدأ تلقي الفقه في بداية عمره، وعليه فإن ابن حزم كان عاكفًا على العلم منذ نعومة أظفاره، وكان يدرس العلوم الإسلامية عامة، وأخصها علم الحديث والأخبار، ثم انصرف انصرافًا كليًّا بعد ذلك

---

(١) أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد بن الحباب بن الجسور الأموي القرطبي: كان فاضلاً أديبًا شاعرًا، عالي الإسناد، واسع الرواية، توفِّي بالطاعون سنة ٤٠١هـ.

إلى تعلُّم الفقه تعلمًا جعله إمامًا فيه وصاحب رأي من غير تقليد لأحد، وذلك بعد أن ذهب إلى بلنسية [1] وأقام فيها، وعكف على الأخذ على طائفة من أبرز علمائها، وكان ذلك في أواخر سنة ٤٠٧ هـ وفي بداية سنة ٤٠٨هـ، وكانت شيوخه الذين ابتدأ الأخذ عنهم في الفقه: الفقيه ابن دحون[2] الذي دلَّه على قراءة موطأ مالك، بمعنى أن ابن حزم انصرف إلى طلب الفقه، وأعطاه أكبر عناية من غير أن ينقطع عن أبواب العلم الأخرى.

تحدث ابن حزم عن سبب تعلمه للفقه وتعمقه فيه، فقال: إن سبب تعلمه وإقدامه على التعمق في الفقه أنه شهد جنازة لرجل من أصحاب أبيه، فدخل المسجد قبل صلاة العصر وكان مزدحمًا بالشيوخ والطلاب يلتفُّون بهم في حلقات علمية كأنها خلية النحل، وبمجرد دخوله جلس، فأشار إليه أحد الشيوخ المتواجدين في المسجد آنذاك إشارة مفادها أن يقوم ويصلي تحية المسجد، فلم يفهم ابن حزم معنى الإشارة، فقال له أحد الحاضرين مفهمًا له مقصد إشارة الشيخ: أَبَلَغْتَ هذه السن ولا تعلم أن تحية المسجد واجبة؟! وكان يبلغ آنذاك من العمر ستة وعشرين عامًا، فقمت وصليت تحية المسجد، ثم انصرفت من المسجد وتوجهت لتشييع جنازة صاحب أبي التي تم إحضار جثمانه للصلاة عليه، وعندما دخلت الجنازة للصلاة عليها توجهت لصلاة تحية المسجد، فقيل

(١) بلنسية: مدينة مشهورة بالأندلس، تقع شرق قرطبة، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ذات أشجار وأنهار، تُعْرَف بمدينة التراب.

(٢) عبد الله بن يحيى بن أحمد الأموي المالكي: يُعْرَف بابن دحون، من أهل قرطبة، كان عالمًا جليلاً، وهو أفقه أهل عصره، وأغوصهم في الفتيا، وأضبطهم للروايات، شديد التواضع، حَسَنُ الرأي، عمَّر وأسنَّ وانتفع الناس بعلمه ومعرفته، مات سنة ٤٣١هـ.

لي: اجلس، فليس هذا وقت صلاة، بمعنى الأَوْلَى أن تشارك الناس الصلاة على الميت، فضاقت نفسي لهذا الأمر أشد الضيق، فتوجهت للشيخ الذي أشار عليَّ بصلاة تحية المسجد وطلبت منه أن يدلني على دار الفقيه أبي عبد الله ابن دحون، وهو من أشهر علماء الفقه آنذاك، وعندما دلني ذهبت إليه على الفور وحكيت له ما حدث معي، وذكرت له أنني أريد تعلم العلوم الشرعية؛ فدلني بادئ ذي بدء على كتاب «الموطأ» لمالك بن أنس، فابتدأت بتعلُّم الموطأ على يديه، وتابعت أخذ العلم على غيره من العلماء مدة ثلاثة أعوام، ثم بدأت المناظرة.

ابتدأ ابن حزم دراسته للفقه على مذهب الإمام مالك؛ لأنه مذهب أهل الأندلس وشمال أفريقية، ثم اتجه من بعده إلى مذهب الإمام الشافعي، ومع ذلك كان يتطلع إلى أن يكون حرًّا يتخير من المذاهب الفقهية ولا يتقيَّد بمذهب، ولم يلبث على المذهب الشافعي إلا قليلًا، حتى انتقل إلى القول بالظاهر.

كان من جملة المواقف التي رواها ابن حزم عن نفسه والتي تدل على علو مكانته في الحرص على طلب العلم، كما أنها توضح مدى اعتداده بنفسه ومعرفته بقدر ذاته، أنه اجتمع ذات يوم مع الفقيه أبي الوليد الباجي صاحب المؤلفات الرائدة في مجالها، والتي منها كتاب «المنتقى» وكتاب «الاستغناء» وغيرهما من المؤلفات، فحدث أنهما عندما اجتمعا وجرت بينهما مناظرة انتصر فيها ابن حزم على الباجي، فقال له الباجي: تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على سُرج

الحراس[1]، فرد عليه ابن حزم: وتعذرني أيضًا فإن أكثر مطالعتي كانت على منائر الذهب والفضة، ويقصد ابن حزم بقوله هذا أن نشأته في حالة من الترف ورغد العيش كانت أَوْلَى به ألا يهتم أو يعتني بطلب العلوم والآداب والفنون.

وقيل: إن الباجي قال له: أنا أعظم منك همة في طلب العلم؛ لأنك طلبته وأنت مُعَان عليه تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل، فرد عليه ابن حزم: هذا كلام عليك لا لك؛ لأنك طلبتَ العلم رجاء حال تريد تبديلها بمثل حالي، ولكني طلبته لا أرجو إلا نفعه دنيا وأخرى.

هذا لا يعني أن ابن حزم كان يحمل في قلبه شيئًا تجاه الباجي، بل كان يعلم له قدره في العلم والفضل، وكان دائمًا ما يشيد به في مجالس العلماء والفقهاء وبين تلاميذه قائلًا: «**لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم.**»

مذهب ابن حزم:

إنَّ مذهب ابن حزم الأندلسي يأتي من حيث التسلسل التاريخي لظهور المذاهب الفقهية في المرتبة الخامسة بعد مذهب الحنابلة؛ ففي البداية كما أسلفنا الذكر ابتدأ ابن حزم بدراسة المذهب المالكي، وذلك على يدي الفقيه المالكي أبي عبد الله بن دَحُّون الذي كان عليه مدار الفُتْيَا في قرطبة، وعلى أيدي غيره من العلماء، وكان المذهب

---

(١) سرُج الحراس: مصابيح الحراس التي يطوفون بها ليلاً لحراسة الدروب والأزقة من اللصوص.

المالكي هو المذهب السائد إذ ذاك في الأندلس، غير أن ابن حزم لم يعتنق المذهب المالكي، بل صَدَّ عنه لما رآه من مساوئ كبار علمائه؛ إذ كانوا يتقربون للحكام، ويسيرون على أهوائهم، ويبررون تصرفاتهم؛ لذلك تفقَّه ابن حزم على مذهب الشافعية، حيث أُعْجِبَ بالشافعي لتمسكه بالنصوص، غير أنه لم يطُلْ بقاؤه فيه ودفاعه عنه، حيث تحوَّل إلى القول بالظاهر والإعلان به والدعوة إليه والاحتجاج له، فبرع فيه حتى صار واحدًا من أشهر وألمع أئمة هذا المذهب، وكان يُصرح بمذهبه الظاهري في معظم مؤلفاته، ويفتخر بأخذه بالظاهر، وله في ذلك أشعار منها:

ألَـمْ تـرَ أنِّـي ظاهـريٌّ وأنَّنـي

علـى مـا بَـدا حتَّـى يقـوم دليـل

ولا يفوتنا هنا أن نعرض نبذة قصيرة عن أهم معالم المذهب الظاهري دون الخوض في المسائل والآراء الفقهية؛ تيسيرًا للقارئ وتعريفًا له بهذا المذهب؛ من أبرز معالم هذا المذهب:

القول بالظاهر، بمعنى حَمْلُ اللفظ على ظاهره وعمومه دون الغور في معانيه وتأويلاته، وفي ذلك يقول ابن حزم: «**ولا يحلُّ لأحد أن يُحيل آية عن ظاهرها، ولا خبرًا عن ظاهره؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ ومَنْ أحال نصًّا عن ظاهره في اللغة بغير برهان آخَر أو إجماع فقد ادَّعى أن النص لا بيان فيه، وقد حرَّف كلام الله تعالى ووحيه إلى نبيه ﷺ عن موضعه، وهذا عظيم جدًّا.**»

ومما سبق نستنتج أن ابن حزم رغم رأيه في الأخذ بظاهر النص إلا أنه لم يقف عند هذه النقطة ويتحجر أو يتصلب شأنه شأن الكثير من العلماء والفقهاء قديمًا وحديثًا، وإنما وضع مسوِّغات يصح معها العدول عن الأخذ بظاهر النص إلى معنى آخر، وهذه المسوغات هي: أ. نص آخر من القرآن الكريم أو السنة النبوية المطهرة؛ ب. إجماع صحيح معتبر.

أيضًا من معالم المذهب الظاهري: إبطال القول في الدين بالرأي، فابن حزم يرى أنه لا يصح الاجتهاد في استخراج الأحكام الفقهية واستنباطها بالرأي، ومن قال برأيه فهو مفتر على الله عز وجل؛ وقد صرَّح ابن حزم ببطلان العمل بالرأي، وفساد الاعتداد به في ثبوت الأحكام، فقال: «**ولا يحل لأحدٍ الحكم بالرأي**».

المَعْلَم الثالث من معالم المذهب الظاهري هو: رفض التقليد؛ دعا ابن حزم دعوة قوية إلى منع التقليد في الدِّين على كلِّ أحد، واعتبره بدعة لم تكن معروفة في القرون الثلاثة الفاضلة، وإنما حدثت في القرن الرابع، ويجب أن تُرَدَّ، وفي هذا يقول: «**والتقليد حرام، ولا يحلُّ لأحد أن يأخذ بقول أحد بلا برهان، والعامِّي والعالم في ذلك سواء، وعلى كلِّ أحد حظُّه الذي يقدر عليه من الاجتهاد.**»

ومما سبق يتضح لنا أن ابن حزم مع رفضه للتقليد إلا أنه لم يفتح باب الاجتهاد على مصراعيه، ومن ثَمَّ يَحْكم الناس ويُشرِّعون ما يُريدون، وإنما أراد الاجتهاد حسب الطاقة والوسع، فإن كان المرء جاهلًا لا قدرة له على الاجتهاد، فله أن يبحث عمن استفاضت شهرته بالعلم والصلاح والتقوى فيسأله ويستعلم منه.

وبعد هذه العجالة في عرض أهم معالم المذهب الظاهري لا بد من التنبيه على أن ابن حزم يُعتبر مجتهدًا وليس منتميًا لمذهب معين؛ لأنه وأهل الظاهر لا يعتبرون أنفسهم أصحاب مذهب أصلًا، بحيث يقلده مَنْ شاء أو ينتمي إليه من أراد، بل إن ما يجمعهم فحسب هو ما أشرنا إليه من معالم يعتمدون عليها في إيقاع الأحكام الشرعية واستنباطها من النصوص، والله تعالى أعلى وأعلم.

رحلات ابن حزم:

لم يرحل ابن حزم إلى خارج بلاد المغرب على عادة الأندلسيين في الرحلة إلى أقطار المشرق والمغرب طلبًا للعلم من مظانه الأولى، ولعل ذلك يرجع إلى أنه تهيأ له في الأندلس من أسباب تحصيل العلم ما جعله في غِنًى عن ذلك، حيث كان عصره عصر الازدهار العلمي والنهضة الفكرية، فكثر العلماء واهتم بهم الأمراء، فأكرموهم وأغدقوا عليهم الأموال والعطايا، وبُنِيَت المكتبات في مختلف مدن الأندلس وامتلأت بالكتب.

استغنى ابن حزم عن الرحلة إلى المشرق طلبًا للعلم بالتنقل والتجوال بين المدن الأندلسية المختلفة، وكان أكثر هذه الرحلات والتنقلات يصاحبها القلق والاضطراب، إذ كان مضطرًّا في كثير من تلك الأسفار ولم يكن مختارًا، وكان من أهم الرحلات التي أسهمت إسهامًا كبيرًا في ثقافة ابن حزم وسيرته وتكوينه الفكري، رحلته من شرق قرطبة إلى غربها، وذلك حين وقع الاضطراب بقرطبة، وكانت هذه الرحلة سنة ٣٩٩هـ، كذلك من المدن التي ارتحل لها ابن حزم

وكان لها أثرها في تكوينه الفكري مدينة المِرْيَة، وذلك عندما وقع انتهاب جند البربر لمنازل ابن حزم في الجانب الغربي بقرطبة سنة ٤٠٤هـ.

تتابعت فيما بعدُ رحلات ابن حزم وبخاصة بعد أن ترك السياسة وتفرَّغ للعلم، وكان السبب في اضطراره إلى الرحيل والتنقل من موطن لآخر حدَّته في الرأي، ومخالفته لآراء الفقهاء إذ ذاك، حتى استهدفه فقهاء وقته، فتمالأوا على بغضه، وردُّوا أقواله، وحذَّروا سلاطينهم منه، حينها خرج ابن حزم إلى شاطبة، ومكث فيها فترة من الزمن، إلا أنه لم تَطُلْ إقامته بها، ثم انتقل إلى القيروان بالمغرب حيث كان يُناقش علماءها، ويتبادل معهم وجهات النظر المختلفة، ثم رحل بعد ذلك إلى جزيرة ميورقة[١]، وفيها وَجَدَ أتباعًا كثيرين، والتقى بأبي الوليد الباجي[٢] الذي دار بينه وبين ابن حزم الكثير من المناظرات، ثم غادرها ورحل إلى إشبيلية[٣]، وفيها تعرض لمحنته العاتية وهي: إحراق كتبه وتمزيقها علانية كما أسلفنا الذكر، وتحت ضغط تلك المحن اضطر ابن حزم إلى العودة إلى قرية أجداده في غرب الأندلس من بادية لبلة، حيث بقي فيها ينشر العلم ويؤلف ويصنف إلى أن توفِّيَ.

---

(١) ميورقة: جزيرة في شرقي الأندلس، ويُنْسَب إليها جماعة من العلماء، فتحها المسلمون عام ٢٩٠هـ وبالقرب منها جزيرة يُقال لها منورقة - بالنون -.

(٢) سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب التجيبي الباجي: كان حافظًا أمينًا متقنًا صاحب سنة واتباع، له مؤلفات كثيرة منها: التسديد إلى معرفة التوحيد، وإحكام الفصول في أحكام الأصول، ومختصر المختصر في مسائل المدونة، مات عام ٤٧٤هـ.

(٣) إشبيلية: مدينة كبيرة بالأندلس على شاطئ البحر شرقًا، غربي قرطبة، وتسمى حمص أيضًا، وبها قاعدة ملك الأندلس، ويُنْسَب إليها جماعة من العلماء.

مما يدلل على أهمية الرحلة إلى بلدان المشرق والمغرب من أجل طلب العلم ونيله من مظانه الأولى، أن أهل الأندلس كانوا يقولون عند ترجمتهم لأعلامهم: «**ولم تكن له رحلة**»، حيث كان العالم الذي لا يرتحل في طلب العلم لا يحظى بنفس المكانة التي يحظى بها من ارتحل، إلا أنه لو تم القياس على ابن حزم الذي لم يخرج من الأندلس وإنما اكتفى بالتجوال داخل أرجاء موطنه، وبالرغم من ذلك كان العلامة الجليل الموسوعي صاحب المؤلفات والمصنفات التي بلغت شهرتها الآفاق.

فلماذا لم يخضع ابن حزم لما خضع له غيره ممن لم يرحلوا في طلب العلم؟ هل لأن أبيه كان وزيرًا فلم يستطع أحد الكلام فيه أو التعقيب على عدم ارتحاله في طلب العلم؟ كلا، لم يكن الأمر كذلك، كل ما هنالك أن الفترة التي عاش فيها ابن حزم رغم الفتن التي عَمَّت أرجاء الأندلس من الناحية السياسية إلا أن الأندلس كانت مزدهرة ثقافيًّا وعلميًّا، فلم يظل الأندلسيين طوال عمرهم يذهبون إلى الأخذ من المشرق، بل مع مرور الزمن تمكنوا من العلوم وأضافوا لها، بل وجاء المشارقة للأخذ عنهم، بمعنى بنوا شخصيتهم العلمية المستقلة، ووضعوا بصمتهم الحضارية، وإلا ما كان للأندلس هذه الشهرة التي بلغت مشارق الأرض ومغاربها، حتى أَضْحَتْ فيما بعدُ أحد معابر الحضارة الإسلامية إلى أوربا؛ والجدير بالذكر أن شيوخ ابن حزم وعددهم يؤكد لمتتبعي سيرته بما لا يدع مجالًا للشك أن ابن حزم أخذ العلم من ينابيعه الصافية على أيدي علماء أجلاء، وهذا يبطل الزعم القائل أن ابن حزم لم يلازم الأخذ عن الشيوخ.

رغم سوء الأوضاع السياسية في الحقبة التي عاش فيها ابن حزم ممثَّلة في عصر ملوك الطوائف إلا أنه من الناحية الثقافية فقد كان عهدًا نهضت فيه الحياة العلمية وازدهرت، حيث عَلَت راية العلم، وَوُجِدَ العلماء الأجلاء الذين جمعوا بين الثقافات المتعددة، وألَّفوا الكتب القيِّمة، أمثال الإمام أبي عمر بن عبد البر وأبي الوليد الباجي، وغيرهما ممن اشتهر بسعة الأفق وكثرة المعارف، كما أن حركة الترجمة التي نشطت في عهد المأمون آتت أكلها في الأندلس، وحين نقرأ كتاب ابن حزم في المنطق نجد أثر ذلك واضحًا، كما أن مناقشاته للفرق المتعددة في كتابه «الفِصَل» تُنْبِئ عن علم بما تُرْجِمَ في عصره وما قبله من كتب اليونان.

ولعل الفضل في تلك الروح العلمية التي أظلت الأندلس ترجع إلى عبد الرحمن الناصر الذي تولى حكم الأندلس نحو خمسين سنة، وكان محبًّا للعلوم مكرمًا لأهلها، وكذلك كان ابنه «الحَكَم المستنصر» الذي أفاضت كتب التاريخ والتراجم في الحديث عن اهتمامه بالعلم والمعرفة، بل كان هو نفسه عالمًا موسوعيًّا يقضي ساعات طويلة في مكتبته يقرأ، وقلمه في يده يعلق على ما يقرأ، وقَلَّما تجد كتابًا في خزائنه في أي فن كان إلا وله فيه نظر، يكتب فيه بخطه إما في أوله وإما في آخره نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لكثرة مطالعته وعنايته بمختلف الفنون، وكان موثوقًا به حتى صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ أهل الأندلس وأئمتهم ينقلونه من خطه.

ولا ريب أن هذه الكتب التي حَوَتْهَا خزانة «الحكم» كانت تحت نظر ابن حزم ينهل من علمها، ويستمتع بقراءتها قراءة العالم الواعي الذي يفهم ما يقرأ، ويستوعب ما يدرس، حتى آتت القراءة أُكُلَها، فكان هذا التراث الضخم الذي خلَّفه ابن حزم، ومنه كتاب «الفِصَل» الذي تظهر فيه معالم تلك القراءة واضحة جَلِيَّة، ومما يؤكد اطلاع ابن حزم على هذه المكتبة أنها بقيت محفوظة إلى أيام الفتن التي قامت في قرطبة من سنة ٣٩٩هـ إلى سنة ٤٠٣هـ، فقد قال ابن خلدون: ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أنْ بِيعَ أكثرها في الفتنة البربرية، وأمر بإخراجها الحاجب «واضح» وهو من موالي المنصور بن عامر، ونُهِبَ ما بقي منها عند دخول البربر واقتحامهم إياها.

الخلاصة أن الحالة العلمية بالأندلس كانت مزدهرة منتعشة، وأن ابن حزم وجد فيها التربة الخصبة، والمكان الرحب الواسع الثراء بالعلوم والآداب، فنهل من كل علم، وتذوق كل فن فجاء بثقافة واسعة، وحمل علومًا نافعة.

علوم ابن حزم ومعارفه وآثاره العلمية:

أجمعت الروايات والأخبار على عظم منزلة ابن حزم العلمية، وأنه ذو علم غزير وثقافة واسعة، شملت أنواع العلوم والمعارف كلها، سواء أكانت هذه العلوم التي تعتمد على النقل أو العلوم التي تعتمد على العقل، ولم يُنكر تلك المنزلة أحد من العلماء سواء كانوا مؤيدين أو معارضين له، فيقول عنه تلميذه صاعد: «**كان أبو محمد ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة،**

مع توسُّعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار»؛ وقال عنه الذهبي: «**كان – ابن حزم – ينهض بعلوم جمة، ويُجيد النقل، ويحسن النَّظْمَ والنثر**»، والحق أن ابن حزم جدير بهذا الثناء المستطاب، فقد كان نابغة زمانه في مختلف العلوم، إذ إننا لا نجد بابًا من أبواب العلم إلا ضرب فيه بسهم وافر، وتحدَّث فيه حديث الفاهم الواعي.

عاش ابن حزم في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وهو عصر تلاقى فيه الفكران: الشرقي والغربي في رحاب الأندلس، حيث عاش المسلمون جنبًا إلى جنب مع اليهود والنصارى، فكان من شأن هذا الاختلاط ظهور صراع فكري وحركات نجمت عن هذا الاحتكاك العلمي.

كان من أهم ما نبغ فيه ابن حزم من العلوم هو علم الأديان والفرق، حتى إن ابن بسام في مؤلَّفه الزاخر «الذخيرة» قال عنه: «**ولهذا الشيخ – ابن حزم – مع يهود لعنهم الله، ومع غيرهم من أُولِي المذاهب المرفوضة من أهل الإسلام مجالس محفوظة وأخبار مكتوبة، وله مصنفات في ذلك كثيرة، ومن أشهرها كتابه «الفِصَل في الملل والأهواء والنحل**»؛ إلا أنه رغم ذلك فقد نبغ في العديد من العلوم المختلفة والمتباينة ووضع فيها مؤلفات رائدة في مجالها، فألَّف وتحدَّث في علم التفسير، وكان له اهتمام واسع به؛ وأيضًا علم الحديث وكان متعمقًا فيه، ذا دراية واسعة بعلم الجرح والتعديل الملازم لعلم الحديث؛ واعتنى أيضًا بعلم أصول الفقه الذي كان في مقدمة العلوم التي اهتم واعتنى بها؛ كذلك كان له اهتمام وعناية بعلم

القواعد الفقهية، ووضع فيه المؤلفات الرائدة؛ أيضًا كان لابن حزم باع طويل في علم الفقه، ويكفينا دلالة على سعة علم ابن حزم في هذا العلم أنه قال في كتابه الفقهي المعروف بـ«المُحَلَّى شرح المُجَلَّى»: «**وإنما كتبنا كتابنا هذا للعامِّي والمبتدئ وتذكرة للعالم**»، فإذا علمنا أن هذا الكتاب العظيم الحاوي لجملة عظيمة من علوم الشريعة وأحكامها، إنما أَلَّفه للعامي والمبتدئ، فكيف بما أَلَّفه في هذا الفن للعلماء؟!

كذلك كان لابن حزم حظ وافر في التأريخ، ومن جوانب معرفته بالتأريخ ونبوغه فيه، أنه كان ذا دراية ومعرفة واسعة بالأنساب، ناهيك عن تعمقه في السيرة النبوية، أضف إلى ذلك معرفة الواسعة بالتأريخ العام للأمم والبلدان؛ أيضًا كانت لابن حزم مشاركة قوية في الشعر على اختلاف أغراضه وتباينها، فكان يقوله ويَنْظِمه على البديهة، فيأتي بأفضل ما يكون؛ كذلك من جوانب نبوغ ابن حزم: اللفتات التربوية التي حفلت بها بعض كتبه ورسائله، ونجد ذلك واضحًا وجليًّا في كتابيه: «طوق الحمامة» و«الأخلاق والسير».

كان من مؤلفات ابن حزم إضافة إلى ما سبق الإشارة إليه كتاب: «الإحكام لأصول الأحكام»، وكتاب «الإجماع ومسائله»، وكتاب «التقريب لحد المنطق والمدخل إليه»، وكتاب «أخلاق النفس»، وكتاب «الإيصال إلى فهم كتاب الخصال»، كما كان من مؤلفاته كتاب صنفه في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض.

ومما يدلل على عظيم ما سَطَرَتْهُ يدا ابن حزم كمًّا وكيفًا؛ ما رواه عنه ابنه الذي وضح أنه ورث من مؤلفات أبيه نحو أربع مائة مجلد

تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة، ووُصِفَت بأنها تعادل حِمْل بعير، ولم تكن هذه المؤلفات على كثرتها تقتصر على علم أو فن واحد من العلوم أو الفنون، وإنما كانت في علوم وفنون متعددة ومتباينة، حيث ألَّف ابن حزم في المنطق والحديث والأصول والنِّحَل والملل والتاريخ والأنساب والأدب والشعر والنحو واللغة وغيرها.

مما سبق نصل لنتيجة مفادها: أن ابن حزم هو بالفعل شخصية إسلامية أنتجت كثيرًا من المؤلفات، وأحاطت بأكثر العلوم والمعارف التي كانت في عصره في تمكُّن شديد، حيث ترك ابن حزم كتبًا ومصنفات نفيسة، يُدرك المطَّلع عليها بوجه عام مقدرة ابن حزم العقلية على الفهم الدقيق والاستنباط والاستنتاج، وعلى نقد آراء الآخرين ومجادلتهم ومناظراتهم.

يقول ابن حزم متحدثًا بما أنعم الله – جل وعلا – عليه من كثرة التصانيف وسعة التأليف: «**ولنا فيما تحققنا به تأليف جمَّة، منها ما قد تمَّ، ومنها ما شارف التمام، ومنها ما قد مضى منها صدر، ويعين الله على باقيه، لم نقصد به قصد مباهاة فنذكرها، ولا أردنا السمعة فنسمِّيها، والمراد بها ربنا جل وعلا، وهو ولي العون فيها، والملي بالمجازاة عليها، وما كان لله تعالى فسيبدو، وحسبنا الله ونعم الوكيل.**»

امتازت مؤلفات ابن حزم بكثرتها وتنوُّع موضوعاتها، حيث أَلَّفَ في مختلف العلوم والمعارف، بالإضافة إلى ابتكار ابن حزم لموضوعات جديدة لم يُسبق لها، غير أن قسطًا كبيرًا من كتبه قد أُحْرِقَ قبل موته من جرَّاء تأليب العلماء للسلاطين عليه، كما نقل

ذلك جميع من ترجم له، وعن مقدار مؤلفاته وكثرة مصنفاته وفي أي فنٍّ كانت؛ يقول تلميذه صاعد بن أحمد: «**أخبرني ابنه الفضل المُكنَّى أبا رافع أن مبلغ مؤلفاته في الفقه والحديث والأصول والنِّحَل والملل، وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارض نحو أربع مائة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة**»، ثم يعلق صاعد بن أحمد على ذلك قائلًا: «**وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في دولة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر بن جرير بن يزيد الطبري، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفًا**»؛ وقيل عنه في موضع آخر: «**وسمع ابن حزم سماعًا جمًّا، وجمع من الكتب كثيرًا، وألَّف قدرًا كبيرًا في مختلف العلوم لم يَفُقْهُ أحد قبله فيه، إلا ما كان من أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، فإنه كان أكثر أهل الإسلام تصنيفًا.**»

كأنه بذلك يعطي لك الوصفة السحرية للتعمق في العلم، اسمع كثيرًا واقتنِ الكتاب لا لأجل الاقتناء وإنما لأجل القراءة والتعمق فيها، فلا تظن لوهلة أن مواقع الإنترنت وصفحات السوشيال ميديا التي تعجُّ بصنوف المعلومات قد تعطي لك ثقافة، وإنما هي لا تعطي لك أكثر من معلومات هشة واهية لا تمت للأعماق والجذور بصلة، إنما إذا أردت العمق والجذور فعليك بالكتب وليس الروايات، الأخذ عن العلماء وليس أتباع التنمية البشرية.

تلاميذه:

مما اهتم به ابن حزم حال حياته التصدي للتدريس ونشر العلم، فكان له في ذلك همة عالية، فحرص على التأليف والتدريس، وبث

العلوم النافعة، وذلك رغم الصعوبات والمحن التي واجهها في تبليغ علمه، من التنفير وصدِّ التلاميذ عنه وغير ذلك، بل إن هذا الأمر كان من أعالي أمنيات ابن حزم في حياته، حيث يقول في ذلك:

مُنَـايَ مـن الدُّنيـا علـومٌ أبثُّهـا
وأنشُـرُها في كُلِّ بـادٍ وحاضِـر
دُعـاءٌ إلـى القـرآنِ والسُّـنن التـي
تَنَاسـى رِجَـال ذِكْرَهـا في المَحـاضِ

غير أنه مع ما كان عليه من اضطهاد وتضييق، فقد كان هناك عدد من التلاميذ يأخذون عنه، وينشرون أقواله ومنهجه، ومن أبرز تلاميذ ابن حزم الذين أَثْرَوا بمجالسهم ومؤلفاتهم الموسوعية الحياة العلمية بالأندلس: شُرَيح بن محمد بن شريح الرعيني، صاحب كتاب «الكافي في القراءات»، وصاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد التغلبي، وهو من أخصِّ تلاميذ ابن حزم، والحميدي صاحب كتاب «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس»، وغيرهم من العلماء.

صفاته:

تمتع ابن حزم بشخصية فريدة متميزة، جمعت العديد من المحاسن والشمائل العذبة، جعلت منه إنسانًا كريمًا ونبيلًا قبل أن يَضْحَى عالمًا فاضلًا وجليلًا، ومن أهم مزايا وصفات ابن حزم ما يلي:

قوة حفظه، هذه المزية التي استطاع بها استيعاب أبواب العلم، والسيطرة على أقوال الآخرين، واستيعاب أدلتهم وبراهينهم، ولقد شهد غير واحد من أهل العلم له بهذه الصفة، فقال اليسع بن حزم الغافقي: «**أما محفوظه، فبحر عَجَّاج، وماء ثجَّاج، يخرج من بحره مرجان الحكم، وينبت بثَجَّاجه ألفاف النعم في رياض الهمم، لقد حفظ علوم المسلمين، وأربى على أهل كل دين**»؛ وقال فيه الشيخ محمد أبو زهرة: «**وقد آتى عز وجل ابن حزم حافظة واعية، حفظ بها أحاديث رسول الله ﷺ ورتب مصادرها، وارتفع في ذلك إلى مرتبة الحفاظ الكبار، وعلم من آثار الصحابة والتابعين ما جعله فريد عصره في المعرفة بفقههم، وكان حافظًا لسير الأولين يربط علومه التي استحفظها ووعاها بعضها ببعض في تناسق فكري اختص به من بين معاصريه من العلماء والفقهاء.**»

أيضًا من المزايا التي تمتَّع بها ابن حزم: البديهة الحاضرة التي كانت دومًا ما تسعفه باستحضار المعلومات في وقت الحاجة إليها، ومع هاتين الميزتين فقد كان ابن حزم على حظ عظيم من الذكاء وقوة الحجة، بالإضافة إلى ما أُوتي من عمق في التفكير وبُعْد نظر وقوة تأمل ودقة ملاحظة، وهذا يتجلى في مجال دراساته النفسية وبعض دراساته الفلسفية والكلامية.

أيضًا من المزايا الفكرية والعقلية التي تمتع بها ابن حزم نفاذ بصيرته وعمق تفكيره، واستفادته من سعة تجاربه في التعامل مع الناس على اختلافهم وتباين طبائعهم، حيث روى ابن حزم عن نفسه أنه مرَّ يومًا هو وأبو عمر ابن عبد البر صاحب «الاستيعاب»

بسكة الحطابين من مدينة إشبيلية، فلقيهما شاب حسن الوجه، فقال ابن عبد البر: هذه صورة حسنة، فرد عليه ابن حزم: لم نَرَ إلا الوجه، فلعلَّ ما سترته الثياب ليس كذلك!

ما سبق الحديث عنه يحمل مزايا ابن حزم الفكرية والعقلية، أما بالنسبة لمزاياه وصفاته ومناقبه الخُلُقية فكثيرة وجليلة، فقد عُرِفَ ابن حزم بتدينه وصلاحه، وزهده في الدنيا بعد الرئاسة التي كانت له ولوالده، وشدة ورعه وعفَّته وطهره، مما صدَّه عن الوقوع في الرذائل، وحسبنا من ذلك أنه عاش في أول حياته بين الجواري والحِسان، ولكنه مع ذلك كما قيل عنه: «**لم يُقارف معصية، ولم يُباشر فاحشة**»، وهو نفسه كان معتدًّا بمناقبه تلك حتى إنه قال عن نفسه في كتابه (طوق الحمامة) أثناء حديثه عن قبح المعاصي: «**ومع هذا يعلم الله - وكفى به عليمًا - أني بريء الساحة، سليم الأديم، صحيح البشرة، نقي الحجرة، وإني أُقسم بالله أجلَّ الأقسام، أني ما حللت مئزري على فرج حرام قط، ولا يُحاسبني ربي بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومي هذا، والله المحمود على ذلك، والمشكور في ما مضى، والمستعصم فيما بقى.**»

قد ينظر البعض إلى حديث ابن حزم هذا عن نفسه وإشادته بخصاله ومزاياه أن هذا غرور وكِبر، ولكن من يدقق النظر يلحظ أن قوله هذا لا يحمل ذرة من كبر، بقدر ما يحمل اعتزاز المسلم وفخره بنفسه أنه ظل طوال حياته مراقبًا ربه في السر والعلن، والدليل على ذلك أن ابن حزم أرجع الفضل عليه في ذلك إلى ربه تبارك وتعالى؛

ومما يدلل على ذلك قوله عن نفسه: «**والله إني لأعلم من عيوب نفسي أكثر مما أعلم من عيوب الناس ونقصهم.**»

كذلك من أبرز صفات ابن حزم: صفة الوفاء، فقد كان ابن حزم من أكثر الناس اتصافًا بالوفاء، مما جعله مثالًا في الوفاء لأصدقائه وشيوخه ومعلميه، ولكل من يلاقيه ويُخالطه، وكان ابن حزم يفتخر بما أنعم الله – جل وعلا – عليه من نعمة الوفاء، كعادته في الاعتزاز والافتخار بكل نعمة أجاد بها المولى – جل وعلا – عليه، فكان يقول: «**لا أقول هذا ممتدحًا، ولكن آخذًا بأدب الله عز وجل «وأما بنعمة ربك فحدث»، لقد منحني الله – عز وجل – من الوفاء لكل من يَمُتُّ إليَّ بِلُقيا واحدة، ووهبني من المحافظة لمن يتذمَّم منِّي ولو بمحادثة ساعة واحدة، حظًّا أنا له شاكر وحامد، ومنه مستمد ومُستزيد، وما شيء أثقل عليَّ من الغدر، ولَعَمْرِي ما سَمَحَتْ نفسي قط في الفكرة في إضرار مَنْ بيني وبينه أقلُّ ذِمام، وإن عظمت جريرته وكثرت إليَّ ذنوبه، ولقد دهمني من هذا غير قليل فما جزيت على السوء إلا بالحسنى، والحمد لله على ذلك كثيرًا.**»

الوفاء: هذا الخُلق الذي أضحى في زماننا أندر من الندرة ذاتها.

أيضًا من الصفات التي تميز بها ابن حزم وكان يفخر بها: الاعتزاز بالنفس من غير عجب ولا خيلاء.

وله في ذلك نَظْم يقول فيه:

لــي خَلَّتــان أذاقــاني الأســى جُرَعًــا

وَنَغَّصــا عِيشَــتي واســتهلكا جَلَــدي

وفــاءُ صِــدْقٍ فمــا فارقــتُ ذا مِقَــةٍ

فــزال حُــزني عليــه آخِــر الأبَــدِ

وعِــزَّة لا يَحِــلُّ الضيْــمُ ســاحتها

صَرَّامَــة فيــه بالأمْــوال والوَلَــد

ويقول معتدًّا بنفسه ومفتخرًا بما أوتيه من علم وفضل:

أنــا الشَّــمس في جَــوِّ العُلُــوم مُنيــرةً

ولكــنَّ عَيْبــي أَنَّ مَطْلعــي الغَــرْبُ

ولـو أنَّنـي مـن جانـب الشَّـرقِ طالِـع

لجدَّ على ما ضَاعَ من ذِكْرِي النَّهْب

كذلك مما اتصف به ابن حزم الصبر والجَلَد والمثابرة، هذه الصفات والمزايا التي لولاها بعد فضل الله - جل وعلا - ما تمكَّن ابن حزم من تحمل المحن والفتن التي تعرض لها، وتجاوز العقبات والصعوبات التي ألمَّت به في مسيرته الحياتية والعلمية؛ كذلك مما اتصف به ابن حزم الصدق والتواضع والإخلاص لله عز وجل ثم لخلقه، فلم يكن ينافق ولا يخادع، وكان إخلاصه هذا سببًا فيما اتصف به من الصراحة في الحق، والصدع به وإن خالف به الناس، أو عادى به السلاطين.

كذلك من أشهر ما عُرِفَ به ابن حزم إضافة إلى مزاياه ومناقبه آنفة الذكر: الحِدة في طباعه، فكان عنيفًا في مناقشاته ومناظراته، حادًّا في تعبيراته ومحاوراته، شديدًا في الرد على خصومه، إلا أن حدة الطبع

فيه كان لها مبرراتها، وله فيها عذر، حيث كان من أهم أسبابها: ما صرَّح به من المرض الذي أُصيب به عندما قال: «**ولقد أصابتني عِلَّة شديدة، ولَّدت عليَّ رَبوًا في الطحال شديدًا، فولَّد ذلك عليَّ من الضجر وضيق الخُلُق وقلة الصبر والنَّزَق - الخفة والطيش والعجلة - أمرًا حاسبتُ نفسي فيه، إذ أنكرتُ تبدُّل خُلُقي، واشتد عَجَبي من مفارقتي لطبعي.**»

أيضًا من الأسباب التي أبرزت لديه الحدة في الطبع: الجفوة التي لاقاها من الكثيرين في عصره، والكيد الذي بلغ إلى إحراق كتبه، وما توالى عليه من المحن، وتتابع عليه من الفتن، فأنتج ذلك في نفسه إحساسًا بإرادة السوء به، وإنزال الأذى بساحته، إلا أنه مع كل تلك التعقيدات والمضايقات التي تعرَّض لها فإنه يُسْند كثرة تأليفه وتعدد مصنفاته إلى ما لاقاه من مخالفيه وخصومه من نقد وكيد، وإغراء الأمراء به وتحذيرهم منه، حيث أنتجت تلك العداوات التي أثارها خصومه الحدَّة في طبعه، فنتج عن ذلك المثابرة على العلم، والمواظبة على التأليف، والإكثار من التصنيف، حيث يتحدث عن نفسه موضحًا ذلك قائلًا: «**ولقد انتفعت بمحكِّ أهل الجهل منفعة عظيمة، وهي أنه توقَّد طبعي واحتدم خاطري وحمي فكري وتهيَّج نشاطي، فكان ذلك سببًا إلى تواليف لي عظيمة المنفعة، ولولا استثارُهُم ساكني واقتداحُهم كامني ما انبعثتُ لتلك التواليف**»، إلا أنه - كما ذكرنا - لم يكتب الله جل وعلا لأكثرها البقاء.

وكأن لسان حال ابن حزم يعطي درسًا للأجيال المتعاقبة مفادها: لولا المحن ووطأة العقبات والصعوبات التي تعرضت لها فيما

أستقبل من عمري بعد رغد العيش ونعيمه ما كان ابن حزم الأندلسي؛ لذلك نحن لا نستطيع فهم شخصية أحدهم ولا أسلوبه وما اتصف به من حدة أو سرعة انفعال أو دوام الضيق والعبوس، ولا سبب مراميه الفكرية المنحرفة أحيانًا، ولا مُثُله العليا وطباعه ومزاجه إلا إذا عرفنا تلك الأيام التي عاشتها هذه الشخصية، والأحوال التي أظلتها، إلا أن هذا بالطبع ليس مدعاة أن يتعامل كلٌّ منَّا ببعض من قلة الذوق مع الناس من حولنا متحججين لو أنهم عاشوا الظروف التي عشناها لفعلوا أكثر من ذلك، بل فلنجعل ديدننا دومًا:

إنمـــا الأمـــم الأخـــلاق مـــا بقيـــت

فـــإن هُـــمُ ذهبـــت أخلاقهـــم ذهبـــوا

رغم هذا اللسان اللاذع الذي اشتهر به ابن حزم والذي شبَّهه المؤرخون بأنه شقيق سيف الحجاج، إلا أن ابن حزم لم يكن يستخدم هذا اللسان اللاذع إلا في الدفاع عن الحق والذَّوْد عنه، فلم يكن يستخدمه بحال للرد على من يسيء له أو يتهكم به، بل كان يُعرض عنه إعراضًا ممزوجًا بالحكمة ونفاذ البصيرة، ومن المواقف التي تدلل على ذلك رده على رسالة أرسلها له ابن عمه ويُدْعَى المغيرة، فرغم عدم الوقوف على ما كتبه المغيرة في هذه الرسالة إلا أن رد ابن حزم يوضح جليًّا ما تنطوي عليه الرسالة من إساءة وتهكُّم بابن حزم، حيث رد ابن حزم على الرسالة قائلًا: «**سمعت وأطعت، لقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩)، وأسلمت وانقدت لقول نبيه ﷺ: «صِلْ مَنْ قَطعك، وَاعْفُ عَمَّن ظَلمك»، ورضيت بقول الحكماء: كفاك انتصارًا ممن تعرض لأذاك إعْرَاضُك**

عنه، وأقول:

تتَبَّعْ سِواىَ امرأً يبتغي
سِبابَك إنَّ هواك السِّبابُ
فإنِّي أبَيت طِلابَ السفاه
وصنتُ محلِّيَ عَمّا يُعابُ
وقُل ما بدا لك من بعد ذا
وأكثرْ فإنَّ سُكوتي خِطابُ

وأقول:

كفاني بذكرٍ الناسِ لي ومآثري
وما لَكَ فيهم يا ابنَ عمِّيَ ذاكِرُ
عدُوِّي وأشياعي كثيرٌ كذاك من
غدا وهو نَفَّاعُ المساعي وضائر
وإنّي وإن آذيْتني وعَقَقْتني
لمحتملٌ ما جاءني منك صابر

ثناء العلماء وإشادتهم بابن حزم:

أَكْثَرَ الفقهاء والعلماء في الإشادة بابن حزم والثناء عليه، فقال عنه الحميدي وهو من معاصريه وأخص تلاميذه وأشهرهم: «**كان - أي**

أبو محمد ابن حزم - حافظًا عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، مُسْتنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننًا في علوم جمَّة، عاملًا بعلمه زاهدًا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه قبله في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعًا ذا فضائل جمة وتواليف كثيرة، وما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين.»

أما عن قوة حافظته وعِظَم إحاطته بالعلوم والآداب والفنون وكثرة استيعابه لها، يتحدث عنه علي بن بسام الأندلسي، فيقول: «**كان كالبحر لا تكفُّ غواربه، ولا يروي شاربه**»؛ كذلك ممن شهد له من العلماء بالتدين والذكاء والحفظ وببلوغه رتبة الاجتهاد العالية في الفقه وعلوم الإسلام الأخرى؛ الإمام الذهبي، حيث قال: «**ابن حزم الإمام العلامة الحافظ الفقيه المجتهد، كان إليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة الدائرة في العلوم، وكان صاحب فنون، فيه دِين وتورع وتزهُّد وتحرٍّ للصدق**»؛ ثم قال: «**ابن حزم رجل من العلماء الكبار، فيه أدوات الاجتهاد كاملة، تقع له المسائل المحررة والمسائل الواهية كما يقع لغيره، وكلٌّ واحد يؤخذ من قوله ويُتْرَك إلا رسول الله ﷺ.**»

كما أشاد الذهبي بابن حزم في موضع آخر قائلًا: «**ابن حزم الإمام الأوحد، البحر ذو الفنون والمعارف الفقيه الحافظ، المتكلم الأديب، رُزِقَ ذكاءً مُفرطًا وذهنًا سيالًا وكتبًا نفيسة كثيرة، وهو رأس في علوم الإسلام، مُتبحر في النقل، عديم النظير، وكان ينهض بعلوم جمة، يجيد النقل، ويُحْسِن النَّظْم والنثر، وفيه دين وخير ومقاصد جميلة، وله مصنفات مفيدة، وقد زهد في الرياسة، ولزم منزله مُكبًّا على العلم، فلا نغلو فيه، ولا نَجفو عنه، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار**»؛ كذلك أشاد به الذهبي في موضع ثالث قائلًا: «**كان إليه المنتهى في**

الذكاء وحدَّة الذهن وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل والعربية والآداب والمنطق والشعر، مع الصدق والديانة والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب.»

أيضًا من العلماء الذين أشادوا بتقدم ابن حزم في مختلف العلوم، ونيله منها ما لم ينله غيره ابن كثير، حيث قال عنه: «**الإمام الحافظ العلامة، اشتغل بالعلوم الشرعية النافعة، وبرز فيها، وفاق أهل زمانه، وصنَّف الكتب المشهورة، وكان أديبًا طبيبًا شاعرًا فصيحًا، له في الطب والمنطق كتب، وكان من بيت وزارة ورئاسة ووجاهة ومال وثروة**»؛ وقال عنه الإمام السيوطي مسلطًا الضوء على مدى قدراته العقلية وسعة استيعابه، فقال: «**كان صاحب فنون وورع وزهد، وإليه المنتهى في الذكاء والحفظ، وسعة الدائرة في العلوم، أَجْمَعُ أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم.**»

لم تقف الإشادة بابن حزم على المؤرخين المتقدمين والمؤرخين المسلمين، بل تجاوزتهم إلى الإشادة به من قِبَل المؤرخين المتأخرين والمستشرقين، حيث قال عنه المستشرق الإسباني بالنثيا: «**في قرطبة ظهر ابن حزم صاحب التواليف الكثيرة في كل فن، وهو من أفذاذ العلماء المعدودين في تاريخ الأندلس، وإن المتأمل في مؤلفاته وما تحويه من مادة غزيرة لَيَرَى بوضوح أن ذلك الإنتاج الحافل لا يمكن أن يصدر إلا عن حضارة بلغت من التقدم مبلغًا عظيمًا.**»

لم يتم إيراد هذه الأقوال من المؤرخين إلا لكي يتبين لك أخي القارئ مكانة وقدر الشخصية التي نحن بصدد الحديث عنها.

الجدير بالذكر أن ابن حزم نفسه كان معتدًّا بنفسه مقدرًا لها مقدارها، ولم يكن هذا عن كبر أو غرور، وإنما عن علم بقدر ذاته وعلو همته في طلب العلم، والتعالي عن سفاسف الأمور وتوافهها في زمن كان يغرق فيه الحكام ورجال الدولة وأصحاب المناصب، فضلًا عن العلماء والفقهاء إلا مَنْ رحم ربي في بحر من المفاسد والملذات والأُلهيَّات، فكان يقول:

لا تَلُمني لأنَّ سَبْقَة لحظٍ
فاتَ إدراكُها ذَوِي الألباب
يَسْبقُ الكلبُ وثبَةَ الليث في العَدْوِ
وَيَعْلو النُّجال فوق اللباب

المناصب التي تقلَّدها ابن حزم:

كان ابن حزم وفيًّا للبيت الأموي، يعمل على انبعاث الدولة الأموية ويرى أحقيتها في الخلافة دون غيرها، وقد كان ذهابه إلى المِرْيَة تعبيرًا عن هذه الرغبة، إذ كان «خيران العامري» يُظْهِر ميلًا لبني أمية في أول أمره، بَيْدَ أن العيش لم يَطِبْ له في تلك المدينة-المرية-؛ إذ اتهمه خيران واليها من قِبَل الحموديين بالعمل للبيت الأموي لإعادة السلطان إليه، فاتجه نحو بلنسية عندما علم بظهور أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد الأموي الملقب بالمرتضي، وأخذ يدعو لنفسه في بلنسية، وقد كان المرتضي هذا أصلح مَنْ بقي من بني أمية، ويبدو أن ابن حزم كان يأمل أن تنبعث الدولة الأموية على يديه

وتظلل بلاد الأندلس من جديد؛ لذلك أخذ يعاونه حتى صار وزيرًا من وزرائه، بَيْدَ أن أمره لم يبق طويلًا فاغتيل المرتضي وانتهى أمره، ووقع ابن حزم في أيدي أعدائه، وبعد انفلاج هذه المحنة تولى ابن حزم الوزارة لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الذي بايعه أهل قرطبة بالخلافة في رمضان ٤١٤ هـ ولقَّبوه بالمستظهر، وكان عمره حين ذاك اثنين وعشرين سنة، ولم تدم وزارته تلك أكثر من سبعة وأربعين يومًا، إذ ثار على المستظهر ابن عمه المستكفي في طائفة من أراذل العوام، فقتله في نفس السنة.

وبعد ذلك بسنوات عاد ابن حزم للوزارة أيام هشام بن المعتد بالله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر الذي تولى الخلافة بين سنتَي ٤١٨-٤٢٢هـ، وكان هذا آخر عهده بالسياسة والوزارة، حيث طَلَّق المناصب إلى غير رجعة، وأقبل على قراءة العلوم والتفرغ إلى التأليف والتدريس.

كان ابن حزم شخصية فريدة من نوعها اجتمعت فيها الكثير من المتناقضات أو التباينات، وبالتالي كثر حولها الجدل، فكان صاحب رأي حر كما عُرِفَ عنه، وصاحب عقلية متفتحة مستنيرة ومنهجية حديثة، وكان في مرحلة من حياته صاحب شخصية رومانسية شاعرية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد عُرِفَ عنه أنه كان متشددًا أو كما يتضح من مؤلفاته وبعض أفكاره، اتصف بالتشدد والتزمُّت، وكان حادَّ الطبع واللسان في نفس الوقت.

هذا التشدد الذي انطوت عليه شخصية ابن حزم لم تكن متوجهة إلا ناحية من يتطاول على الدين أو يقول فيه غير القول الحق؛ لذلك

نلحظ تشدده مع النصارى واليهود، فكان يجادلهم ويناظرهم ويفتح في وجههم نيران العبارات اللاذعة قوة وليس إساءة، إلا أنه رغم ذلك فإنه كان ليِّن الجانب مع خصومه ومنافسيه غير الشرفاء من العلماء والفقهاء، فلا نجده يقف لهم بالمرصاد كما وقف لليهود والنصارى، بل آثَرَ السلامة، فترك لهم الساحة معتزلًا المناصب، متوجهًا للخلوة بنفسه وعلمه في بلدة أجداده ولبة.

وقيل: إن سبب طعن الفقهاء فيه هو لسانه اللاذع الذي شُبِّهَ بسيف الحجاج، فقال ابن خِلِّكان نقلًا عن ابن عريف: إن لسان ابن حزم وسيف الحجاج كانا شقيقين؛ لذلك «**نفرت عنه القلوب واستهدفه فقهاء وقته فتمالأوا على بغضه، وردوا قوله وأجمعوا على تضليله، وشنَّعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم من الدنو إليه والأخذ عنه.**»

ولعل السبب الذي جعل ابن حزم يترك السياسة والاشتغال بوظائف الدولة إضافة إلى ما تعرَّض له من محن ونكبات هو: انحراف الحكام وتكالبهم على الدنيا؛ لذلك نراه بعد أن يذكر في كتابه «نقط العروس» مَنْ تسمى باسم مضاف إلى الدولة مثل: فخر الدولة وعماد الدولة وعضد الدولة، يقول: «... **ثم انحرف الأمر واتسع، ثم رذل الأمر بالمشرق والمغرب، حتى تسمى هذه الأسماء السماسرة ورذالات الناس؛ ليُرِي الله – عز وجل – عباده هوان ما تنافسوا عليه وغالوا به، وصح قول رسول الله ﷺ: حقيق على الله ألا يرفع الناس شيئًا إلا وضعه الله أو كلامًا هذا معناه، واستبان أن الحقيقة هي العمل لله – عز وجل – والعدل في البلاد، والعمل بمكارم الأخلاق، وحمل**

الناس على الكتاب والسنة، فذلك الذي لا يقدر عليه سخيف ولا يطيقه ضعيف، وبهذا يتبين فضل القوي على الساقط المهين، لا بأسماء يقدر على التسمي بها كل خسيس واهن، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولقد كانت دولة عبد الملك وسليمان والوليد وعمر وهشام لا عضد لها ولا عماد ولا لقب إلا أسماؤهم، وكانت قد طبقت الدنيا طاعة واستقامة، والدولة الآن أكثر ما كانت أعضادًا وعمدًا، وقد طبقت الدنيا ضعفًا ومهانة والله المستعان.»

كذلك قد يكون من ضمن الأسباب التي دعت ابن حزم إلى اعتزال العمل في مناصب الدولة أن الرغبة في العلم والاستزادة منه والإفادة به كانت شغله الشاغل؛ لذلك كان يعدُّ منصبه في الوزارة وتكلُّفه بمهام الدولة وحمله لأعبائها عائقًا له عن التبحر في العلم ووضع بصمة له فيه تظل بقية ما بقي الدهر؛ لذلك قرر اعتزال المناصب والتوجه إلى بلدة أجداده والمكوث فيها متفرغًا لتعليم وتدريس الطلاب، ووضع المصنفات في العلوم والآداب والفنون المختلفة والمتباينة؛ ورغم أنه لم يكن هذا السبب الوحيد الذي دفع ابن حزم لاعتزال المناصب إلا أنه كان الأهم والأَوْلى، حيث إن السبب الآخر هو تكالب علماء وفقهاء عصره عليه، وتأليبهم الحكام ضده، فعندما لم يكن لابن حزم حيلة في الصمود أمام خصومه من العلماء والفقهاء الذين طعنوا فيه، وضاق بهم ذرعًا، هرب إلى حيث يجد مأمنه، وفرغ إلى حيث يرى أنه بمنجاة من أذاهم، وخلص إلى علمه وكتبه.

المحن والابتلاءات التي تعرَّض لها ابن حزم:

كانت حياة ابن حزم سلسلة متلاحقة من المحن والآلام، ما أن يخرج من بليَّة إلا ويستقبل أخرى، فلم تقتصر محنته على خروجه وأهله من منازلهم، ورحيلهم من بلدتهم وموطن عزهم ومجدهم قرطبة إلى المِرْيَة، ثم وفاة أحب الناس وأقربهم إلى قلبه وهم: أبيه وأخيه ومحبوبته، بل توالت عليه الآلام والمحن فتعرض للسجن والنفي والتغريب، ناهيك عن الأَسْر، إلا أنه رغم قسوة هذه المحن التي تعرَّض لها ابن حزم وعائلته يظل من أقسى وأعتى المحن التي تعرض لها هي إحراق كتبه، فلا توجد عقوبة أقسى من أن تمس كتب العالم فضلًا عن مؤلفاته التي قضى فيها الساعات والأيام، بل الشهور والسنوات الطوال.

قام المعتضد حاكم إشبيلية بتمزيق كتب ابن حزم وحرقها علانية، وكان هذا بسبب لسان ابن حزم اللاذع الذي لم يكن يخاف في الله لومة لائم؛ كما أن رفض ابن حزم لهدايا الحكام وأُعْطِياتهم كغيره من العلماء متعللًا باستعانة بعضهم على بعض بالنصارى، وما يأتونه من الأعمال والسلوكيات المخالفة لشرع الله عز وجل؛ أوجد جفوة بينه وبينهم، وتسبب في عداوتهم له، مما جعلهم يُقْصُونه عن قربهم، ويضطهدونه ويضيِّقون عليه، غير أن هذه المواقف المتعنتة من قِبَل الحكام ضد ابن حزم لم تزده إلا إصرارًا على مواصلة مسيرته العلمية وكثرة التأليف، فما زال يناظر ويناضل، ويكتب في نصرة منهجه، حتى أصبح مرجعًا علميًّا وفقيهًا مجتهدًا.

ليس من فراغ أن يُخَلَّد ذكر ابن حزم وتجري سيرته على ألسن الجميع حتى يوم الناس هذا، وإنما تكبده للكثير من العناء في طلب العلم وتحصيله حتى أضحى هذه الشخصية الموسوعية التي لا يُشَقُّ غبارها، ناهيك عن تحمُّله الكثير من المحن العاتية، هذه العوامل هي التي صنعت منه ابن حزم الأندلسي؛ فتذكر أن المحن هي التي تصنع الإنسان وليس المنح، فكان حَرِيٌّ بابن حزم أن يَركن إلى الدَّعة والراحة والنعيم المقيم في الدنيا ممثلًا في الملذات والملهيات بما توفر له من رغد العيش لكنه أبى كل الإباء إلا أن يسطر اسمه في التاريخ بحروف النور.

كان ابن حزم مهاب الجانب؛ لما تمتع به من مكانة مرموقة سواء على المستوى الشخصي أو المستوى العلمي، وعلى الرغم مما تمتع به ابن حزم من هذه المزايا التي قَلَّما تجدها في غيره إلا أنه تعرَّض للكثير من النكبات والمصاعب الحياتية من غربة وتشريد واعتقال، والكيد والحسد من كل جانب، مع ذلك يظل أفدح ما أَلَمَّ بابن حزم الأندلسي كما هو روى عنه نفسه هي محنة حرق كتبه ومؤلفاته التي أفنى فيها عمره.

نلحظ أن ابن حزم لم يُعجزه اليهود ولا النصارى، وإنما استطاع أن يقف في وجههم ويناظرهم وينتصر عليهم، في حين غلبه بنو جلدته من المسلمين الحاقدين الحاسدين له؛ لذلك لا تحزن إذا وجدت من ينتقدك ويهدم كل ما تفعله بالتقليل منه، فلا يوجد إنسان مهما كان طِيب أصله وصفاء معدنه يخلو من حاقد أو حاسد يُبطن له الشر

ويتمنى زوال النعمة من يده ويتمنى لو كان هو مكانه، فامض في طريقك ولا تلتفت؛ لأن النار إذا لم تجد ما تأكل أكلت نفسها.

ورغم هذه المحنة ممثَّلة في عزوف العلماء والفقهاء عنه وكيدهم له وتحريض الناس عليه، إضافة إلى نفي الحكام له، إلا أنه كانت من أبرز المحن التي تعرض إليها: إحراق بعض كتبه بإشبيلية، ورغم قسوة المحنة عليه إلا أنه امتثل لقضاء الله -جل وعلا- ورضي به.

ونَظَمَ في ذلك قائلًا:

دَعُوني من إحْراق رَقٍّ وكاغدٍ

وقولوا بعلمٍ كي يرى الناسُ منْ يدري

إنْ تَحرِقُوا القِرطاسَ[1] لا تَحرقوا الذي

تَضَمَّنهُ القرطاسُ بَل هو في صَدْرِي

يَسِيرُ معي حَيْثُ استَقَلتْ رَكَائبي

وَيَنزل إنْ أنْزِل ويُدْفنُ في قَبْري

ابن حزم واليهود:

خاض ابن حزم العديد من المناظرات والمناقشات والمجادلات مع أهل الكتاب بصفة عامة واليهود بصفة خاصة، وكان يتغلب عليهم في جُلِّ هذه المناظرات والمناقشات، ولعل من أبرز العوامل التي ساعدته على التغلب عليهم التالي: -

(١) الكتاب.

ما كان يمتلكه ابن حزم من عقلية مرتبة ومنظمة، هذه العقلية التي مكنته من إحسان تقديم المقدمات واستقراء الاستنتاجات، ومن ثم إبراز النتائج للعيان، حيث تميز ابن حزم في عرض موضوعاته الحوارية مع أهل الكتاب بطريقة منهجية منظمة، ناهيك عما اتسم به من طابع الدقة والتمحيص والتحليل، وضع فوق كل هذا مراعاته لمقتضى الحال في عرض هذه المناقشات والحوارات، ومما يدلل على ذلك تحديده أثناء هذه المناقشات معاني الألفاظ التي يوردها، إضافة إلى تجنبه الحشو واللغو والاستطراد تجنبًا للالتباس.

أيضًا من ضمن العوامل التي ساعدت ابن حزم في تغلبه على اليهود: ثقافته الموسوعية، وعلمه الفيَّاض بالتأريخ وعلم الأنساب، هذه الثقافة والموسوعية والعلم الفيَّاض بالتأريخ والأنساب اللذان كانا يستعين بهما أثناء مناظراته ومناقشاته مع اليهود في إثبات فكرته تلك أو اعتراضه ذاك.

إقباله على دراسة كتب اليهود دراسة عميقة وواعية ومتأنية، حيث أقبل على دراسة ما يسمونه التوراة وسائر أسفار العهد القديم، ولم يكتف بالعهد القديم، بل درس شروحًا له، وقرأ أيضًا تاريخ اليهود المنسوب إلى يوسف بن هارون - وهو يوسيفوس الهاروني الذي عاش ما بين عامي ٣٧-٩٥م - وهو حجة لدى أهل الكتاب من يهود ونصارى بصورة عامة، حيث اعتمد ابن حزم عليه في تصنيف كتابه «الملل والنِّحَل»، ووصفه بأنه قصص من تاريخ اليهود وغيرهم، جُمِعَ في زمن المسيح عليه السلام، غير أن ابن حزم قلَّ أن يذكر المصادر التي أخذ عنها، ويكتفي بالإشارة العابرة في أكثر الأحيان، فيقول:

«وفي بعض كتبهم»، وربما ذكر التلمود وبعض الكتب الأخرى، كل ذلك ليدحض حجتهم ببرهان يأخذه من كتبهم المعتمدة عندهم إلى جانب بعض الحجج التاريخية.

حواره المستمر وجداله المتصل مع علماء اليهود وسائر أصحاب النزعات والأفكار، حيث كان يسأل اليهود سؤال الواعي عما خفي عليه، وبخاصة من تحوَّل منهم إلى الإسلام من أهل الكتاب، حيث كان علماء المسلمين يرون مَنْ دخل الإسلام من أهل الكتاب مصدرًا جديدًا يقابل بغيره من المصادر لمعرفة ما في كتبهم وآرائهم؛ لذلك كان أسلوب ابن حزم في مناظرته لخصومه من أهل الكتاب سواءً اليهود أو النصارى: أن يقوم بسرد حجج خصومه واحدة تلو الأخرى، موردًا في كثير من الأحيان أقاويلهم بحذافيرها، ثم يكشف ما تنطوي عليه من البطلان، مناقشًا كل حجة، آخذًا بالأدلة والبراهين من مصادر خصمه التي لا ينكرها، واضعًا نُصْب عينيه الوصول إلى الحق، وليس الانتصار لرأيه وإفحام الخصم.

كثرة هذه المجادلات والمناظرات مع أهل الكتاب، ناهيك عما تميز به ابن حزم من مقدرة علمية عميقة ودقة نظر ونفاذ بصيرة؛ أكسبته دراية ومرانًا، ونمَّت فيه ملكة جعلته على وعي وبصيرة بمواطن القوة والضعف، وخبيرًا بوسائل الإقناع؛ كما أن ابن حزم لم يكن يكتفِي بدراسة آراء الفرق ومعرفة أدلتها، بل كان يبحث عن شتى البواعث النفسية والاجتماعية التي جعلت الفرق تكثر وتتشعب وتختار تلك الآراء.

كان ابن حزم في مناقشته لليهود ونقده لكتبهم يرمي إلى أمرين:

الأول: أن جمهور أهل الكتاب كانوا يرون أن التوراة التي بين أيديهم هي المنزَّلة من عند الله على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن موسى هو الذي كتبها وسلَّمها إلى الأحبار من بني هارون، ثم حُفِظَت من بعده حتى وصلت إليهم، فأراد ابن حزم إبطال هذا الادعاء وإثبات الوضع والتحريف بأشكاله المختلفة لما في أيديهم.

الثاني: أن ثَمَّة تلازم بين عقيدة كل قوم وكتابهم المقدس، فإذا ثبت بطلان الكتاب وتحريفه لزم من هذا فساد العقيدة التي تقوم عليه.

انتهج ابن حزم في تحقيق ما يصبو إليه من مناقشاته لأهل الكتاب النهج التالي:

النظر إلى النصوص ذاتها وما فيها من تناقض واختلاف ومغايرة للواقع الذي كشف عنه من داخل التوراة ذاتها، حيث كان يُحصي الاختلافات والفروق ويتتبعها بدقة، فإذا وجد خطأً كشفه، ثم ساقه دليلًا على بطلان الكتاب وتحريفه، وبذلك استطاع ابن حزم أن يريهم أن توراتهم نفسها تحمل بين جنبيها دليل هدمها وبطلانها.

لم يتجه ابن حزم إلى مناقشة النصوص التي تحتمل وجهين أو أكثر، وتختلف وجهات النظر في تأويلها، بل كان يبتعد عن النصوص الغامضة، والأكثر من ذلك أنه كان يلتمس لأصحابها عذرًا إذا تشاكل عليهم فهمها، ومن ثَمَّ كان يتجه إلى النصوص التي وضح فيها الخطأ أو ظهر فيها التناقض بحيث لا يخفى على أحد، ولا يختلف فيه اثنان؛ لذلك نجده يقول في ابتداء كتاباته: «**نذكر إن شاء الله تعالى ما**

في الكتب المذكورة من الكذب الذي لا يشك كل ذي مُسْكة تمييز في أنه كذب على الله تعالى وعلى الملائكة وعلى الأنبياء عليهم السلام إلى أخبار أُوردها لا يَخفى الكذب فيها على أحد، كما لا يخفى ضوء النهار على ذي بصر.»

قبل أن نتطرَّق للحديث عن ابن حزم ومناظراته مع أهل الكتاب، وأسباب هذه المناظرات التي خاضها ضدهم، والعوامل التي ساعدته في التغلب عليهم، لا بد من عرض نبذة عابرة عن وضع أهل الكتاب عامة واليهود خاصة في الأندلس آنذاك.

وجد اليهود في الأندلس في ظل رحاب الإسلام منجاة لهم مما أصابهم من قهر واضطهاد على أيدي الأوربيين، إذ منحهم المسلمون سماحة وحرية لم يكونوا يحلمون بها، ومع مرور الزمن استطاع بعضهم بدهائه ومكره أن يصل إلى مناصب هامة في الدولة، ولا سيما في القرن الخامس الهجري، كالطبيبين: إسماعيل بن يونس الأعور، وإسماعيل بن القراد، وإسحاق بن يعقوب الذي كان مدير الشرطة في غرناطة.

كان في مقدمة اليهود الذين نالوا حظًّا وافرًا في مناصب الدولة إسماعيل بن نغريلة، وهو من الطارئين على الأندلس، لكنه استطاع بدهائه وحنكته أن ينال ثقة حكام المسلمين، ويحظى بإعجابهم، حتى أصبح وزيرًا للملك باديس بن حبوس، وأخذ يُصرِّف شؤون الدولة، ويشارك في دفَّة الحكم، غير أنه كان صاحب مطامع سياسية وعنصرية، فكان يختار موظفيه من بني جلدته، ومع مُضِي الزمن تطاولوا وبني جلدته على الإسلام وأهله، ومن هنا اشتد الخلاف بين

المسلمين وأهل الكتاب، فكثرت المناظرات والمناقشات وأخذت أشكالًا جديدة من حيث السياسة والتغيير الاجتماعي، وزَرَعَ اليهود بذور الفتنة بين الحكام، وعملوا على إيغار صدورهم ضد بعضهم، واستفحل أمرهم، هذا الاستفحال الذي تبعه الجرأة والاستطالة من قِبَل اليهود على الإسلام وأهله؛ مما أدى إلى استفزاز الناس الذين عبروا عن ذلك بمهاجمة اليهود وتضييق الخناق عليهم في كل أرجاء الأندلس.

نظرًا للظروف السابقة شهدت الأندلس في القرن الخامس الهجري ذروة الخلاف بين الأديان الثلاثة، وكل من اليهود والنصارى يدَّعي أن ما عنده من كتاب مقدس هو آخر ما أنزله الله على رسله، وفيه آخر كلمة من الله، وقامت معركة فكرية بين المسلمين واليهود، تولى كِبْرها ابن نغريلة، فألَّف كتابًا يطعن فيه في الإسلام، وينال من القرآن، ونتيجة لذلك وجد ابن حزم نفسه وجهًا لوجه أمام المجادلين والمتطاولين من أصحاب النزعات، وبخاصة اليهود، فلم يقف موقف المتفرج من تلك الأحداث، بل شَمَّر لها وخاض غمارها.

كان من نتائج هذا الاحتكاك العلمي والمناظرات الكثيرة والمناقشات الدقيقة مع اليهود والنصارى وغيرهما كتب نفيسة، كان في مقدمتها: الرد على ابن النغريلة اليهودي، والفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل، فكانا صورة لذلك الاضطراب، وثمرة لتلك المواجهات، ويُعَدُّ كتاب الفِصَل موسوعة حَوَتْ أديان العالم ونِحَله في ذلك الوقت، فقد ضمَّنه الكثير من المسائل المتفرقة في مناقشة اليهود والنصارى وغيرهما، وفي مناقشة الفرق الإسلامية، وما كانت

تلك الموسوعة لتظهر لولا عمق الثقافة التي يتميز بها ابن حزم وسعتها، حتى أصبح مرجعًا وحجة، قال سيجيل آسين بلاسيوس: «سبق ابن حزم بكتابة الفِصَل أوروبا النصرانية ببضعة قرون؛ لأن تاريخ الأديان لم يُعْرَف فيها إلا في منتصف القرن التاسع عشر.»

ربما ليس من اليسير أن ترسم هذه الأسطر أو هذه الصفحات – مهما كثرت أو حملت من المعاني فضلًا عن الكلمات – صورة واضحة جليَّة لشخصية مرموقة ولها مكانتها مثل شخصية ابن حزم، هذه الشخصية التي لم تعش حياة واحدة، بل عاشت حيوات عدة، فعاشت حياة دينية وأخرى علمية، وثالثة سياسية، كلها تتسم بطابع النضال والثورة والحماسة، وإنما هذا العرض مجرد محاولة بسيطة لتسليط الضوء على بعض من سيرة ومسيرة وحال هذا العلامة الجليل، ولمن يريد الاستزادة فليرجع إلى المصادر والمراجع التي تعرضت للحديث عن هذه الشخصية الفذة، والتي تم إيرادها في بداية الحديث عن فارسنا المغوار فارس المناظرات ابن حزم الأندلسي، حتى يقتدي بسيرتها ونهجها من يبحثون عن قدوات في الفنانين والفنانات والمغنيين والمغنيات، الفارغين والفارغات عن كل قيمة وخلق قويم، فضلًا عن علم ودين.

شعر ابن حزم:

كان من بديع نَظْمِ ابن حزم الأندلسي:

هَـلِ الدَّهـرُ إلَّا مـا عَرفنَـا وأدْرَكنَـا
فجَائعُـهُ تَبقـى ولَذَّاتُـهُ تَفْنَـى
إذا أمكنَـتْ منـه مَسَـرَّة سـاعةٍ
تولَّـتْ كمَـرِّ الطَّـرْف واسـتَخلَفَت حُزْنًـا
إلـى تَبِعـات في المَعـادِ ومَوقـفِ
نَـوَدُّ لدَيْـه أنَّنـا لـم نكُـن كُنَّـا
حَصَلْنَـا علـى هَـمٍّ وإثْـم وحَسْـرة
وفـاتَ الـذي كُنَّـا نَلَـذُّ بـهِ عَنَّـا
حَنِيـن لِمَـا وَلَّـى وشُـغلٌ بمـا أتَـى
وغَـمٌّ لِمَـا يُرْجَـى فعَيْشُـكَ لا يَهْنَـا
كأنَّ الـذي كُنَّـا نُسَـرُّ بكَوْنِـهِ
إذا حَقَّقَـهُ النفـسُ لَفْـظٌ بـلا معنـى

فضلًا أَعِدْ قراءة الأبيات بتأنٍّ وستلحظ أن ابن حزم كأنه جَنَّدَ نفسه لوصف حال زماننا، أو بالأحرى: وصف حالنا مع زماننا، وإن شئت فقل: إن الزمان هو الزمان وإن الطبائع هي الطبائع، فإن لم تتغير الطبائع فلا يحدث تغيير للزمان، فضلاً عن أن يساهم المكان في تغييرها.

كذلك من الأبيات التي سَطَرَتْهَا يد ابن حزم ووصفت أيضًا حال زماننا قوله:

مُنَـاي مـن َ الدُّنيـا علـومٌ أبثُّهـا
وأنشُـرُها في كُلِّ بـادٍ وحاضـر

دُعـاءٌ إلـى القُـرآنِ والسُّـنَنِ التـي
تَنَاسـى رجـالٌ ذكْرَهـا في المَحَاضـر

في الأبيات الأخيرة نلحظ أن ابن حزم الأندلسي يملك هدفًا واضحًا جعله منصوبًا بين عينيه، وهو بث العلوم بين الناس وإرشادهم إلى تعاليم القرآن والسنة التي تناساها الناس في المجالس التي يتناولون فيها كل أنواع الهزل والذنوب من القيل والقال، ولا يفكر واحد منهم أن يذكر من حوله بآية من كتاب الله أو بسنة من سنن حبيبنا المصطفى؛ لذلك نكرر أن طبائع البشر هي كما هي لا تختلف باختلاف الأزمان، كل ما هنالك أن لكل أهل زمان أدواتهم في اللهو والغفلة، والصدود على كل خلق قويم فضلًا عن علم ودين.

بعد حياة طويلة حافلة بالتعلم والتعليم والإكثار من التأليف والتصنيف في مُختلف العلوم والمعارف، توفِّي ابن حزم الأندلسي، وكان ذلك عام ٤٥٦هـ، كما ذكر ذلك تلميذه صاعد بن أحمد نقلًا من خط ابنه أبي رافع، أن أباه توفِّي عام ٤٥٦هـ، وكان عمره آنذاك إحدى وسبعين سنة وعشرة أشهر، وتسعة وعشرين يومًا في بلدة في مَنْتَ لِيشَم وهي البلدة التي كان أصل أسرة ابن حزم منها كما سبق أن ذكرنا.

وأخيرًا تجدر الإشارة أنه أُقِيم في قرطبة تمثال للإمام ابن حزم على باب إشبيلية - أحد أبواب قرطبة -، حيث كان يمر ابن حزم يوميًّا إلى المسجد من سوق العطارين، وقد نُحِتَ على أعلى قاعدة التمثال سطر بالخط الكوفي الأندلسي: «**بمناسبة الذكرى المئوية التاسعة لوفاة أبي محمد علي بن أحمد بن حزم، تقدم قرطبة أصدق التحية لمن تعتبره ابنًا من أعظم أبنائها**»(١)



(١) محمود علي حماية: ابن حزم ومنهجه في دراسة الأديان، دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٨٣، ص٧.

ابن زيدون المخزومي

(الصديق الوفي)

الفقيه عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون المخزومي، هو والد الشاعر المرهف ابن زيدون الذي نحن بصدد الحديث عنه، ولقب الفقيه في الأندلس يعتبر من أكرم ألقاب التكريم؛ لذلك كانوا لا يطلقونه إلا على صاحب العلوم الوفيرة ممزوجة بالأخلاق الجليلة، وقد ترجم له أو عرَّفه القاضي عياض في مؤلَّفِه الزاخر «ترتيب المدارك» قائلًا أنه: «**كان متفننًا في ضروب العلم، جَمَّ الرواية والمعرفة، فصيحًا جميل الأخلاق**»، ومن هذا الوصف يتضح أن والد ابن زيدون كان على قدر كبير من الثقافة وغزارة العلم، إضافة إلى الفصاحة والبلاغة، ناهيك عن تميزه بمكارم الأخلاق ورقيها.

أضف إلى ما سبق أن والد ابن زيدون كان على حظ وافر من الثراء، هذا الثراء والغنى الذي أتاح له مع علمه وخُلقه وفصاحته أن يكون ذا شأن في بلدته، حيث كان معدودًا من عِلْيَة القوم، ونظرًا لهذه المكانة التي تبوَّأها والد ابن زيدون كان ذوو الشأن يستشيرونه في الخطير من أمورهم ويستفتونه في المشكلات العارضة، سواء كانت مشكلات دينية أو اجتماعية أو حتى سياسية.

الجدير بالذكر أن المشورة والفتوى في الأندلس كانتا محصورتين في عدد قليل من كبار الفقهاء، حيث إن الأندلسيين كانوا لا يقدمون أحدًا للفتوى حتى يطول اختباره حيث تُعْقَد له مجالس المناقشات والمناظرات والحوارات مع كبار علماء وفقهاء العصر؛ للوقوف على مدى تمكنه من العلم والفقه ممزوجًا بالحنكة والحكمة، أضف إلى ذلك أن المتصدر للمشورة والفتوى لا بد وأن يكون ذا مال وثروة حتى يتعفف عن أخذ أموال الناس بدون حق مستغلًّا بذلك خطورة المنصب الذي يشغله؛ فتصدُّر والد ابن زيدون لتولي المشورة والفتوى دليل على عظيم القدر والشأن سواء من ناحية العلم والفضل والأخلاق أو المنصب والجاه والسلطان.

عاش الفقيه عبد الله والد ابن زيدون في عصر الفتن الثائرة والثورات الطاحنة بين العرب والبربر والصقالبة من جهة، وبين هؤلاء باعتبارهم مسلمين والمسيحيين من جهة أخرى، وما كان لهذه الصراعات والحروب الطاحنة من نتائج سلبية عرَّضت الكثيرين من ذوي المناصب والرُّتَب إلى القتل أو الأذى والعدوان ومصادرة الأموال؛ رغم إطاحة هذه التقلبات السياسية آنذاك بالكثير من ذوى المناصب والرتب، إلا أن والد ابن زيدون نجى من هذه الفتنة، والسؤال الذي يطرح نفسه، كيف نجا وسَلِمَ والد ابن زيدون من هذه الصراعات، ولم يتعرض لما تعرض له غيره من العلماء والفقهاء وأصحاب المناصب في الدولة من القتل والعدوان ومصادرة الأموال؟! المرجح أن هذه السلامة التي بقي فيها والد ابن زيدون ترجع إلى عدة أسباب مجتمعة، أهمها:

۞ منزلة والد ابن زيدون العلمية، هذه المنزلة التي أحاطته بسياج من الهيبة والرهبة ممزوجة بالاحترام والتقدير.

۞ عصبيته في بني مخزوم ومصاهرته لقيس عيلان، وهي قبيلة كانت صاحبة شأن خطير في الجزيرة العربية ثم في الجزيرة الأندلسية.

۞ بُعد مصدر ثرائه عن مواطن الثورات بقرطبة، حيث كان هذا المصدر ممثلًا في الضِّياع التي يمتلكها في إلبيرة وليس في قرطبة، ونظرًا لتقدير وإجلال البربر له، لم يتعرضوا له ولممتلكاته بأي أذى باعتبارهم كانوا هم أصحاب الكثرة والسلطان في إلبيرة، وأصحاب الصراعات والثورات في قرطبة.

۞ صلاته الوثيقة بجميع الزعماء المعروفين على اختلاف ميولهم وبخاصة بني ذكوان.

۞ أضف إلى ما سبق أنه كان له تلاميذ عديدون يشغلون مراكز علمية ومناصب هامة في الحياة السياسية والاجتماعية.

هذه الأسباب مجتمعة ومُتضافرة، مضافة إلى حنكته ولباقته جعلته بمنأى عن الأحداث العنيفة التي عصفت بكثير من العلماء والفقهاء وذوي الرأي والوجاهة والمكانة في عصره، وبهذه الحنكة واللباقة والمرونة وحسن التدبير التي حازها والد ابن زيدون؛ استطاع أن ينجو من المحنة التي تعرَّض لها صديقه الحميم أبو العباس بن ذكوان، وكانت نتيجتها نفيه عن الأندلس بسبب ميله إلى البربر رغم عصبيته القوية ومكانته الاجتماعية.

مما يدلل بشكل أكثر وضوحًا على ما امتاز به والد ابن زيدون من الدهاء وحسن التدبير أنه حدث بينه وبين فقهاء عصره آنذاك صراع عنيف رجحت فيه كفتهم، لولا أنه أَحْسَنَ الاحتيال واستطاع بدهائه وحيلته أن يفضَّ الجموع التي التفَّت حولهم وأن يكسب أخيرًا الرأي العام إلى جانبه، وأعانه على ذلك تَزَمُّت كثير من الفقهاء، وجمودهم وتمسكهم ببعض النصوص الفقهية التي يخالفهم فيها كثير من الفقهاء، فاستطاع بذكائه وحنكته أن يستغل هذا التزمُّت والجمود ويقلب كفة الصراع إلى جانبه.

أيضًا كان من أهم ما امتاز به والد ابن زيدون ما ذكره ابن بشكوال من أنه: «**كان من أهل النباهة والجلالة والمعرفة باللغة والآداب**»؛ ويصفه ابن الأبَّار بأنه: «**كان من ضروب العلم، جمَّ الرواية، من أهل النباهة والجلالة والمعرفة باللغة والآداب**»، هذه بالنسبة لصفاته الشخصية والعلمية والخُلقية، أما عن صفاته الخَلقية فقد حدثنا عنها القاضي عياض في مؤلفه الزاخر «ترتيب المدارك»، حيث قال: إنه كان «يخضب بالسواد»، بمعنى أنه كان يعتني بصبغ شعره بالسواد حتى لا تظهر عليه علامات المشيب ممثَّلة في الشعر الأبيض، وقد ينظر البعض إلى هذا الفعل أنه تغيير لخلق الله، أو أنه تمسك بالدنيا، أو مضيعة للوقت والأموال فيما ليس منه فائدة أو غيرها من المبررات التي يذمون فيها مَنْ بلغوا من الكبر عتيًّا ولا زالوا يهتمون بأنفسهم وهندامهم، إلا أن المُطَّلِع على شخصية والد ابن زيدون يستطيع أن ينفي عنه كل هذه الاحتمالات؛ لما انطوت عليه شخصيته من أخلاق ورقي؛ لذلك هذا الفعل من قِبَلِ شخصية مثل شخصية والد ابن زيدون إن دلت على شيء، فإنما تَدل على مدى

عنايته بأن يظهر بكامل أناقته وحسن مظهره؛ لما يضيفه هذا الأمر إضافة للعلم والأخلاق من احترام وتقدير لدى الناس الذين يختلط بهم على اختلاف طبقاتهم وشخصياتهم وميولهم بحكم تصدُّره للمشاورة والفتوى.

يظهر أن والد ابن زيدون كان موضع الاعتزاز والتكريم من تلاميذه أيضًا، وإلى هذا يشير شاعرنا ابن زيدون في الرسالة التي كتبها في محنته إلى أستاذه وصديقه أبي بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي حيث يقول: «**ولَعَمْرُك يا سيدي أن ساحة العذر لتضيق عنك، وما تكاد تتسع لك، في إسلامك تلميذك وابن جارك وشيخك، الذي لم تزل متوفرًا عليه آخذًا عنه مقتبسًا منه مع إكثارك من ذكر هذا والاعتداد به وادِّعاء الحفظ له.**»

توفِّي والد ابن زيدون أثناء تفقُّده ضَيْعة له في إلبيرة، ولمكانته العظيمة وثرائه الواسع نُقِلَت جثته إلى قرطبة فدُفِنَ بها عام ٤٠٥هـ، ولما توفِّي رثاه أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء وهو من شعراء الدولة العامرية، وكان كما يقول فيه ابن بسام: «**شيخ الصناعة وإمام الجماعة ومن أكبر مؤسسي فن الموشحات**» في الأندلس.

أما والدة ابن زيدون فلا نعلم عنها شيئًا، وكل ما نعرفه أنه أشار إليها في رسالته إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أفلح حين كان مسجونًا، حيث قال في هذه الرسالة: «**وغبت عن أم أنا واحدها تمتد أنفاسها شوقًا إليَّ، وتفض أجفانها حزنًا عليَّ، والله يرى بكاءها ويسمع لي على من ظلمني نداءها**»، ثم هو يناجي أمه في غياهب السجن هاتفًا بها:

أمقتولــة الأجفــان مــا لــك والهًــا؟

ألــم تــر الأيــام نجمًــا هــوى قبلــي؟

أقلِّــي بــكاءً لســت أول حــرة

طوت بالأسى كشحًا على مضض الثكل

وفي أم موســى عبــرة إذ رمــت بــه

إلــى اليــمِّ في التابــوت، فاعتبــري وأســلي

هذه الإشارات التي دندن بها ابن زيدون مناجيًا أمه تدل على مدى تعلق الشاعر بأمه واستمرار هذا التعلق من الطفولة إلى سن الشباب، كما يتضح أنه كان ابنها الوحيد، وأنها كفلته بعد وفاة أبيه وهو في الحادية عشرة من عمره، فكانت له بمثابة الأب والأم معًا، وكان من المتوقَّع له في سنه الصغيرة تلك، وثروته الواسعة وفقده والده المرشد والموجه، كان من المتوقع له أن ينحرف أو ينصرف عن التعليم أو التوجه إلى معالي الأمور لولا أمه من جهة، وجدُّه لأمه وهو أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم من جهة أخرى، هذا الجد الذي كان له أيضًا عناية بالعلوم والآداب والفنون، هذه المكانة العلمية التي حازها الجد إضافة إلى ما تميز به من الجَدِّ والصرامة أهَّلته لتولي مناصب قضائية وإدارية هامة في الدولة، فقام بها خير قيام لما تمتع به من الحزم وحسن التدبير، حيث كفله الجد بعد وفاة أبيه، وظل متابعًا مراعيًا له مع أمه حتى توفِّي، وكان ابن زيدون آنذاك يبلغ من العمر أربعين سنة.

وبما أن للبيئة أثرها في تكوين شخصية الأفراد، كذلك للوراثة أثرها العميق في تكوين الفرد وميوله الفطرية والذهنية؛ لذلك من الصعب التعرُّف على شخصية الفرد أو ما هو السبب وراء سلوكه هذا أو فِعْلَته تلك دون دراسة بيئته التي نشأ وشبَّ وترعرع فيها، ومن ثَمَّ تأثر بها قبل أن يُؤَثِّر هو فيها؛ كذلك لا بد من معرفة صفات وسمات الأسرة التي عاش في كنفها، وورث منها خصائصه العقلة والجسمية والنفسية وتأثر بتوجيهاتها سواء كانت هذه التوجيهات إيجابية أو سلبية، بقصد أو بدون قصد، مما سبق يتضح لنا أن البيئة التي نشأ فيها ابن زيدون مهَّدت له وسائل الثقافة والتعليم والمضي قدمًا في سبيل طلب العلوم والآداب والفنون، كما أنها ولَّدَت لديه الطموح والنبوغ والتطلع الدائم للأفضل.

نشأة ابن زيدون:

ابن زيدون الذي لُقِّبَ بـ«بحتري الأندلس» أو «بحتري المغرب» لحُسن ديباجة لفظه، ووضوح معانيه، وُلِدَ عام ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م في حي الرصافة[١] بقرطبة، حيث كان أبوه مقيمًا إلى جوار أستاذه الأصيلي، أيضًا من ضمن الدلالة على علو قدر ومكانة أبيه إضافةً إلى ثرائه أنه لم يكن يسكن في هذا الحي إلا عِلْية القوم ممن يمتلكون الثروات والأموال الطائلة، كما هو الحال في زماننا في (مدينتي) أو (الزمالك) أو (المعادي) أو غيرها من المناطق التي يطلقون عليها

(١) الرصافة: مدينة أنشأها عبد الرحمن الداخل، وسماها بهذا الاسم تشبيهًا لها برصافة جده هشام بدمشق.

الأحياء الراقية، والجدير بالذكر أن الرقي هنا يُنْسَب إلى ما يمتلكه أصحاب هذه المناطق من وفرة الأموال والثروات والنفوذ، دون النظر: هل يملكون من الرقي الأخلاقي بقدر ما يملكون من الثروات والأموال والنفوذ؟!

إلا أن هذا لا يعني أن كل سكان هذه الأحياء لا يملكون الرقي، بل يوجد منهم من يملك أعلى درجات الرقي والأخلاق.

كان من الطبيعي أن يكون للرصافة أثرها الفعَّال - لما تمتعت به من بهاء المنظر وجمال الطبيعة - في أن يكون ابن زيدون صاحب حس مرهف، وموهبة شعرية ونثرية تنمو يومًا بعد يوم، ناهيك عما تمتع به من الذوق الجميل والراقي.

لذلك نجد ابن حيان يصفه: «**بسعة الذرع وتدفق الطبع وغزارة البيان ورقة حاشية البيان**»، ويقرر أن هذه الصفات «**هي الصبح الذي لا يُنْكَر ولا يُرَد، والرمل الذي لا يُحْصَر ولا يُعَد**»، وينعته ابن دجنة بأنه «ذو المعارف والفنون»، ويذكر ابن نباتة أنه «**اشتغل بالأدب وفَحَّصَ عن نكته ونَقَّب عن دقائقه إلى أن برع وبلغ من صناعتَي النظم والنثر المبلغ الطائل.**»

هذه الكلمات التي أوردها ابن نباتة في الإشادة بمواهب ابن زيدون في نَظْمِ الشعر والنثر وما تميز به من رهافة الحس، لا تعني أنها نَمَتْ من تلقاء نفسها مع الزمن، وإنما تعني أن هذه المواهب لم تَنْمُ وتترعرع وتؤتِ ثمارًا طيبة حلوة المذاق إلا بتعهد ابن زيدون لها، وعنايته بتنقيتها وتطويرها بحضور مجالس العلماء والفقهاء

والأدباء، ناهيك عن قراءة كل ما تطاله يداه في مختلف العلوم والآداب والفنون؛ ولهذا لا نجد غرابة أن يفخر ابن زيدون بنفسه قائلًا:

ونجَّـذني[1] علـم توالـت فنونـه
كمـا يتوالـى في النظـام سـخاب[2]

أساتذته:

أَلِفَ العلماء والفقهاء أن يذكروا أساتذتهم في كل فن تعلموه أو كتاب درسوه، وقد ورثوا هذا التقليد عن علماء الحديث، فكُتب التراجم الخاصة بطبقات المفسرين أو الفقهاء أو المحدثين أو القضاة تلتزم هذا المنهج التزامًا دقيقًا وبخاصة في الأندلس، وذلك كما نرى في تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، والصلة لابن بشكوال، والتكملة لابن الأبَّار، بل إن بعضهم كان يُؤلف معجمًا خاصًّا بأسماء شيوخه مثل ابن حيان والصدفي، وكنَّا نتمنى أن يسلك مؤلفو الأعمال الأدبية هذا المسلك؛ وذلك لأن مثل هذه المؤلفات تُلْقِي أضواءً كاشفة على نشأة من يترجمون لهم، ولكن للأسف لم يَعْنَ الأدباء كثيرًا بهذا الأمر كما عني به المحدثين ثم المؤرخين من بعدهم.

---

(١) صقلني وهذبني.

(٢) قلادة تتخذ من الأزهار العطرة.

كان أول مَنْ تلقى ابن زيدون العلم على يديه هو والده؛ وذلك لما امتاز به والده من الاطلاع على علوم وفنون شتى كما أوضحنا آنفًا، ثم تلقَّى العلم على يد جده لأمه الذي كفله بعد وفاة أبيه، ثم لزم صديق أبيه أبي العباس بن ذكوان وأفاد من علمه وفقهه، حيث كان أبي العباس ابن ذكوان عالم قرطبة الأول في زمانه، وهو غير أبي بكر بن ذكون صديق ابن زيدون ورفيق دربه؛ كذلك كان من أساتذته أبو بكر بن مسلم بن أفلح النحوي، الذي وجه إليه ابن زيدون رسالته المعروفة بـ«البكرية»، مستغيثًا به في محنته التي تعرَّض لها في قرطبة، والذي نعته فيها بأستاذه وتلميذ أبيه.

ومما لا شك فيه أن عقل ابن زيدون وشخصيته لم تكن من صنع هؤلاء الأعلام فحسب، بل من صنع قرطبة وجامعها الكبير أيضًا الذي كان مثابة جامعة علمية كبرى آنذاك؛ لما كان يُلقى فيه من الدروس وضروب العلم المختلفة والمتباينة، حيث كان ابن زيدون كغيره من فتيان عصره يتحلق في حلقات العلم التي يقوم بها الفقهاء والعلماء والأدباء في هذا المسجد الجامع لينهل من معارفهم وثقافتهم، ويأخذ من آدابهم وعلومهم ما يشحذ به فكره، ويصقل به شخصيته، ويقوي لسانه، ويفصح عن بيانه.

قام ابن بشكوال بوصف أستاذ ابن زيدون أبا بكر النحوي، والذي كان من أول الأساتذة الذين أخذ ابن زيدون العلم على أيديهم بعد والده وجده، فقال فيه: «**كان رجلًا جيِّد الدين حسن العقل متصادنًا لين العريكة واسع الخلق مع نبله وبراعته وتقدمه في علم العربية واللغة راوية للشعر وكتب الآداب**»، ثم تابع ابن بشكوال وصفه لأبي بكر

النحوي موضحًا صفة تعامل هذا الأستاذ مع تلاميذه، هذا التعامل الذي أثمر تلاميذ صاروا فيما بعدُ علماء حملوا على عاتقهم نبراس العلم إلى العالم المجاور، قال ابن بشكوال: «كان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشقيق مجتهدًا في تبصيرهم متلطفًا في ذلك»، ثم تابع ابن بشكوال وصفه مسلطًا الضوء على ما تميز به الشيخ من صلاح الحال وحسن الاعتقاد، فقال كان «**سُنيًّا ورعًا وافر الحظ من علم الاعتقادات سالكًا فيها طريق أهل السنة يقصر اللسان عن وصف أعماله الصالحة.**»

ولا شك أن ابن زيدون انتفع أيما انتفاع بتقدم أستاذه في «علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الآداب»، كما انتفع بثقافته الدينية وإن كان لم ينهج منهجه في الحياة؛ وذلك لاختلاف المواهب الفطرية، ولأن الشاعر كان على العكس من أستاذه، حيث كان تلميذًا يتصف بالطموح والانقياد لنزعات العواطف الوجدانية، والتعلق بأسباب الجمال والحسن.

لم يكن أبو بكر النحوي هو الأستاذ الوحيد لابن زيدون، بل تتلمذ ابن زيدون على يد كثيرين من أعلام عصره المرموقين، وهم الأعلام الذين كوَّن ابن زيدون ثقافته الواسعة استنادًا على الأخذ منهم والتتلمذ على أيديهم، أضف إلى ذلك قراءاته واطلاعه على العديد من الكتب التي حَوَتْهَا مكتبة أبيه وجده لأمه، وغيرها من المكتبات التي عجَّت بها قرطبة آنذاك، ولا شك أن ما تمتعت به أسرة ابن زيدون من ثراء مكَّنه من اقتناء ما يُشبع نهمه للمعرفة من أمهات الكتب في شتى العلوم والآداب والفنون.

أصدقاء ابن زيدون:

يقول الشاعر:

عَنْ المَرء لا تَسَل وسَل عَنْ قَرِينه

فَكُل قَرِين بِالمُقَارنِ يَقْتَدي

كان من الطبيعي أن تَتَكَوَّنْ لابن زيدون صداقات عديدة أتاحتها له مكانته وثروته وحسبه ونسبه، ناهيك عن اتجاهه لطلب العلم وشغفه بالشعر والنثر والأدب، ومن الصداقات المبكرة التي كان لها أثر كبير في حياة ابن زيدون صداقته لاثنين من أقرانه، وهما من سلالة أعيان وعائلات ذات شأن في قرطبة آنذاك، ونظرًا لأن كل صديق يتأثر ويؤثر في أصدقائه، كان لكلٍّ من هذين الصديقين طابعه الخاص وأثره الكبير في حياة شاعرنا ابن زيدون، هذان الصديقان هما: ابن جهور وابن زكوان.

كان ابن جهور يكبر ابن زيدون بثلاث سنوات، فنلحظ أن سنيهما كانت متقاربة، كما كان شغفهما بالدرس والتحصيل متشابهًا، وأسرتيهما من الأسر العريقة، إلا أن ابن جهور امتاز عن صديقه بأنه عاش وليًّا للعهد فترة ثم حاكمًا فترة أخرى، وظل على مودته وصداقته لابن زيدون طيلة الفترتين.

أما ثقافة ابن جهور العلمية فيحدثنا عنها ابن بشكوال فيقول إنه: **«كان حافظًا للقرآن العظيم مجودًا لحروفه كثير التلاوة له، وكان معتنيًا بسماع العلم من الشيوخ وروايته عنهم، سمع في شبيبته علمًا**

كثيرًا ورواه، وقد دوَّن بخط يده أسماء شيوخه وما سمعه منهم، وقد قرأته فوجدت فيه كتبًا كثيرة تدل على العناية بالعلم والاهتمام به.»

قد يكون من الطبيعي أن يمتاز ابن جهور بالصفات والسمات التي فَصَّلَها لنا ابن بشكوال، بحكم نشأته في أسرة عريقة لا تهتم إلا بمعالي الأمور، حيث اشتهر أبوه أبو الحزم ابن جهور بالكثير من المزايا والسجايا الحسنة، ولم يحرم من بعض الصفات السيئة والسلبية شأنه شأن جُلِّ البشر، وبما أن المجال لا يتسع للحديث عن شخصية أبي الحزم ابن جهور نكتفي بذكر موقف واحد عنه؛ وذلك لأننا نفتقده كثيرًا في هذا الزمن، زمن المادية الطاحنة إن لم تكن القاتلة، هذا الموقف ملخصه أن أبا الحزم ابن جهور أثناء توليه الحكم كان يقوم بتوزيع الأموال على التجار وأصحاب الحوانيت في الأسواق على اختلاف تجاراتهم وتباينها، وذلك حتى تكون رؤوس أموال لأعمالهم ومشاريعهم، ولم يكن يطالبهم بأي نسبة من الأرباح، بل لم يكن يأخذ منهم إلا رأس المال الذي بذله لهم، ويترك لهم الأرباح خالصة، ولا يخفى على أحد أن هذا التصرف لم تصل له المدنية الحديثة رغم تطورها وسباقها للزمن، فالبنوك تُعْطِي القروض ولكن بشروط وضمانات قاسية قاصمة للظهر، وأرباح تتجدد عامًا بعد عام، هذه الأرباح التي قد يحدث في كثير من الأحيان أن تستنفد طاقات وأرباح التجار وأعمالهم، وهذا ليس إلا مصداق قول الله – جل وعلا –: ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ**﴾.

نعود إلى أبي الوليد ابن جهور صديق شاعرنا، كان مما أضاف إلى ابن جهور صديق ابن زيدون قيمة فوق قيمته أنه ظل على هذه الحال حتى بعد أن تولى مقاليد الحكم والسلطان، حيث امتاز ابن جهور برقة القلب ولين الجانب، وسلوك طريق العفو والمغفرة والسماحة طوال فترة حكمه، فكان يدرأ الحدود بالشبهات، ويبالغ في ذلك حتى لا يكاد يقيمها ارتكانًا على أنه ليس هناك إمام قائم مُجْمَع عليه؛ وقد ظلت صداقته لابن زيدون قائمة قبل الحكم وبعده حتى اكتهلا، ثُمَّ جدَّت ظروف استدعت فراقهما فتفرقا على غير عداء، وفي هذه الصداقة يقول الفتح بن خاقان: «**وكان له مع أبي الوليد بن جهور تآلف أحرما بكعبته وطافا وسقياه من تساقيهما نطافًا.**»

فضلاً أَعِدْ قراءة هذا الوصف من قِبَل ابن خاقان لكُنْهِ الصداقة التي جمعت بين ابن جهور وابن زيدون ردحًا من الزمن، وستلحظ من هذه المعاني مرهفة الحس عميقة المغزى أنهما بلغا أعلى قمم الصداقة والإخاء؛ مما جعلهما يطوفان بحرم هذه الصداقة والأخوة، ويسترشفا من عبق مائها العذب النقي لزمن ليس باليسير.

استطاع أبو الوليد ابن جهور أن يساعد صديقه ابن زيدون في فراره من سجنه، ثم بذل جهده حتى استجلب العفو عنه من أبيه أبي الحزم ابن جهور، ثم نجح في تقريبه وتكريمه، وإلى هذا يشير ابن حيان بقوله: «**وألقى نفسه يومئذ على أبي الوليد بن جهور في حياة والده أبي الحزم فتشفَّع له وانتشله من نكبته وصيَّره في صنائعه، ولما وَلِيَ الأمر بعد والده نوَّه به وأسنى خطته وقدَّمه في الذين اصطنعهم لدولته وأوسع راتبه وجلله كرامة**»، ونرى أثر هذه الصداقة واضحًا فيما نَظَمَه الشاعر في صديقه الحاكم من قصائد ناطقة بالمودة والصفاء.

كانت الكلفة مرفوعة بين ابن زيدون وبين صديقيه: ابن ذكوان وابن جهور، فقد كان الثلاثة على حداثة سنِّهم يشغلون مناصب هامة ولكنها مختلفة، فابن جهور كان وليًّا للعهد ثم حاكمًا، وابن ذكوان كان قاضيًا خطيرًا وعالمًا كبيرًا، وابن زيدون كان وزيرًا وسفيرًا وشاعرًا مرموق المكانة.

هذه المكانة التي حازها الأصدقاء الثلاثة، والمناصب الحساسة والمرموقة التي تقلدوها لا تعني أنهم كانوا طوال فترة لقاءاتهم يتحدثون عن العلم والفقه والحديث والشعر والنثر، باعتبار تنوع علوم وآداب وفنون كلٍّ منهم، وإنما كان لهم خلوات محببة يطرحون فيها عن كاهلهم أعباء الجلال والوقار، ويطلقون أنفسهم على سجيتها ويعبثون ما طاب لهم العبث المحترم والراقي إذا أَمِنُوا العيون وفضول المراقبين.

ومما يدلل على ما سبق أنه ذات يوم وقع على سَمْع الأصدقاء الثلاثة أن أبا القاسم القاضي التنوخي كان ينادم الوزير المهلبي مع القاضيين: ابن قريعة وابن معروف، وما منهم إلا وله لحية بيضاء طويلة، فإذا طاب لهم المجلس ولذَّ السماع «**وهبوا – طرحوا – ثوب الوقار للعقار، وتناول كلٌّ منهم كأسًا من الذهب مملوءة خمرًا فيغمس فيها لحيته بل ينقعها حتى تتشرب أكثر الشراب، ثم يرش بها بعضهم على بعض، ويرقصون بأجمعهم وعليهم المصبغات، ويصيحون كلما كثر شربهم: هر هر، فإذا أصبحوا عادوا إلى عادتهم في التزمُّت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء.**»

سمع الأصدقاء الثلاثة هذه النادرة فاستجابت لها نفوسهم الشابة الفتيَّة، فنسجوا على منوالها، وقد وصف لنا ابن بسام حالتهم تلك، فقال: «**وكان القاضي أبو بكر بن ذكوان أَجَلَّ من اشتمل عليه ألوانه مجدًا وشرفًا وتفننًا في العلم وتصرفًا، مع دعابة حين خلواته تحل حبى المحتبي**[1]**، ورقاعته عند نشواته كالتنوخي والمهلبي، فإذا أصبحوا بَكَرَ أبو بكر إلى مصادرة ما يتجه عليه الحكم ومواجهته، وأنكر ما كان عليه مع فكاهته، فكأنما في بُرد الإمام، وكأنه وقار يدخل أو شمام**[2]**، مع عدله في قضائه وإنفاذ الحكم بمقتضى الحق وإمضائه، حتى إذا راح الرَّوَاح عادوا إلى القصف وتجاوزوا في ميدانهم كل وصف، إلى أن اختلس أبو بكر منهما وتقلَّص ذيل مؤانسته عنهما فاعتاضا عنه بسواه وأفاضا فيما كانا فيه وما تعدياه.**»

ومن خلال دراسة وتحليل هذه الصداقة؛ وُجِدَ أنها قامت على «**تقارب السن وغزارة العلم ووفرة الأدب وسمو الرُّتَب وعراقة الحسب والنسب**»؛ ولهذا ظل ابن ذكوان وثيق الصلة بشاعرنا حتى مات، وظل ابن جهور وثيق الصلة به إلى أن فرَّقت بينهما الأحداث على غير جفوة أو بغضاء، والإنصاف يقتضينا أن نذكر أن ابن زيدون هو الذي رحل عن بلاط صديقه الحميم إلى بلاط بني عباد.

كان هناك صديق رابع ترك في حياة ابن زيدون أعمق الأثر، وهو الوزير أبو عامر بن عبدوس، وما كنَّا لِنَعُدَّه من أصدقاء ابن زيدون لولا أن ابن زيدون نفسه ذكر ذلك.

---

(١) تحرك الثابت المتمكن في جلسته.

(٢) اسم جبل.

حيث يقول معاتبًا له:

أبـا عامـر: أيـن ذاك الوفـاء؟!

إذ العيـش وسـنان[١] الدهـر غـض

وأيـن الـذي كنـت تعتـد مـن

مصادقتـي الواجـب المفتـرض

أيـن لـي ألـم أضطلـع ناهضًـا

بأعبـاء بـرك فيمـن نهـض[٢]؟

وإن كان هذا العتاب قد تطور فيما بعدُ إلى هجاء عنيف، وذلك بسبب التنافس بين الصديقين على حب ولَّادة بنت المستكفي، وهنا نلحظ أن ابن زيدون عاش نوعين مختلفين بل متضادين ومتناقضين من أنواع الصداقة، فبينما تعطَّرت صداقته بابن ذكوان بعطر الوفاء حتى الممات، وتعطَّرت صحبته لابن جهور بعطر الوفاء، وحفظ المعروف حتى بعد الافتراق، أيضًا عاش نوعًا من الصداقة التي تحوَّلت فيما بعدُ إلى عداء سافر.

قد يتعجب القارئ خاصة إن كان من المهتمين بدراسة التاريخ عامة، والتاريخ الأندلسي خاصة، ويتساءل: لماذا نَعَتْنَا ابن زيدون بـ«الصديق الوفي»، ولم ننعته بـ«العاشق الولهان» أو «أديب العاشقين» على سبيل المثال، بحكم قصة عشقه لولَّادة بنت المستكفي القرطبية؟ الإجابة على هذا التساؤل تتلخص في أن جُلَّ المهتمين

---

(١) غافل عن الإساءة.

(٢) اضطلع بالعبء: نهض به.

بالتاريخ والمعتنين به أو حتى المطلعين عليه من بعيد يعلمون القليل أو الكثير عن ابن زيدون العاشق، مع ذلك قد لا يعلم البعض من هؤلاء ابن زيدون الصديق الوفي، ونظرًا لأن الصديق الوفي في هذا الزمان يُعَدُّ من أندر المعاني النادرة؛ آثرنا إبراز هذا المعنى في حياة شاعرنا ابن زيدون.

وقبل أن ننهي الحديث عن الصداقة لا بد من طرح تساؤل مفاده: من هو الصديق الوفي في رأيك؟ هل هو المصاحب لك والمشارك لك في سفاسف الأمور وتوافهها؟ أم الذي لا تجده إلا وتتجسد لك الدنيا وكأنها ظلام دامس، من كثرة ما ينفثه في روحك من شكوى وضيق وعدم رضى بأي حال مهما كان؟

أم الذي لا همَّ له سوى القيل والقال؟ أم الذي لا تجده إلا وقت راحتك وهنائك، وإذا أعطت لك الدنيا ظهرها ولو لبضعة أيام تبخَّر مثل الزئبق؟! أم ...؟ إلخ، مَنْ هو الصديق الوفي في رأيك؟

اسأل نفسك، وضَعِ النقاط التي ترى من وجهة نظرك أنها من أبرز سمات الصديق الوفي، ثم أَسْقِطْ هذه السمات على مَنْ حولك من أصدقاء، ثم حدِّدْ مَنْ هو الشخص من جملة هؤلاء الأصدقاء الذين حولك الذي يستحق أن تضعه في قائمة الأصدقاء الأوفياء في حياتك.

ولكن قبل هذا لا تنس أن تُسْقِطَ هذه السمات التي ترى أنها أبرز سمات الصديق الوفي على نفسك أولًا، وتساءل: هل أنا صديق وفيٌّ بالفعل؟ أم أنه يُخَيَّل لي أنني صديق وفيٌّ، والحقيقة غير ذلك؟

ابن زيدون والحس المرهف:

كانت قرطبة زمن ابن زيدون درة الأندلس الوضاءة وإحدى كبريات الحواضر العالمية في القرون الوسطى، تفنَّن المسلمون في تشييدها وعمرانها؛ لذا لهج شاعرنا بوصفها في قصائد عديدة، يقول في إحداها:

أقرطبة الغراء هل فيك مطمع؟!

وهل كبد حرَّى لبينك تنقع

وهل لليالك الحميدة مرجع؟

إذا الحسن مرأى فيك واللهو مسمع؟

وإذ كنف الدنيا لديك موطأ

نهارك وضاح وليلك ضحيان

وتربك مصبوح وعصنك نشوان

وأرضك تكسي حين كوك عريان

وتربك مصبوح للنفوس وريحان

وحسب الأماني ظلك المتفيأ

واستمر ابن زيدون في قصيدته يتحدث عن مشاهد قرطبة البهية، ويصف ما تحفل به من روعة وبهاء، حيث تحدث عن «العقيق» و«عين شهدة» و«الجوسق النصري» و«مصنعة الدولاب» و«قصر

ناصح»، أما الزهراء ضاحية قرطبة فقد لهج بها في العديد من قصائده. كان من أعظم القصائد التي جادت بها قريحة ابن زيدون وبلغت شهرتها الآفاق، قصيدته التي سُمِّيَت بنونية ابن زيدون، والتي قال فيها:

أضحى التنائي بديلًا من تدانينا

وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

هذه القصيدة التي كان أدباء الأندلس يتحدون بها أدباء المشرق حتى قالوا فيها: «**مَنْ حفظها - نونية ابن زيدون - وتمذهب للإمام مالك بن أنس، ولَبِسَ البياض وقرأ لورش؛ كان أظرف - أحكم - أهل زمانه**»، وبذلك خالف الأندلسيين المشارقة في قولهم: «**من حفظ قصيدة ابن زريق**[1] **وتختَّم بالعقيق، وتمذهب بمذهب الإمام الشافعي، وقرأ لأبي عمرو كان من أظرف أهل زمانه**»، والأكثر من ذلك أن هذه النونية لابن زيدون بلغ من شهرتها وبُعْدِ صيتها أن نُسِجَت حولها الأساطير، حيث قالوا فيها: «**ما حفظها أحد إلا مات غريبًا**»، وكان لشهرتها وبديع نَظْمِها أن فحول الشعراء آنذاك جعلوها أنموذجًا ينسجون شعرهم على منوالها.

(١) كان لابن زريق قصيدة بلغت شهرتها حين لهج بها لسانه الآفاق، وكان نظمها في الأندلس وهو غريب عن وطنه حينما أحس بقرب الموت، ومطلعها:

لا تعذليه، فإن العذل يولعه

قد قلت حقًّا، ولكن ليس يسمعه

قصة حب ابن زيدون:

الحب كلمة جميلة، فالحب هو أعظم ما في الوجود، وأعظم ما يُبْذَل له الحب هو الله جل وعلا، مع ذلك فالحب قد يُصْرَف أحيانًا لمخلوق كغريزة موجودة في النفوس البشرية، وقد عرف التاريخ في الجاهلية والإسلام كثيرًا من الشعراء الذين ترجموا قصص حبهم إلى أخبار وأشعار، ومنهم على سبيل المثال: المجنون أحد مشاهير مَنْ تُرْجِمَ له بهذا اللقب في كتب السير والتراجم، وبهذا اللقب تَرْجَمَ له الذهبي في سير أعلام النبلاء: «**قيس بن الملوح عشق ليلى العامرية، فطارت لذلك أخباره وأشعاره، طنت بها الآذان، وضجَّت بها البلدان، أُجْبِرَ على فراقها، فجُنَّ جنونه، وصار يهذي هذيان المجنون، أخذه أهله إلى البيت الحرام إلى الحج لعله يطيب، لعله يذهب عنه ما يجد، فلما وقف عند مسجد الخيف في مِنَى، سمع رجلًا ينادي امرأة ينادي لها ليلى، فصاح يا ليلى، حيث ظن أنها ليلاه، ثم سقط مغشيًّا عليه، فلما أفاق قال**»:

وداعٍ دعـا ونحـن بالخيـف مـن منـى
فهيَّـج أشـواق الفـؤاد ومـا يـدري
دعــا باســم ليلــى غيرهــا
فكأنمــا أطـار طيـرًا كان في صـدري

فقيل له: ويحك، تُبْ، فلما أخذوه إلى المسجد الحرام أنشد قائلًا:

أتــوب إليــك يــا رحمــن ممــا
جنــت نفســي فقــد كثــرت ذنوبــي
وأمــا مــن هــوى ليلــى وتــرك
زيارتهــا فــإني لا أتــوب

نظرًا لأن للطبيعة سحرًا خاصًّا يجلب للشعراء وَحْيَهم، فتبدأ رحلتهم مع الإبداع والخيال، ولأن شعراء الأندلس كانوا على درب الشعر العربي سائرين، فقد تأثروا بالفنون المشرقية، وبناءً عليه كان للأندلس نصيب من شعر الحب وقصصه، فما هي أعظم قصة حب تضمنت شعرًا في تاريخ الأندلس؟

الجدير بالذكر أن الشعر الأندلسي كان له طابع خاص من السلاسة والبساطة والبعد عن التعقيد، وغلبت الصور الجمالية على الآثار، كما تميز الشعر الأندلسي بوصف ورثاء الممالك الزائلة والاستنجاد برسول الله - صلى الله عليه وسلم - والصحابة عليهم رضوان الله، فكون تأثر شعراء الأندلس بالشعر المشرقي، لا يعني أنهم وقفوا على حد التقليد، بل تعدوه إلى حد الإبداع والتجويد، وجعلوا منه شعرًا مستقلًّا يرمز إلى الأندلسيين ويعبر عن شخصياتهم دون غيرهم.

كانت ولَّادة بنت المستكفي واحدة من أشهر شاعرات الأندلس، وُلِدَت في بيت الخلافة، نافست الشعراء والأدباء في الشعر وتذوُّق الأدب، وجالست الشعراء وبارزتهم في ميدان الشعر حتى إنها وَصَفَتْ نفسها قائلة:

إني وإن نظر الأنام لبهجتي

كظباء مكة صيدهن حرام

يحسبن من لين الكلام فواحش

ويصدهن عن الخلل الإسلام

احتلت ولَّادة قلب ابن زيدون واشتهر حبه لها حتى صارت حكايتهما محل حديث الناس في قرطبة، بل وظلت قصتهما من نوادر قصص الحب على مر التاريخ، حيث مرت قصة حبهما بمراحل الحب والوَلَه والهيام، ثم الغيرة والهجر بل والهجاء، فكيف بدأت وكيف انتهت؟

كانت ولَّادة ابنة لأم بربرية سوداء، لكن ولَّادة نفسها كانت بارعة في الجمال، وقيل: إن أمها امرأة إسبانية غاية في الجمال، وورثت ولَّادة عنها هذا الجمال الفتَّان الأخَّاذ، وجمعت مع ذلك حبها للثقافة والأدب، وقد تفردت بأمرها وأنشأت لها مجلسًا للشعر والأدب، يجتمع فيه بعض الرجال والنساء.

كان ابن زيدون ممن يحضر مجلس ولادة، ولحبه للشعر والأدب وإجادة نَظْمِه له أحبته ولَّادة، فَجَرَتْ بينهما قصة حب رغم قصر مدتها حيث إنها دامت شهورًا فحسب، إلا أنها صارت حديث الناس في الأندلس آنذاك، وكعادة قصص الحب التي لا تقوم على خير انقطعت سريعًا، قيل: لأن ابن زيدون أحب جارية لولَّادة، وقيل غير

ذلك، المهم أن ولادة وابن زيدون لم تستمر العلاقة بينهما طويلًا، وكان ابن زيدون في ذلك الوقت مقربًا لآل جهور، والتهمة السائدة في ذلك الوقت حب بني أمية، أولئك الذين أَدْبَرَت عنهم الدنيا، فاتُّهِمَ بهذه التهمة ابن زيدون، فسُجِنَ وأُقْصِيَ من جميع ما كان يملك، فأحبت ولَّادة أحد الوزراء في دولة بني جهور، فعظم هذا على ابن زيدون فأرسل إليها الشفعاء، وأرسل إليها شعره ونثره، لكن هذا كله لم ينفع مع ولَّادة، بل إن ولَّادة كانت ترد عليه شعره في مدحها وحبه لها، كانت ترد عليه بشعر الهجاء، وهذا هو النتيجة الطبيعية لحب لا يقوم إلا على المعصية.

كانت ولَّادة بنت المستكفي تنتمي إلى بيت حَسَب ونسب إلا أنَّ سَطْرَ اسمها في صفحات التاريخ لم يكن سببه حسبها ونسبها، وإنما علمها وأدبها، حيث إنها كانت من نساء الأندلس اللاتي أدركنَ قدرًا واسعًا من العلم والثقافة حتى إنها صارت تباري علماء وأدباء عصرها.

كانت ولَّادة من أشهر نساء الأندلس؛ لما تمتعت به من فصاحة لسان وبيان، وجمال عقل وتمام، حتى قيل عنها أنها كانت: «واحدة زمانها، المشار إليها في أوانها، حسنة المحاضرة، مشكورة المذاكرة».

كان لما حَوَتْه ولادة بنت المستكفي بين جنباتها من علم الأدب وفنونه أثره على سلوكها الشخصي ممثلًا في بعض اللمسات الجمالية التي اختصت نفسها بها؛ لذلك نجدها وقد كتبت بالذهب على طرازها الأيمن:

أنــا واللهِ أصلــح للمعالــي

وأمشــي مشــيتي وأتيــهُ تيهًــا

وكتب على الطراز الأيسر:

وأمكــن عاشــقي مــن صَحْــن خــدي

وأعطــي قبلتــي مــن يشــتهيها

ورغم شعرها المبتذل في كثير من الأحيان إلا أنها كانت مشهورة بالصيانة والعفاف، مع ذلك كان هذا الشعر المبتذل سببًا للحديث عنها والطعن فيها، حتى قال عنها المؤرخون أنها: «**أوجدت للقول فيها السبيل؛ بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها**».

كان لولَّادة بنت المستكفي بما حَوَته قريحتها من علوم وآداب وفنون مجلس في قرطبة يغشاه أدباء قرطبة وشعرائها ينشدون فيه الشعر، ويَنْظِمون فيه النثر، عندما تقع عين القارئ على هذه المعلومات عن ولَّادة بنت المستكفي أول ما قد يظنه أن أباها عالم أديب، وإن لم يكن كذلك فهو حكيم خلوق، هذه الحكمة وحسن الخلق هي التي سعت به أن يُعلِّم ابنته العلوم والآداب والفنون باذلًا في ذلك جهده، إلا أن الأمر لم يكن كذلك، إنما كان أبوها جاهلًا لا علاقة له بالعلوم فضلًا عن الآداب والفنون، كما أنه كان ماجنًا لا علاقة له بالأخلاق من قريب أو بعيد.

رغم أن ولَّادة بنت المستكفي من بيت حَسَب ونسب، ناهيك عن ثقافتها وأدبها إلا أن أباها لم يكن بمستوى حسبه ونسبه ولا في مستوى علم وأدب ابنته، حيث إن أباها كان من الشخصيات المستهترة التي لا تلتفت إلى شيء سوى الانغماس في الملذات؛ مما أدى إلى تبديد ثروته، ومن ثَمَّ توجهه إلى التردد على الأغنياء طالبًا للمساعدة، وحتى يتضح للقارئ الكريم إلى أي حال كان انحدار أبيها الأخلاقي نتطرق إلى ما وصفه به المؤرخون حيث قالوا فيه: «**وكان همُّه لا يعدو بطنه وفرجه ليس له فكر فيما سواهما.**»

كانت هذه مجرد ترجمات عابرة لعلماء أجلاء وفقهاء عظماء وشعراء كبار، أضاؤوا بعلومهم وآدابهم وفنونهم - ناهيك عن أخلاقهم ورقيهم - سماء قرطبة خاصة والأندلس عامة، فما ذُكِرَ من ترجمات أو تعريف بهذه الشخصيات قد يكون أقل مما لم يُذْكَر عنها؛ لذلك نهيب بإخواننا وأخواتنا أن يُجندوا ولو القليل من أوقاتهم المهدرة على وسائل التواصل الاجتماعي للرجوع إلى المصادر والمراجع التي تحدثت عن مثل هذه الشخصيات وغيرها، ويحاولوا جاهدين أن يجعلوا من هذه الشخصيات القدوة التي يسيرون على نهجها، والنبراس الذي يهتدون بنوره في ظلمات الطريق.



قرطبة جوهرة العالم



فتح قرطبة

أرجح الأقوال أن اسم «الأندلس» الذي أطلقه المسلمون على شبه الجزيرة الأيبيرية[1] مأخوذ من اسم سكانها الأصليين[2]؛ وهم الفانداليس Vandales فقالوا: فانداليسيا أو فاندالوزيا، ثم تحول الاسم فيما بعدُ وأصبح «الأندلس».

كانت شبه الجزيرة الأيبيرية في منتصف القرن الثاني الهجري (السابع الميلادي) مملكة قوطية[3] عاصمتها طليطلة، تعيش في حالة عارمة من الفوضى والصراع؛ وذلك نظرًا لاستئثار رجال الدين والأشراف بخيراتها، وتحمُّل بقية الطبقات أعباء الجد والعمل، وعيشهم تحت وطأة الذل والمهانة والضيق والتعسف، بل والاضطهاد من قِبَل هؤلاء الأشراف ورجال الدين.

خضعت شبه الجزيرة الأيبيرية قبيل الفتح الإسلامي لحكم القوط الغربيين، وكان ملكها - ويُدْعَى لذريق - قد اغتصب المُلْكَ من

(١) أطلق الجغرافيون العرب على الأندلس «الجزيرة الأندلسية» تجاوزًا مع معرفتهم بأنها شبه جزيرة، وسُمِّيَت نسبة إلى أمة قديمة يقال لها: «الأيبير» Ibere، عمروا هذه البلاد، ولم تُعْرَف أمة استوطنت هذه البلاد قبلها.

(٢) ويقال: إن أول من عمَّر فيها واختطها أندلس بن يافث بن نوح عليه السلام، فسُمِّيَت باسمه. المقري التلمساني: نفح الطيب، ج١، ص٢٤٣.

(٣) بدأ احتلال القوط لشبه الجزيرة الأيبيرية في أوائل القرن الخامس الميلادي، بعد طردهم للوندال وهم أحد القبائل الجرمانية، التي اتجهت إلى احتلال الشمال الإفريقي وطُرِدُوا منه على يد الرومان سنة ٥٣٤م.

أبناء الملك السابق له ويُدْعَى غطشة، ولم يكن أتباع الملك السابق ومؤيدوه فضلاً عن أفراد أسرته راضين عن هذا الحكم، فتحينوا الفرص لاستعادة مُلْكهم الذي اغتُصِبَ منهم، وقد وجدوا ضالتهم في ذلك الوقت عند المسلمين.

كانت سبتة من المدن التي استعصى على المسلمين فتحها؛ ويرجع ذلك لمناعة قلاعها، غير أن تطور الأحداث دفع بصاحبها إلى الارتماء في أحضان المسلمين، حيث اتصل بموسى بن نصير، وحسَّن له فتح الأندلس، بل وقدَّم له المعاونة حتى يتمكن من فتحها، وذلك حتى يحتفظ بولايته على سبتة من ناحية، ومن ناحية أخرى ينتقم من لذريق الذي قام بالاعتداء على ابنته، بالإضافة إلى رغبته في نصرة أسرة الملك غطشة الذي تربطه بهم علاقات وطيدة.

اجتمع موسى بن نصير[1] (ت ٩٧هـ/ ٧١٦م) والي المغرب آنذاك مع يوليان صاحب سبتة؛ فعرض عليه الأخير وحسَّن له فتح الأندلس؛ وذلك لحقده على ملكها الذى قام بالاعتداء على ابنته؛ إلى جانب رغبته في مناصرة أبناء الملك غطشة الذين استنجدوا به، فنالت الفكرة قبولاً لدى موسى بن نصير، وكان صاحب حنكة ودهاء، فلم يُبدِ ليوليان ذلك، وأرسل إلى الوليد بن عبد الملك يخبره، ويستأذنه في فتح الأندلس، فكتب إليه الوليد «**أن خضها بالسرايا حتى تختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد**».

---

(١) موسى بن نصير: صاحب فتح الأندلس، يقال: إن أباه نصير كان أحد الأسرى الذين أَسَرَهم خالد بن الوليد في عين التمر، وفيما بعدُ صار نصير أحد خواص معاوية بن أبي سفيان، ومقدمًا على جيشه، وظل نصير في خدمة بني أمية ومن بعده ابنه موسى الذي وُلِدَ في خلافة عمر بن الخطاب عام ١٩هـ/٦٤٠م،، وقد وجهه الوليد ابن عبد الملك إلى إفريقية عام ٨٨هـ/٧٠٧م، وغزا الأندلس عام ٩٣هـ/٧١٢م، وتوفِّي عام ٩٧هـ/٧١٦م. للمزيد انظر: رجال صنعوا التاريخ - التاريخ الأندلسي.

الجدير بالذكر أن فكرة فتح شبه الجزيرة الأيبيرية هي فكرة إسلامية، بل ويُرْوَى أنها فكرة قديمة تمتد إلى أيام الخليفة الراشد عثمان بن عفان، فقد كان القائد عقبة بن نافع الفهري يفكر في اجتياز المضيق إلى إسبانيا لو استطاع، أما الاتصال بيليان حاكم مدينة سبتة أو بغيره من الإسبان، فإنها كانت مواتية على ما يبدو في الوقت الذي كان موسى بن نصير يفكر في تنفيذ فكرة الفتح.

استدعى موسى بن نصير أحد رجال جيشه ويُدْعَى أبا زرعة طريف بن مالك المعافري، فأرسله على رأس نحو ثلاثة آلاف رجل من البربر، وقيل: أربع مائة رجل، وقيل: مائة فارس وأربع مائة راجل في رمضان سنة ٩١هـ/ يوليه سنة ٧١٠م، فعبر طريف وجنوده إلى الأندلس، ونزل الجزيرة[١] التي سُمِّيَت باسمه، فأغار عليها وعلى المناطق القريبة منها، فأصاب سبيًا ومالًا كثيرًا ورجع سالمًا.

اغتنم موسى بن نصير في السنة التالية فرصة ابتعاد لذريق عن طليطلة لانشغاله بإخماد إحدى الثورات القائمة ضده، فندب مولاه طارق بن زياد[٢] وعقد له الراية على سبعة آلاف من المسلمين، وأمره بالتوجه إلى الأندلس، فعبر طارق البحر، ونزل في الجبل الذى عُرِفَ باسمه (جبل طارق).

---

(١) جزيرة طريف: مدينة صغيرة يحيط بها سور من التراب ويشقها نهر صغير، وقال صاحب نفح الطيب: «أما جزيرة طريف فليست بجزيرة، وإنما سُمِّيَت بذلك الجزيرة التي أمامها في البحر مثل الجزيرة الخضراء.»

(٢) قيل: طارق بن عمرو بن زياد، وقيل: طارق بن زياد بن عبد الله، ذُكِرَ أنه فارسي همذاني، وذكر آخرون أنه بربري من نفزة، فتح جزيرة الأندلس، وإليه يُنْسَب جبل طارق الذى يعرفه العامة بجبل الفتح، وهو في قبالة الجزيرة الخضراء، رحل مع سيده بعد فتح الأندلس إلى الشام وانقطع خبره، للمزيد انظر: رجال صنعوا التاريخ – التاريخ الأندلسي.

نزل طارق بن زياد الأندلس في شعبان عام ٩٢هـ/ ٧١١م، فتمكن هو وجيشه من القضاء على المقاومة التي تصدَّت لهم، وبدأ المسلمون ببسط سلطانهم على المناطق المجاورة لجبل طارق، وجرت لقاءات بين المسلمين والقوطيين انتهت بانتصار المسلمين حتى إن القوط أرسلوا إلى زعيمهم لذريق، وكان على رأس جيش لإخماد ثورة أُقيمت ضده في شمال شبه الجزيرة الأيبيرية، أرسلوا إليه يطلبون نجدته قائلين له: «**أدركنا، فقد غشينا قوم لا ندري أمن أهل الأرض أم من أهل السماء قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيناهم فلتنهض إلينا بنفسك.**»

أدرك لُذْرِيق أن البعوث التي أرسلها لإيقاف زحف الجيش الإسلامي لا طائل من ورائها؛ لذلك قرر حشد رجاله وقيادتهم بنفسه، واستطاع أن يضم إلى جيشه كثيرًا من الأمراء والأشراف والأساقفة، فتَكَوَّنَ منهم جيش ضخم اختلفت الروايات في تقديره بين مائة ألف وتسعين ألفًا، وذكر ابن خلدون أن تعداد الجيش كان أربعين ألفًا، الغريب في الأمر أنه رغم إرسال القوط لملكهم موضحين له هول الموقف الذي هم بصدده لدرجة أنْ بعثوا له قائلين: «**أدركنا، فقد غشينا قوم لا ندري أمن أهل الأرض أم من أهل السماء**» إلا أن هذا لم يجعله يفكر مجرد تفكير في التخلي عن غروره وغطرسته حتى يتمكن من تقدير الأمر قدره، فنجده قَدِمَ إلى لقاء المسلمين وهو على سرير ملكه المحلى بالذهب الذي يحمله بغلان، وعلى رأسه تاجه الملكي المصنوع من الذهب الخالص، ويرتدي أفخر الثياب الموشاة والمزركشة بالذهب والفضة، فالناظر له من قريب أو بعيد يُخَيَّل له أنه قادم لحضور حفل إمبراطوري وليس لصد قوم

جاؤوا للاستيلاء على بلاده، وأقاموا السيوف على رقاب جنده، ولم يكتفِ بذلك بل كلَّف جنده بحمل الحبال التي يهدف منها إلى توثيق المسلمون عقب إيقاعهم في الأسر، وكأنه على يقين من النصر عليهم، وهذا حال المتكبرين والمتغطرسين والجهال على مر العصور.

عندما تناهى إلى سمع طارق بن زياد قدوم جيش لُذْرِيق، كتب إلى موسى بن نصير يستنجده، فأرسل له موسى جيشًا قوامه خمسة آلاف من المسلمين فاكتمل تعداد المسلمين اثنا عشر ألفًا؛ بمجرد النظر لطرفي هذه المعركة التي أوشكت على الاندلاع والتي بلغ تعداد المسلمون فيها اثنا عشر ألف مقاتل، وتعداد عدوهم أربعين ألف مقاتل على أقل تقدير، يتملك قلب الناظر الشفقة على المسلمين لعدم تكافؤ المعركة مع عدوهم على كافة المستويات، فهم بلا عدد ولا عدة مقارنة بأعدائهم، ناهيك عن قتالهم في أرض مجهولة بالنسبة لهم، على الصعيد الآخر نجد أعداءهم تفوَّقوا في العدد والعدة، ناهيك عن معرفتهم بدروب بلادهم ومسالكها، فتُرَى من سيكون النصر حليفه في هذه المعركة غير المتكافئة؟!

هل عوامل النصر هنا تُحْسَب بالورقة والقلم بمعنى من يملك العدد والعدة، ويكون على دراية بمسالك أرض المعركة ودروبها سينتصر لا محالة؟ أم سيكون للمعركة حسابات أخرى؟ بمعنى سيكون النصر فيها حليف من يملك الهدف والرؤية: هدف النصر إلى جانب رؤية مفادها: إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

بالنسبة لمدينة قرطبة فقد كان فتحها سهلًا ميسورًا، فيذكر مؤرخو العرب أن طارق بن زياد بعث قائده مغيث الرومي إلى قرطبة في سبع مائة فارس، فأقبلوا نحو المدينة ليلًا يسترهم الظلام، وقد أغفل حرسها حراسة سورها، ونجح بعض رجال مغيث في ارتقاء ممشى السور، ووثبوا داخل المدينة، وفاجأوا حراس بابها الجنوبي، فقتلوا منهم نفرًا وفتحوا الباب، فتدفقت منه جيوش المسلمين، وفتحوا المدينة عنوة، وكان ذلك عام ٩٢هـ/ ٧١١م، ثم تم فتح الكنيسة التي تحصَّن بها ملك قرطبة بعد حصار دام ثلاثة أشهر عام ٩٣هـ/ ٧١٢م، وأصبحت قرطبة - بعد فتح المسلمين لها - حاضرة الأندلس، واستقر بها ولاة الأندلس منذ عهد أيوب بن حبيب اللخمي بعد أن نقل مقر الإمارة لها، حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس (أي نحو ثلاثة قرون)، واحتفظ أهلها من النصارى بحريتهم الدينية والمدنية مقابل ما كانوا يدفعونه من جزية وفقًا للعهد الذي صولحوا عليه.

تمكَّن المسلمون من السيطرة على أغلب مدن الأندلس مثل: إشبيلية وقرطبة وطليطلة وغيرها من المدن الأندلسية، غير أنهم لم يسيطروا على الأقاليم المتطرفة نظرًا لبرودتها ووعورة مسالكها، ومنها ولاية أشتوريا[1] التي ظلت محتفظة باستقلالها تحت حكم القوط الغربيين.

صارت الأندلس تابعة للخلافة الأموية في دمشق إلى أن قامت الدولة العباسية، وأخذ عمالها في تتبع بني أمية وقتلهم فهرب أحد

(١) ولاية أشتوريا: كانت هذه الولاية النواة التي بدأت منها المقاومة المسيحية للوجود الإسلامي بأرض الأندلس؛ حيث اتسعت رقعة المنطقة المسيحية تدريجيًّا، فشملت جليقية، ثم اندمجت جليقية وأشتوريا فيما عُرِفَ باسم مملكة قشتالة وليون فيما بعدُ، كما قامت مملكتا: نافار وأرجون في منطقة الحدود عند سفح جبال البرانس.

أمراء البيت الأموي إلى الأندلس وهو عبد الرحمن بن معاوية[1] (ت ١٧٢هـ/ ٧٨٨م)، وأقام هناك دولة بني أمية.

إشادة جغرافيو الإسلام ومؤرخيه بالأندلس:

استهلَّ «المقري التلمساني» مؤلفه الزاخر «نفح الطيب» حديثه عن الأندلس قائلًا: «**محاسن الأندلس لا تُسْتَوْفَى بعبارة، ومجاري فضلها لا يشق غباره، وأنَّى تُجارى وهي الحائزة قصب السبق، في أقطار الغرب والشرق**»؛ هذا الوصف إن دل على شيء فإنما يدل على عظيم شأن القطر الأندلسي بما حواه بين جنباته من حضارة زاهرة، لم تنثر عبيرها في حدود هذا القطر فحسب، بل تجاوزته إلى نشر ظلالها الوارفة على الغرب الأوربي، باعتبار أن الأندلس أحد المعابر الرئيسة لعبور الحضارة الإسلامية إلى أوربا.

كما يقول الحميري: «**الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جناتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها.**»

وفي مقابل الثناء السابق، نجد «ابن حوقل» يذم أهل الأندلس قائلًا: «**ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها على مَنْ هي في يده**

---

(١) عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان: وُلِدَ بدمشق عام ١١٣هـ/٧٣١م، وكانت أمه أم ولد بربرية تُدْعَى راح، وهو أحد الأمويين الذين أفلتوا من بطش العباسيين، وذلك بعد استيلاء العباسيين على الخلافة عام ١٣٢هـ/٧٤٩م؛ حيث فر هاربًا إلى المغرب ونزل على أخواله نفزة من برابرة طرابلس، وكان قومه يتحينون له ملكًا بالمغرب، فخلص إلى المغرب، وعندما علم بوصول خبره إلى أحد الموالين لبني العباس فر هاربًا عبر البحر إلى الأندلس، فأعاد مُلْك أجداده بني أمية بها، وذلك بعد تقويضه للفتن وتوحيد الصف، ومن ثَمَّ اجتماع الناس عليه ومبايعته؛ دخل الأندلس سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م، وتوفِّي بها عام ١٧٢هـ/٧٨٨م، وقيل: عام ١٧١هـ/٧٨٧م، فكانت مدة ملكه ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعة أشهر. للمزيد انظر: رجال صنعوا التاريخ - التاريخ الأندلسي.

مع صغر أحلام أهلها وضَعَة نفوسهم ونقص عقولهم، وبُعْدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال.[1]»

فَنَّدَ «ابن سعيد» كلام «ابن حوقل» السابق بقوله: «**وليت شعري إذ سُلِبَ أهل هذه الجزيرة العقول والآراء والهمم والشجاعة فمن الذين دبروها بآرائهم وعقولهم مع مراصدة أعدائها المجاورين لها من خمس مائة سنة ونيِّف؟ ومن الذين حموها ببسالتهم من الأمم المتصلة بهم في داخلها وخارجها نحو ثلاثة أشهر على كلمة واحدة في نصرة الصليب؟!**» وأضاف «ابن سعيد» متهكمًا مما أورده «ابن حوقل»: «**وإني لأعجب منه إذ كان في زمان قد دلفت فيه عباد الصليب إلى الشام والجزيرة وعاثوا كل العَيْث في بلاد الإسلام؛ حيث الجمهور والقبة العظمى، حتى إنهم دخلوا مدينة حلب، وما أدراك! وفعلوا فيها ما فعلوا، وبلاد الإسلام متصلة بها من كل جهة.**»

توسع الأندلسيون في مجالس الإملاء؛ ذلك أنهم كانوا – كما يقول صاحب نفح الطيب – «**في غاية الاستحضار للمسائل العلمية على البديهة**»، حتى إن ابن المتصف النحوي أملى بمدينة بدانية على قول سيبويه «**هذا باب الكلم من العربية عشرين كراسًا، بسط القول**

(١) هذا الذم في أهل الأندلس من قِبَل ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) ليس إلا تعبيرًا عن سياسة الفاطميين العدائية في مصر تجاه الأمويين في الأندلس، فابن حوقل من موالي الفاطميين، ويتضح ذلك العداء بصورة جليَّة بالخطاب الذى أرسله العزيز بالله الفاطمي (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م) إلى الخليفة الحكم المستنصر الأموي (ت ٣٦٦هـ/٩٧٦م) يسبُّه ويهجوه فيه، فرد عليه الحكم المستنصر آنذاك قائلًا: «أما بعدُ، فإنك عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك، والسلام.» فاشتد ذلك على العزيز بالله الفاطمي وأفحمه عن الجواب؛ ومن اللافت للنظر أننا نجد ابن حوقل يشيد في موضع آخر من كتابه «صورة الأرض» بعظمة العاصمة الأندلسية قرطبة.

فيها في مائة وثلاثين وجهًا»، بل وربما «**سئل العالم منهم عن المسألة التي يحتاج في جوابها إلى مطالعة ونظر، فلم يحتج إلى ذلك، ويذكر من فكره ما لا يحتاج معه إلى زيادة**».

لم تتوقف الإشادة بعظمة مدينة قرطبة خاصة والأندلس عامة على مؤرخي الإسلام الذين عاصروا هذه العظمة، أو عرفوها ممن سبقهم، وإنما تعدَّت هذه الإشادة علماء الإسلام المتقدمين إلى المستشرقين المتأخرين، حيث أشاد العديد منهم بقرطبة، ومن ثَمَّ قاموا بمقارنة أوضاعها بأوضاع بلاد الغرب الأوربي آنذاك، وكيف أن هذه النهضة والازدهار الفكري الذي وصل إليه المسلمون جعلت أوربا الغارقة في الظلام الدامس تتجه بكليتها إلى هذه البقعة المباركة المشرقة بأنوار العلم والعرفان، وإلى هذا أشار غوستاف لوبون بقوله: «**مضت مدة طويلة قبل شعور أوربا بهمجيتها، ولم يَبْدُ ميلها للعلم إلا في القرنين: الحادي عشر والثاني عشر من الميلاد، فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا عنهم أكفان الجهل ولَّوا وجوههم شطْر العرب، ولم تكن الحروب الصليبية سببًا في إدخال العلوم إلى أوروبا كما يظن العموم، وإنما أُدْخِلَت إليها من إسبانيا وصقلية وإيطاليا**»، ويقول لين بول: «**ملك المسلمون ثلثي شبه الجزيرة وسموها الأندلس لتمييزها، وأسسوا فيها مملكة قرطبة العظمي التي صارت أعجوبة القرون الوسطى، وحملت مشعل المدنية والثقافة متألقة متوهجة في الغرب، على حين كانت أوروبا غارقة في ظلمات الجهالة والبربرية فريسة للمنازعات والحروب.**»

قرطبة جوهرة العالم

ازدهرت الثقافة في الأندلس ازدهارًا عظيمًا، وحسبنا أن نرجع إلى طبقات الأمم لابن صاعد الأندلسي ونفح الطيب للمقري، وغيرهما من المؤلفات والمصنفات التي وُضِعَت للحديث عن الأندلس لنعرف مقدار ما بلغته الثقافة الأندلسية من نمو وازدهار، وإلى هذا أشار دوزي، فقال: «**كان كل فرد في إسبانيا يعرف القراءة والكتابة، وذلك ما لم يشاهَدْ في وقته في بلد آخر ما عدا إسبانيا الإسلامية**»، **ويوازن دوزي بين الحالة في الأندلس والحالة في أوربا فيقول:** «**كان كل فرد في الأندلس يعرف القراءة والكتابة، على حين كانت أوربا المسيحية تتخبط في دياجير الجهالة إذا استثنينا منهم رجال الدين، وعلى العموم كان أفراد الطبقة الراقية بأوروبا في جهل تام وظلام دامس.**»

نشطت الحركة الفكرية في الأندلس وازدهرت وأصبحت المدن الأندلسية تعجُّ بطلاب العلم والعلماء، وصارت المساجد والمدارس والزوايا وغيرها من المؤسسات العلمية تشهد المناقشات الفقهية واللغوية والأدبية وغيرها من العلوم التي حفلت بها بلاد الأندلس، وصارت المدن الأندلسية نجومًا تتلألأ بما فيها من علماء ومعارف وعلوم.

يأتي في مقدمة المدن الأندلسية التي ازدهرت فيها الحركة الفكرية، بل وكانت عبارة عن النبراس الذى أضاء الطريق للمدن الأندلسية الأخرى التي حَذَتْ حذوها في الازدهار والسير قُدُمًا نحو الرقي والنماء والتطور مدينة قرطبة - عاصمة الخلافة -؛ حيث كان

العلماء يشدُّون إليها الرحال من المشرق والمغرب؛ ليعيشوا في كنف حكامها الذين لم يدَّخِروا جهدًا في تشجيع العلماء على البقاء بجوارهم لتزدان بهم عاصمتهم، وليستزيدوا من علومهم ومعارفهم؛ ومن هنا صارت قرطبة مهبطًا لرواد الثقافة من أعلام الفكر سواء من المشرق أو المغرب، حتى أصبحت تضاهي بغداد من حيث ازدهار العلوم وكثرة العلماء وطلاب العلم بها، خاصة بعد أن طلب عبد الرحمن الناصر بالنداء في جميع أقطار الأندلس «**ألا مَنْ أراد أن يبتني دارًا أو أن يتخذ مسكنًا بجوار السلطان فله من المعونة أربع مائة درهم.**»

بلغت قرطبة أوج عظمتها وازدهارها الحضاري في عهدَي: الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر؛ وذلك لما تمتعت به البلاد من استقرار أمني ورخاء اقتصادي لم تشهده من قبلُ ولا من بعدُ، وصارت مدينة قرطبة في ظل الخلافة الأموية أكبر مدن العالم بعد القسطنطينية، وقد وصفها مؤرخو وجغرافيو العرب، وأشادوا بعظمتها وتفوقها على سائر مدن الأندلس، إذ «**كانت قاعدة الأندلس وقطبها وأم مدائنها ومستقر خلفائها، ودار المملكة في النصرانية والإسلام**»، ويشهد الرحَّالة ابن حوقل مع ما هو معروف عنه من عداء للأمويين بهذه العظمة في قوله: «**أعظم مدينة بالأندلس قرطبة وليس بجميع المغرب لها شبيه، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة أسواق ونظافة محال، وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق**»، وبهذا تفوَّقت قرطبة على سائر المدن الأندلسية الأخرى، وظلت تَنْعَم بهذا التفوق زمنًا حتى

سقطت الخلافة الأموية، ودخلها البربر عام ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م، حيث حوَّلوا آثارها إلى أنقاض، وقضوا على عمرانها وما تميزت به من مظاهر حضارية، ومع ذلك فقد احتفظت قرطبة بتفوقها في الميادين الأدبية والفنية، واستمرت هكذا حتى سقوطها في يد القشتاليين عام ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م.

ويُجْمِل لنا أحد الشعراء ما تفوَّقت به قرطبة على غيرها من المدن الأندلسية بقوله:

بأربـع فاقـت الأمصـار قرطبـة

وهـي قنطـرة الـوادي وجامعهـا

هاتـان ثنتـان والزهـراء ثالثـة

والعلـم أكبـر شـيء وهـو رابعهـا

كما أشاد بها أحد العلماء ويُدْعَى الحجازي قائلًا: «**كانت قرطبة في الدولة المروانية - يقصد الدولة الأموية - قبة الإسلام، ومجمع علماء الأنام، بها استقر سرير الخلافة المروانية، وفيها تمخَّضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء؛ إذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب، ويباري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب، ولم تبرح ساحتها مجرى عوال ومجرى سوابق، ومحط معال وحمى حقائق، وهي من بلاد الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، والزور من الأسد، ولها الداخل الفسيح، والخارج الذي يمتع البصر بامتداده لا يزال مستريحًا وهو من تردد النظر طليح**»؛ وقال عنها

أيضًا: «**وإلى قرطبة كانت الرحلة في الرواية، إذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء، وهي من الأندلس بمكان الرأس من الجسد.**»

تحدَّث ابن سعيد عن أن أحد أحياء قرطبة كان يحوي سبعًا وعشرين مدرسة، ويقصد بها الكتاتيب، حيث إن المدارس لم تكن بعدُ قد ظهرت في الأندلس، هذه الكتاتيب التي أنشأها الحَكَم المستنصر واتخذ لها المؤدبين يعلِّمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن الكريم، وأجرى عليهم الرواتب، هذا في حي واحد من أحياء قرطبة، فكيف بجميع أحيائها، التي بلغت سبعةً وعشرين حيًّا، كما كان بها سبع مائة حمام، ومساجدها ١٦٠ مسجدًا، وكما اشتهرت قرطبة بجامعها الكبير اشتهرت أيضًا بقنطرتها الفخمة البديعة الصنع التي تقع على نهرها الجاري المتدفق.

لم تقف الإشادة بقرطبة عند حد عظمة المدينة وجلالها، بل امتد إلى الإشادة بأهلها، حيث أشاد بفضائل أهل قرطبة الشريف الإدريسي في كتابه الزاخر «نزهة المشتاق»، فقال: «**وفضائل أهل قرطبة أشهر من أن تُذْكَر، ومناقبهم أظهر من أن تُسْطَر، وإليهم الانتهاء في الثناء والبهاء، بل هم أعلام البلاد وأعيان العباد، ذُكِرُوا بصحة المذهب وطيب المكسب وحسن الزيِّ في الملابس والراكب، وعلو الهمة في المجالس والمراتب، وجميل التخصص في المطاعم والمشارب، ولم تَخْلُ قرطبة قط من أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وتجارها مياسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة ولهم مراتب سَنِيَّة وهمم عالية.**»

هذه النهضة العلمية في قرطبة صَحِبَتها نهضة اقتصادية وعمرانية واجتماعية سجلتها المصادر الكبرى في تاريخ الأندلس بصفة خاصة، وفي تاريخ الحضارة العربية بصفة عامة، وحسبنا أن نشير في هذا المقام إلى بعض مظاهر هذه النهضات، يقول ابن حوقل: «**وأما جزيرة الأندلس فتغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر إلى أسباب التملك الفاشية فيها، ولما هي فيه من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته، يملك ذلك منهم مهانهم وأرباب صنائعهم لقلة مئونتهم وصلاح معاشهم وبلادهم.**»

كانت قرطبة مرصوفة شوارعها بالحجارة، ومضاءة شوارعها وضروبها وأزقتها على بُعْدِ عشرة أميال، وذلك عن طريق مصابيح تطلُّ عليها من المنازل المحاذية لها، ويوازن الدكتور «حتى» بين قرطبة حاضرة الأندلس آنذاك في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين وبين لندن وباريس في القرنين: السابع عشر والثامن عشر الميلاديين فيقول: «**إن لندن لم يتحقق لها قنديل واحد عمومي حتى ما بعد ذلك بسبع مائة سنة، وأما في باريس فبعد ذلك ببضعة قرون كان الذي يتخطى عتبة داره في يوم ماطر لا يأمن الخوض في لُجَّةٍ من الوحل.**»

تخيل أن تكون شوارع قرطبة مرصوفة، وشوارعها مضاءة على بُعد عشرة أميال في زمن لم يكن فيه كهرباء فضلاً عن تكنولوجيا، قِسْ ذلك على زماننا حيث طرق السفر الفاصلة بين المحافظات والغارقة في الظلام الدامس اللهم إلا مصابيح السيارات التي بالكاد

تنير أمامها، وترى سطوع مصابيح السيارات الأخرى القادمة من بعيد، وتحاول جاهدة تفادي حدوث الكوارث، التي لا تفتأ تحدث كل يوم والذي يليه.

رحلة الأندلسيين في طلب العلم

وعى المسلمون منذ تفتحت مداركهم العلمية الأهمية الكبرى للرحلة في طلب العلم، وما تشكِّله من قيمة في التحصيل العلمي والتكوين الفكري للشعوب، فأقبلوا على الارتحال والتنقل بين قطر وآخر رغبةً في العلم وطلبًا له حتى عُدَّت الرحلات العلمية من أهم السمات المميزة للثقافية الإسلامية، وعَرَفَت فيما بعد ما يسمى بأدب الرحلات.

قبل أن ندخل في الحديث عن الرحلة في طلب العلم وأهميتها لدى أهل الأندلس لا بد من التطرق إلى ما قاله خوليان ريبيرا في كتابه «التربية الإسلامية في الأندلس» واصفًا أيام الفتح الأولى للأندلس، ومن ثَمَّ الرد على ما قيل: تحدث خوليان ريبيرا عن الأيام الأولى لفتح الأندلس فقال: «**في أيام الفتح الأول انحصر عدد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية في الجاليات العسكرية التي كانت تحتل المدن والقلاع القوية؛ لكي يُخْضِعوا الأرض التي فتحوها، وتميزت الكتب والتعليم بغيابهما، وكل ما هنالك أن المسيحيين احتفظوا بتقاليدهم اللاتينية في نفس لغة أسلافهم، ولكن عندما ارتفع عدد الذين اعتنقوا**

الإسلام، وتطلبت حاجة الدولة رجالًا تعمقوا في دراسة الشريعة الإسلامية، بدأنا نلحظ طلائع استيراد الكتب والمعرفة من المشرق، ولو أنها كانت قليلة محدودة، وانحصرت في العلوم الفقهية والدينية»، إلا أن هذا الزعم غير صحيح، فكما أننا لا نستطيع إنكار ما أضافه الذين اعتنقوا الإسلام من الإسبان إلى الحضارة الأندلسية، كذلك لا نستطيع إنكار أن أعداد المسلمين الذين توالوا على الأندلس عامًا بعد آخر لا تُحْصَى ولا تُعَدُّ، وهو ما يؤكده صاحب نفح الطيب؛ حيث قال: «**اعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لا تحصر الأعيان منهم، فضلًا عن غيرهم، ومنهم من اتخذها وطنًا وسيَّرَها سكنًا، إلى أن وافته منيته، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قُضِيَت بالأندلس أمنيته**»، وكان من بينهم عدد من التابعين بل وبعض الصحابة، وقد أشرنا إلى بعض منهم في الصفحات السابقة.

لم يكن يهاجر إلى الأندلس إلا من كان يمتلك الملكات والمواهب التي تؤهله لمجابهة المشاق والمخاطر التي ستواجهه جراء انتقاله من بلده إلى بلد آخر بمنأى عن بلدان العالم الإسلامي لا علم له بأرضه وعاداته وتقاليده ونُظُمه، فهذه الملكات التي امتاز بها المهاجرون هي التي مكَّنتهم من أن يجعلوا الأندلس أحد مراكز الحضارة الإسلامية؛ يقول المؤرخ الإنجليزي نيفيل بارير: «**إن الأندلس بالنسبة للعرب بلاد ما وراء البحار، أي إنه بلاد المهجر البعيد الذى ينهض إليه كل رجل جريء مغامر يريد أن يفتح لنفسه بابًا واسعًا من أبواب الرزق والرفاهية، ومن البديهي أن يكون المهاجرون إلى الأندلس من خيرة العناصر العربية والبربرية التي أسلمت وأظهرت قدرة على مجابهة الصعاب، ويؤكد ذلك أن الأندلسيين جعلوا من وطنهم واحدًا من**

أزهى بلاد الإسلام، وأقاموا وراء البحر دولة مجيدة هي الدولة الأموية الأندلسية ودولاً أخرى غيرها، وأقاموا صرح حضارة لا زلنا نفخر بها إلى اليوم، ومدُّوا جسرًا حضاريًّا عبرت به حضارة العرب إلى بلاد الغرب الأوربي.»

كانت الرحلة لأداء فريضة الحج من الأندلس أو الغرب الإسلامي عامة إلى المشرق متوالية ومتتابعة، وكانت العادة المتبعة أن كل أو أغلب من يذهب لأداء هذه الفريضة يحرص على مقابلة مشاهير علماء المشرق؛ ليدرس ما لديهم من علوم مختلفة ومتباينة، ومن ثَمَّ يعود إلى الأندلس محمَّلاً بهذه العلوم والآداب والفنون، وتكون هذه العلوم التي اكتسبها في رحلته طالت أو قصرت بالنسبة له الذخيرة التي يفتخر ويعتز بها أمام أهله وأصدقائه وجميع المحيطين به، وكان بقدر ما يحمل طالب العلم في المشرق من إجازات[1] علمية ويعود محملًا بها إلى الأندلس بقدر ما تعلو مكانته، وتذيع شهرته، وتزدحم حلقاته العلمية التي يحرص طالب العلم على التحلق حولها آتين من كل حدب وصوب، ورفعة القدر هذه التي يحصل عليها المحمَّل بالعلم من منابعه الأولى من المشرق لا تكون من قِبَل طلابه وتلاميذه الذين يتحلَّقون بحلقته لينهلوا من علمه، كما أنها لا تكون من قِبَلِ أقرانه وأمثاله من العلماء والفقهاء فحسب، بل يرتفع قدره وتعلو منَزلته عند رجال الدولة والأمراء والخلفاء، وهذا يذكرنا بقول الشاعر:

---

(١) الإجازة: هي إذن المحدث لغيره أن يروي عنه حديثًا أو كتابًا من كتبه أو كل كتبه التي يرويها أو مؤلفاته، وإذا سأل طالب العلم شيخه أن يجيزه علمه فأجازه الأخير، يكون الطالب مستجيزًا، والشيخ مجيزًا.

العلـــم يبنـــي بيوتًـــا لا عمـــاد لهـــا

والجهـل يهـدم بيـوت العـز والكـرم

هناك العديد من الأندلسيين الذين اتخذوا من الرحلة إلى المشرق سبيلًا لتحصيل العلوم والتزود منها، ومنهم أحمد بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد خلف الحضرمي[1] (ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٦م) الذي رحل إلى المشرق مرافقًا لأبي بكر بن أحمد الكناني، فأديا فريضة الحج ولقيا هناك بعض الشيوخ، وأخذا العلم عن طائفة منهم، وقَفَلَا إلى الأندلس بعد أن اصطحبا معهما فوائد جمة، وكتبًا تحوي العديد من الغرائب التي لا عهد لأهل الأندلس بها انتسخاها هناك؛ حيث اتفقا أن ينسخ أو يقابل أحدهما غير ما ينسخه أو يقابله الآخر استعجالاً لتحصيل الفائدة، حتى إذا رجعا إلى بلدهما إشبيلية انتسخ كل منهما من قِبَل صاحبه ما فاته نسخه بتلك البلاد، وكان مما جلباه معهما إلى الأندلس من مصنفات: كتاب «الكشَّاف عن حقائق التنزيل»[2] للزمخشري، وكتاب «شرح السنة» لابن مسعود البغوي، بالإضافة إلى كتاب «تاج اللغة وصحاح العربية» لابن حماد الفارابي، وغيرها من المصنفات.

وممن رحل أيضًا إلى المشرق أحمد بن واضح[3] (ت

(١) أحمد بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن محمد بن خلف: أصله من إشبيلية يُكَنَّى أبا العباس، ويُعْرَف بابن رأس غيمة، كان إضافة إلى إتقانه وعنايته بالوراقة شغوفًا بالعلم؛ لذلك ظل طوال عمره مصاحبًا لأهل العلم لا يتخلَّف عن مجالسهم؛ توفِّي بإشبيلية عام ٦٤٣هـ/١٢٤٦م.

(٢) لِيم الفقيه أبو الحسين محمد بن محمد بن زرقون الحضرمي لجلبه هذا الكتاب إلى الأندلس؛ وذلك لما تضمنه من المذهب الاعتزالي فقيل: «قد كانت الأندلس مُنَزَّهة عن هذا وأشباهه، ولم يزل أهلها على مرور الأيام أغنياء عن النظر في مثله، وإن في غيره من تصانيف أهل السنة في التفسير غُنْية عنه.»

(٣) أحمد بن واضح: من أهل بجاية، يُكَنِّي أبا القاسم، كان فقيهًا بصيرًا بالمناظرة متكلماً.

٣٣٩هـ/ ٩٥٠م)، حيث كثرت رحلاته إلى المشرق حاجًّا وتاجرًا وطالبًا للعلم.

كما أسهم الأندلسيون من الرحَّالة الذين غادروا بلادهم متجهين إلى المشرق سواء لأجل التجارة أو الحج في نقل علوم المشرق إلى الأندلس؛ مثل: أحمد بن يبقي الجذامي[١] (ت ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م)، الذي أدخل إلى الأندلس كتبًا غريبة، تفرد برواياتها.

أيضًا انفرد بعض علماء الأندلس بإدخال كتب لم يُدْخِلْها غيرهم إلى بلادهم ومنهم: بَقِيُّ ابن مخلد (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) الذي أدخل إلى الأندلس «مصنف» أبو بكر ابن أبي شيبة كاملاً، وكتاب «الفقه» لمحمد بن إدريس الشافعي الكبير كاملاً، وكتاب «التاريخ» لخليفة بن خياط، وكتابه في «الطبقات»، وكتاب «سير عمر بن عبد العزيز» للدورقي.

وكذلك جودي بن عثمان النحوي العبسي[٢] (ت ١٩٨هـ/ ٨١٤م) الذي أدخل إلى الأندلس كتاب الكسائي، ابن صخر الحجري[٣] (ت

(١) أحمد بن خالد بن عبد الله بن قبيل بن يبقي الجذامي التاجر: من أهل قرطبة، ويُكَنَّى أبا عمر، رحل إلى المشرق ودخل العراق تاجرًا فسمع من علمائها، كما أنه رحل إلى مكة، ولم يحرم نفسه من السماع والتعلم على يد علمائها، وما يُذْكَرُ بشأن رحلته إلى العراق ومكة، كذلك يُذْكَرُ عن رحلته إلى مصر، ذُكِرَ عنه أنه: «كان رجلًا صالحًا صدوقًا، إلا أنه لم يكن له فهم، ولا كان يقيم الهجاء إذا كَتب.»

(٢) جودي بن عثمان العبسي: أصله من طليطلة، رحل إلى المشرق، فلقي الكسائي والفرَّاء وغيرهما من علماء المشرق، وأخذ العلم على أيديهم، له تآليف في النحو؛ منها: «منبه الحجارة»، كما كان له حلقة يدرس فيها النحو، وأدَّب أولاد الخلفاء.

(٣) محمد بن أسامة بن صخر الحجري: يُكَنَّي: أبا يحيى الأندلسي، من أهل سرقسطة، كان معتنيًا بتحصيل العلوم وسماعها، جامعًا للمصنفات فيها، رحل إلى المشرق في مقتبل عمره طلبًا للعلم، وكان ثقة حسن الضبط لكتبه.

٢٨٧هـ/ ٨٩١م)، الذي انفرد بإدخال «المستخرجة»[(١)] لمحمد بن أحمد العتيبي[(٢)] (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م)، وكذلك كان محمد بن مفرج المعافري[(٣)] (ت ٣٧١هـ/ ٩٨١م) أول مَنْ أدخل كتب «إعراب القرآن» و«المعاني» و«الناسخ والمنسوخ» إلى الأندلس.

كما أدخل عيسي بن دينار[(٤)] (ت ٢١٢هـ/ ٨٢٧م) كتب الفقه المالكي، وأدخل أبو عبد الله الخشني[(٥)] (ت ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م) كثيرًا

---

(١) المستخرجة: عبارة عن روايات مطروحة، ومسائل غريبة شاذة؛ حيث كان العتيبي يؤتى بالمسألة الغريبة، فإذا سمعها قال: أدخلوها في المستخرجة؛ كما تحدث عنها - المستخرجة - محمد بن عبد الحكم لأصحابه قائلًا: «أتيت بكتب حسنة الخط تُدْعَى «المستخرجة» من وضع صاحبكم محمد بن أحمد العتيبي، فرأيت جُلَّها كذوبًا، مسائل المجالس لم يوقف على أصحابها، فخشيت أن أموت فتوجد في تركتي فوهبتها لرجل يقرأ فيها»، فقال له أسلم بن عبد العزيز: «فكيف استحللت أن تعطيها إذ لم تستجز أن تكون عندك؟! فسكت.»

(٢) العتيبي: نسبةً إلى عتبة بن أبي سفيان ابن حرب، وقيل غير ذلك، سكن قرطبة، وسمع عن علمائها، كما أنه رحل إلى المشرق وأخذ عن أعلامه، كان حافظًا للمسائل جامعاً لها عالماً بالنوازل، توفِّي بالأندلس عام ٢٥٥هـ/٨٦٩م.

(٣) محمد بن مفرج بن عبد الله بن مفرج المعافري: يُعْرَف بالقبشي، من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق طلبًا للعلم، ثم قفل راجعًا إلى الأندلس حاملاً معه الكتب المذكورة رواية، كان يعتقد مذهب ابن مسرة، ويدعو إليه، وكان قليل العلم، حدَّث وسُمِعَ منه، ثم ترك الناس الأخذ عنه.

(٤) عيسى بن دينار بن واقد الغافقي: أصله من طليطلة، سكن قرطبة، كان إمامًا في الفقه على مذهب مالك بن أنس، ابتدأ أخذ العلم عن أعلام قرطبة، ثم رحل إلى المشرق، وأخذ عن أعلامه، وعقب عودته إلى الأندلس، أصبحت الفتيا تدور عليه لا يتقدمه فيها أحد، من أشهر مؤلفاته في الفقه: كتاب «الهدية»، وهو مكوَّن من عشرة أجزاء، توفِّي بطليطلة عام ٢١٢هـ/٨٢٧م.

(٥) محمد بن عبد السلام بن ثعلبة بن زيد بن الحسن بن كلب بن أبي ثعلبة الخشني صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم): من أهل قرطبة، رحل إلى المشرق قبل عام ٢٤٠هـ/٨٥٤م، ودخل البصرة، وسمع من علمائها، كذلك سمع من علماء بغداد، كما أنه نزل بمصر وسمع من علمائها، أقام في المشرق مدة طويلة مكَّنته من تحصيل الكثير من العلوم والآداب والفنون، كان فصيح اللسان جزل المنطق، ولم يكن محبًّا للمناصب؛ لذلك عندما طلب منه الأمير محمد أن يتولى القضاء أبي قائلًا: «أبيت كما أبت السماوات والأرض، إباية إشفاق لا إباية عصيان، لي ولد وأنا أحبه، لي ولد وأنا أحبه»، فأعفاه الأمير، ولم يكن له كبير علم بالفقه، وإنما كان الغالب عليه حفظ اللغة ورواية الحديث.

من حديث الأئمة واللغة والشعر الجاهلي رواية، ورحل قاسم بن ثابت[1] (ت ٣٠٢هـ/ ٩١٤م) إلى المشرق مع أبيه فسمعا عن علماء مصر ومكة، واعتنيا بجمع الحديث واللغة، فأدخلا للأندلس علمًا كثيرًا، ويقال: إنهما أول مَنْ أدخل كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي إلى الأندلس، وأدخل محمد بن عبد الله بن الغازي[2] (ت ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م) إلى الأندلس علمًا كثيرًا من الشعر والغريب والخبر، وعنه أخذ أهل الأندلس الأشعار المشروحة كلها رواية.

ما سبق يوضح أن الكتب التي حُمِلَت من أقطار المشرق إلى المغرب سواء مدونة أو رواية لا تُحْصَى ولا تُعَدُّ، إلى جانب أن أغلب الأندلسيين كانوا يرتحلون إلى المشرق طلبًا للعلم، وإن كان البعض منهم يرتحل لأغراض أخرى مثل التجارة أو الحج أو غيرهما، فإن ذلك لم يمنعهم من جلب الكتب المشرقية إلى بلدانهم حتى إن علماء التراجم كانوا عند ترجمتم لبعض من علماء الأندلس يذكرون عبارة: «**ولم تكن له رحلة**»، ويقصدون بها الرحلة إلى المشرق لطلب العلم، وكأن العادة جَرَتْ أن يذهب العَالم إلى تحصيل العلم من المشرق، ثم العودة لنشره في الغرب الإسلامي، أو تحصيل البعض منه في المغرب، ثم الرحلة إلى المشرق للاستزادة،

---

(١) قاسم بن ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرف بن سليمان بن يحيى العوفي: أصله من سرقسطة، وُلِدَ بها عام ٢٥٥هـ/٨٦٩م، كان عالمًا بالحديث والفقه متقدمًا في معرفة الغريب والنحو والشعر، وكان مع ذلك ورعاً ناسكاً، وذكر أنه ألَّف كتابًا في شرح الحديث أسماه: «كتاب الدلائل»، بلغ فيه الغاية من الإتقان، إلا أن المنية وافته قبل أن يتمه، فأكمله أبوه ثابت بعده.

(٢) محمد بن عبد الله بن الغازي بن قيس: من أهل قرطبة، سمع من أبيه، رحل إلى المشرق، فأخذ عن علمائه، وعاد إلى الأندلس محمَّلًا بالعلوم التي قام بتحصيلها، ثم خرج من الأندلس مرة أخرى في آخر عمره يريد الحج، وكان ذلك عام ٢٩٥هـ/٩٠٨م، ثم اتجه بعد قضاء الحج إلى طنجة، فتوفِّي بها عام ٢٩٦هـ/٩٠٩م، وكانت كتبه عند أقوام من طنجة.

ومن ثم الرجوع ونشره في موطنه، من ذلك ما أورده ابن الفرضي والخشني في ترجمتهما لابن عوف العكي[1]، إذ يذكران أنه «**لم تكن له رحلة**».

إن أخذ الأندلسيين العلوم والفنون والآداب عن المشرق، لا يعني أنهم لم يبتكروا شيئًا، أو يضيفوا جديدًا على ما أخذوه، بل على العكس فإنهم ابتكروا وأضافوا وأبدعوا في ذلك أيما إبداع، وقد ذكر صاحب نفح الطِّيب العديد من الإضافات والمصنفات التي وضعها الأندلسيون والتي لا تضاهيها المصنفات في كافة العالم الإسلامي آنذاك، ثم أردف ذلك قائلًا: «**وبلدنا هذا على بُعْدِه من ينبوع العلم، ونأيه من محلَّة العلماء، فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مُضَر وديار ربيعة واليمن والشام أعوز وجود ذلك، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها.**»

كما أن رحلة أهل الأندلس إلى المشرق لطلب العلم والحصول عليه من مظانه الأولى، أو الاستزادة منه لا يعني أن أهل المشرق لم يأتوا إلى الأندلس لنفس الغرض، فمع ازدهار الحضارة الإسلامية في الأندلس، وتشجيع الحكام ورجال الدولة للعلوم وتهيئة المناخ المناسب لذلك؛ حيث أصبحت قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية منارات للعلوم والآداب والفنون، نافست في ذلك منارات العلم في المشرق؛ أمثال: بغداد والقيروان والقاهرة والإسكندرية وغيرها؛ لذلك وفد الكثير من المشارقة والمغاربة إلى الأندلس سواء لإلقاء

---

(١) محمد بن عوف العكي: ينتمي إلى رية من مدن الأندلس، كان عالمًا بالمسائل حافظًا لها، ولاَّه الأمير محمد الأموي الصلاة بحاضرة رية، فلم يزل عليها إل أن مات.

ما في جعبتهم من علوم، أو تحصيل ما لم يجدوه في المشرق منها.

كما ذكر بعض المشارقة الذين قدموا إلى الأندلس محمَّلين ببعض الكتب من المشرق مثل أحمد بن محمد بن هارون البغدادي[1] الذي أحضر كتب أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، وبعض كتب الجاحظ رواية، ثم انصرف إلى المشرق بعد أن تردَّد في الأندلس أعوامًا، واستوزر بعد ذلك هناك.

وأبي علي القالي الذى قَدِمَ إلى الأندلس بدعوة من خليفتها آنذاك عبد الرحمن الناصر، ولقد فَقَد بعضًا من هذه الكتب التي جاء محمَّلًا بها أثناء رحلته من المشرق إلى الأندلس.

فالأندلس لم تصبح أحد المعابر الرئيسة لعبور الحضارة الإسلامية إلى أوربا هكذا بضربة حظ، وإنما وصلت لهذه المكانة بجهود أبنائها وتفانيهم في طلب العلم ليس لشيء إلا للعلم، وتسخيره في نهضة أمتهم والسير بها، كما أن حكامها لم يدَّخروا جهدًا في دفع هؤلاء لعلماء وطلاب العلم بكل ما استطاعوا من جهد مادي أو معنوي؛ وذلك للسير بدولتهم قدمًا في سبيل التقدم والرخاء.

طريقة التعليم عند الأندلسيين

كان من مظاهر الحركة العلمية وازدهارها شيوع التعليم في الأندلس، فقد أصبح التعليم عامًّا يشمل الجنسين، وكثرت أماكنه ومؤسساته، وكثرت رحلات الطلاب إلى خارج الأندلس لطلب

(١) قيل: إنه دخل إلى الأندلس متجسسًا.

العلم، وغَدَت اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة بصورة رئيسية، وتعلمها الكثير من الإسبان المسيحيين الذين سُمُّوا المستعربين.

فالأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل هو الذي جعل اللغة العربية لغة التدريس في معاهد أهل الذمة ومؤسساتهم، وكان لذلك الأثر العميق في انتشارها وفي اعتناق الكثيرين للإسلام، والتقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة وبث روح التفاهم والوئام بين المسلمين والنصارى.

حرص الأندلسيون على أن يكون القرآن الكريم هو الأساس في تعليم أبنائهم، ولم يقتصروا على ذلك، بل ضموا إليه تعليم اللغة العربية ورواية الشعر وتعليم الخط، وقد أفادهم هذا المنهج في ترسيخ المعارف المتنوعة لديهم، وكان لإقبالهم على اللغة العربية والشعر والأدب في صغرهم أثر في رسوخ ملكاتهم في هذه العلوم فيما بعدُ.

ويذكر ابن خلدون أن العلَّامة أبا بكر العربي قد رسم منهجًا جديدًا في طريقة التعليم وهو أن يقدم طريقة تعليم العربية والشعر على سائر العلوم؛ وذلك لأن الشعر ديوان العرب، وفي تقديمه وتعليمه العربية ضرورة لتقويم اللغة عند الطفل، ثم ينتقل منه إلى الحساب ليُلِمَّ بما لا يصلح أن يجهله منه، يلي ذلك دراسة القرآن الكريم، كما نصح بأن ينظر في أصول الدين، ثم أصول الفقه، فالجدل ثم الحديث وعلومه، وينتقد ابن العربي المنهج الذي يفتتح بتعليم القرآن للصبي لعدم معرفته وفهمه لمسائله وقضاياه، كما أنه نهى أن يجمع في التعليم بين علمين، إلا أن يكون المتعلم على نصيب كبير من النباهة والقدرة

على الاستيعاب، فاهتم الأندلسيون بهذا الميدان اهتمامًا جيدًا، ومن الواضح أن الأجرة التي كان يدفعها الراغبون في العلم لم تكن تتمثل فقط في دفع مبلغ من المال للعالم أو الشيخ، وإنما كانت تتمثل أيضًا في تقديم هدايا عينية له وإكرامه أو ابتياع حاجة له.

كان من أهم مراكز التعليم في الأندلس هي المساجد، فقد عُدَّت المساجد من أهم المؤسسات العلمية والتعليمية التي عَرَفها الأندلسيون، حيث إنها كانت تعتبر النواة الأولى للتعليم قبل ظهور المدارس، حيث إن المدارس لم تظهر في الأندلس إلا في عصر دولة بني الأحمر في غرناطة، فالمسجد لم يكن مجرد مكان لأداء العبادة فحسب، بل كان مركز إشعاع علمي أيضًا.

ونظرًا لما امتازت به قرطبة من نشاط علمي وازدهار حضاري باعتبارها حاضرة الخلافة آنذاك ودار الملك، حظي جامعها الشهير بمكانة علمية لا تُضَاهَى، فكان دوره عظيمًا في نشاط الحركة العلمية في عصر الإمارة وما تلاه من عصور، حيث ضم بين أروقته حلقات العلم والدرس.

كان طلاب العلم في مسجد قرطبة يقومون بدراسة العديد من العلوم والآداب والفنون، مثل علوم الدين والأدب والتاريخ والجغرافيا والفلك، وغيرها من العلوم، بناءً على ذلك نستطيع القول: إن مسجد قرطبة كان بمثابة أكبر جامعة إسلامية تُدرس فيها العلوم الدينية واللغوية؛ لما ضمه بين جنباته من طلاب العلم من كافة الأنحاء والأرجاء.

الكتب في قرطبة

كانت قرطبة من أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وكان أهلها أشد الناس اعتناءً واهتمامًا بالمؤلفات والمصنفات في مختلف العلوم والآداب والفنون، حتى إن لم يكن للشخص منهم غرض من هذه الكتب كان يجعل له في منزله مكتبة تحوي مختلف العلوم للتباهي والتفاخر بها، وقد أورد في ذلك صاحب نفح الطِّيب قائلًا: «وهى أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن يكون في بيته خزانة كتب وينتخب فيها؛ ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصَّله وظفر به»، بمعنى أن اقتناء الكتب في الأندلس والحرص على شرائها كان شارة من شارات الرياسة والشرف حتى لدى الجهال الذين لا يفقهون ما تحويه بين دفتيه، وهذا ما سيقف القارئ الكريم عليه بشكل أكثر وضوحًا خلال الصفحات القادمة.

كما كان أهل قرطبة على قدر حبهم للعلوم والآداب والفنون، محبين أيضًا لمدينتهم قرطبة مفتخرين بها في كل موضع تطؤه أقدامهم، وكل مجلس يحفُّهم، ومما ورد في ذلك أنه قامت مناظرة بين ابن رشد القرطبي وابن زهر الإشبيلي في حضرة ملك المغرب المنصور يعقوب الموحدي، رد ابن رشد فيها على ابن زهر قائلًا: **«ما أدري ما تقول: غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه**

حُمِلَت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُمِلَت إلى إشبيلية، قال: وقرطبة أكثر بلاد الله كتبًا.»

ينبغي الإشارة هنا إلى أنه يعود الفضل في ازدهار قرطبة، وجعلها تعجُّ بصنوف العلماء والأدباء، ومختلف الكتب والمصنفات التي تحوي جميع العلوم والفنون والآداب إلى حكام بني أمية الذين أَوْلَوا العلم وأهله كل عناية ورعاية، ومنهم الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي لم يكن يتوانَ في إحضار الكتب المهمة من المشرق، حيث بعث في بداية عهده الشاعر الأندلسي عباس بن ناصح الجزيري إلى المشرق للبحث عن الكتب القيِّمة واستنساخها، فجلب له منها طائفة كبيرة، كما قصده التجار بكتب الحكمة التي أُخِذَت من قصور العباسيين في فتنة الأمين والمأمون.

كذلك كان الخليفة الناصر من حكام بني أمية المُولَعين بجمع الكتب من سائر الأقطار، كما أنه كان محبًّا للعلوم والآداب والفنون، حتى إن مكتبة قصره احتوت على كتب بجميع اللغات؛ لذلك عندما سمع عنه ملك الهند آنذاك «ملو»، أهداه بعض الكتب؛ منها: كتاب «كليلة ودمنة» وكتاب «الحروف المنزلة على آدم عليه السلام» وغيرهما.

كما فاق الخليفة الحكمُ المستنصر أباه الناصر في الاهتمام والعناية بالكتب والعلم والعلماء، فلم يكتف الحَكَم بإرسال رجاله إلى المشرق لشراء ما ندر من كتب وإحضارها له، بل «**أقام للعلم والعلماء سوقًا نافقة جلبت إليها بضائعه**[1] **من كل قطر**»، ومما ذُكِرَ

---

(١) ويقصد بالبضائع هنا الكتب في مختلف العلوم والفنون.

عنه أنه كان جمَّاعًا للكتب مُولعًا بها حتى إنه «**جمع منها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله**»، وقيل في موضع آخر: «**جمع من الكتب ما لا يُحَدُّ ولا يوصَف كثرة ونفاسة**»، وذُكِرَ عنه أن خزائن كتبه كانت تضم بين طياتها ما يربو على أربع مائة ألف مجلد.

المكتبات في قرطبة

كان حكام بني أمية - كما وضحنا سابقًا - يبعثون التجار ليجوبوا الأقطار المشرقية، ويقوموا بشراء كل ما يقع تحت أيديهم من كتب نادرة، أو غير موجودة لديهم وجلبها إلى الأندلس، ومن هذه الكتب التي أرسل حكام بني أمية في طلبها: كتاب «الأغاني» لأبى الفرج الأصفهاني، حيث أرسل الخليفة الحكم إلى أبي الفرج بألف دينار من الذهب نظير هذا الكتاب، فأرسل له الأخير نسخة منه قبل ظهوره في العراق، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن الحكم؛ كما كان حكام الأندلس يرسلون العلماء إلى الأقطار المشرقية لجلب كُتب بعينها أحيانًا، من ذلك إرسال الأمير عبد الرحمن الأوسط (١٧٦-٢٣٨هـ/ ٧٩٢-٨٥٢م) لعباس ابن فرناس، الذى أحضر له كتاب «القرش»، وبلغ ثمنه ثلاث مائة دينار، هذه الكتب وغيرها كانت النواة التي بُنِيَت عليها المكتبات الأندلسية آنذاك.

ظهرت أولى المكتبات الأندلسية في أوائل القرن الثالث الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي)، عندما أسس الأمير عبد الرحمن الأوسط مكتبة ضخمة في قرطبة، ضمت المؤلفات في كل العلوم

والآداب والفنون، حتى إنه ذُكِرَ أن خزانة العلوم والكتب بدار بني أمية كانت تحوي من الفهارس التي فيها أسماء الكتب أربعًا وأربعين فهرسة، وفي كل فهرسة عشرون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين، كما قيل: إن الخزانة شملت أربع مائة ألف مجلد، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها.

لم يكتفِ حكام بني أمية بجلب الكتب من المشرق والمغرب، بل اهتموا كذلك بجمع الحُذَّاق من الصناع والمهرة في النسخ والضبط والإجادة والتجليد وغيرها مما يتعلق بشؤون الكتابة في قصورهم حتى يقوموا بنسخ وضبط وتجليد ما يريدونه من مؤلفات، وكان من أشد حكام بني أمية عناية بهذا الأمر الحَكَم المستنصر.

بلغ من عناية حكام بني أمية بهذه المكتبات وما تحويه من مصنفات في كل العلوم والآداب والفنون أنهم كانوا يعينون النُّسَّاخ الخاصين بهم ويوكلون لهم مهمة نسخ كتب بعينها عدة نُسَخ للمحافظة عليها من الضياع أو الاندثار إذا تعرضت لنوائب الدهر، وكان هؤلاء النُّسَّاخ بعد أن ينتهوا من مهمة نسخ هذه الكتب يقابلونها بالنسخة الأصلية، وذلك تأكيدًا منهم على إتقانها وصحة ضبطها، بل بلغت عناية بني أمية بالكتب أنهم كانوا يختارون كبار العلماء في الدولة ليقوم بالإشراف على النُّسَّاخ أثناء نسخهم ومقابلتهم النسخ التي نسخوها من المؤلف الذي طلب منهم، ومن الأمثلة على ذلك: طلب الخليفة الحَكَم المستنصر من أبي على القالي أن يُشْرِفَ على بعض النساخ الذين يقومون بنسخ ومقابلة كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدي.

أن تكون هذه المكتبات الخاصة مملوكة للحكام ورجال الدولة لا يعني أنهم كانوا يمنعون ما تحويه من كتب عن مريديها، بل كان حكام الأندلس إذا طلب منهم أحد العلماء كتابًا معينًا موجودًا في مكتبة أحدهم؛ بادروا على الفور بإنفاذه له.

وقد بعث عباس بن فرناس لعبد الرحمن الأوسط يطلب منه كتاب «المثال في العروض» للخليل بن أحمد الفراهيدي[1] (ت ١٧٠هـ/ ٧٨٦م) عقب علمه بوصول تجار الكتب به، فبعث به إليه، وعقب انتهاء ابن فرناس من قراءته ردَّه إلى الأمير وأخبره أن لهذا الكتاب كتابًا آخر سابقًا ومفسرًا لما فيه، فطلب منه الأمير عبد الرحمن الأوسط الذهاب إلى المشرق لإحضاره.

اعتنى علماء الأندلس بشراء الكتب من كل موضع تطؤه أقدامهم، فقد ذُكِرَ عن أبي الفضل السلمي[2] (ت ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م) أنه: «**كانت له كتب في البلاد التي ينتقل إليها، بحيث إنه لا يستصحب كتبًا في سفره اكتفاءً بما له من الكتب في البلد الذي يسافر إليه.**»

كان اقتناء الكتب في الأندلس شارة من شارات الرياسة والشرف حتى عند الجهال، ويقدِّر الباحثون عدد مكتبات الأندلس العامة

(١) أبو عبد الرحمن بن أحمد عمرو بن تميم الفراهيدي: ينتمي إلى الأزد، وكان من أشهر وأتقن النحاة في عصره، استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد في عصره، وما لا يسبقه إليه أحد ممن كان قبله، توفِّي عام ١٧٠هـ/٧٨٦م، وقيل: ١٧٥هـ/٧٩١م. الزَّبيدي: طبقات النحويين واللغويين، ص٤٧-٥١.

(٢) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السلمي المَرسي: وُلِدَ بمَرسية عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م، رحل إلى المشرق، ونزل بمصر والحجاز، ثم سار مع قافلة الحجاج إلى بغداد، فأقام بها يسمع ويقرأ الفقه والخلاف والأصلين بالنظامية، ثم سافر إلى خراسان، وسمع بنيسابور وهراة ومَرْو، وعاد مرة أخرى إلى بغداد وحدَّث بها، كما أنه رحل إلى مصر وحدَّث بها أيضًا، ثم خرج من مصر قاصدًا الشام، فمات في طريقه إليها، وكان ذلك عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م.

بنحو ستين مكتبة أنشأها الخلفاء الأمويون وغيرهم، بل يقال: إن غرناطة وحدها كانت بها سبعون مكتبة عامة، وكان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة يشتغلن بكتابة المصاحف، هذا في ناحية من نواحي قرطبة، فكيف بجميع أحيائها، بل إن دكان نسخ واحد بقرطبة كان يستخدم مائة وسبعين جارية في نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة.

ما سبق كما يوضح مدى عناية العلماء وحرصهم الشديد على اقتناء الكتب من كل حدب وصوب، وبذلهم الغالي والنفيس لأجل الحصول عليها، يوضح أيضًا كثرة ما امتلكوه منها جراء حبهم وشغفهم باقتنائها إلى الحد الذي يجعل لأحدهم مكتبة في كل موضع تطؤه قدمه، حتى لا يضطر إلى أن يصطحب مكتبته معه إلى كل قطر ينتقل إليه.

أيضًا من مظاهر عناية أهل الأندلس بالكتب وحبهم لها، أنهم كانوا يقومون بعزاء من فَقَد كتبه، ومن أمثلة ذلك: أن عبد الرحمن بن موسى الهواري[1] عند قدومه الأندلس من رحلته إلى المشرق، وقع له حادث ببحر تدمير، ففقد جميع كتبه، فعندما قَدِمَ إلى بلده أتاه الناس يهنئونه بقدومه، ويعزُّونه عن ذهاب كتبه، فقال لهم: «**ذهب الخرج، وبقي الدرج**» يقصد: ما في صدره.

(١) عبد الرحمن بن موسى الهواري: يُكَنَّى: أبا موسى، سكن إستجة، رحل إلى المشرق طلبًا للعلم، وكان ذا علم واسع بالعربية والفقه والتفسير، له كتاب في تفسير القرآن، وقيل: إنه تولى القضاء زمن الأمير عبد الرحمن بن الحكم.

الأسواق في قرطبة

اشتملت مدينة قرطبة على أسواق تضم كافة الحِرَف والصناعات، ومما يدل على ذلك ما ذكره ابن الخطيب حيث قال: «**كانت مدينة تشتمل على آلاف من الخلق، قد اتخذت فيها المرافق والمساجد والحمام والسوق، ولو تتبعنا أصنافهم، وما كانوا يحاولون من صناعات، وينافسون به المشرق من بضائعهم، ومقدار جِرَاياتهم ونفقاتهم؛ لضاق عنه الكتاب.**»

كذلك أورد ابن الخطيب بشأن ازدهار أسواق قرطبة، وتضمنها لكافة الحِرَف والصناعات قائلًا: «**وبلغت المدينة من الاتساع والانبساط وبُعْد الأقطار إلى أن كانت أرباضها**[1] **إحدى وعشرين ربضًا، كل ربض منها يُعَدُّ أكبر مدينة من مدائن الأندلس**»، ثم استطرد ابن الخطيب ذاكرًا تلك الأرباض، كان عدد أرباض قرطبة واحدًا وعشرين ربضًا، في كل ربض منها من المساجد والأسواق والحمامات ما يقوم بأهله، ولا يحتاجون إلى غيره، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تعدد وسعة أسواق قرطبة التي تحوى كافة المهن والصناعات والبضائع حتى إن كل أهل ربض لا يحتاجون إلى الذهاب إلى أسواق خارج ربضهم، ومما يدلل على ذلك أيضًا ما ذُكِرَ على لسان بعض العلماء: «**أُحْصِيَت دور قرطبة التي بها وأرباضها أيام ابن أبي عامر (ت ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م) فكان مائتي ألف دار وثلاثة عشر ألف دار وسبعًا وسبعين دارًا، وهذه دور الرعية، وأما دور الأكابر والوزراء والكُتَّاب والأجناد وخاصة الملك فستون ألف**

---

(١) الربض: هو كل مكان يؤوى إليه ويُسْتَرَاح فيه، وبالضم: وسط الشيء وأساس البناء؛ الجمع: أرباض.

دار وثلاث مائة دار، سوى مصاري[1] الكراء والحمامات والخانات، وعدد الحوانيت ثمانون ألف حانوت وأربع مائة وخمسة وخمسون.»

كان من أشهر الأسواق في قرطبة هو سوق الوراقين[2]، حيث كان هذا السوق موضعًا لجذب كافة أطياف المجتمع من علماء وأدباء وقادة فضلًا عن العامة شرقًا وغربًا، وذلك لما له من سمعة طيبة.

حتى إن المهلب[3] بن أبي صفرة (ت ٨٢هـ/ ٧٠١م) كان يوصي ابنه قائلاً له: «**يا بني، لا تقم في الأسواق إلا على زرَّاد - صانع الدروع - أو ورَّاق**»؛ لذلك فقد شكل سوق الوراقين ورواده من رجالات الفكر والأدب ظاهرة حضارية أغنت الحياة الفكرية والأدبية والسياسية والاجتماعية؛ وذلك للتنوع المعرفي الذي كانت تموج به هذه الأسواق.

---

(١) جمع مصرية وهى غرفة علوية منعزلة، تُكْرَى أو تُجْعَل للخدم.

(٢) عرف السمعاني الوراق بقوله: «هو من يكتب المصاحف وكتب الحديث وغيرها، وقد يقال لمن يبيع الورق وهو الكاغد ببغداد الوراق أيضًا.» وقيل: إن الوراق هو من يقوم بانتساخ الكتب وتصحيحها ونشرها بين الناس، وقد يكون هو الناسخ أو غيره، إلى جانب قيامه بما يتبع عملية النسخ من التجليد والتذهيب وبيع الورق والأقلام والمحابر وغيرها من أدوات الكتابة، وهذا يعني أن الوراقين كانوا يقومون بما تقوم به دور النشر في العصر الحديث من الطبع والتوزيع وبيع الورق وأدوات الكتابة.
كان يُطْلَقُ على الوراقين قبل دخول صناعة الورق إلى بلدان العالم الإسلامي اسم «المصحفيين»؛ وذلك لأن الوراقة في بداياتها إنما نشأت من الاهتمام والعناية بالمصحف الشريف كتابةً ونقشًا، وكان مالك بن دينار (ت ١٣١هـ/٧٤٨م) مولى أسامة بن لؤي بن غالب هو أول «المصحفيين»؛ وذلك استنادًا لما رُوِيَ عنه أنه «كان يكتب المصاحف بالأجرة»، وقد دخل عليه جابر بن زيد الأزدي (ت ٩٣هـ/٧١٣م) فوجده يكتب المصحف فقال له: «ما لك صنعة إلا أن تنقل كتاب الله من ورقة إلى ورقة، هذا والله كسب الحلال، هذا والله كسب الحلال»، وقد انتشرت هذه التسمية حتى طغت على الورَّاقين الذين ينسخون الكتب غير المصحف؛ كما كان يُطْلَقُ عليهم أيضًا النساخون.

(٣) المهلَّب بن أبي صفرة الأزدي: وكنيته أبو سعيد، هو من أهم ولاة الأمويين على خرسان، حيث ولَّاه الحجاج عاملًا عليها عام ٧٨هـ/٦٩٧م، توفِّي عام ٨٢هـ/٧٠١م.

تجاوزت شهرة أسواق الوراقين حدود المشرق متجهة صوب الأندلس؛ ونظرًا لرحلات الأندلسيين إلى المشرق واطلاعهم على أحوال بلدانه لم يرجع الرحالة إلى الأندلس محمَّلين بنوادر الكتب والمخطوطات في مختلف العلوم والفنون؛ بل كانوا يعودون محمَّلين برغبتهم في تقليد المشرقين في كافة نظمهم الحياتية؛ لذلك اعتنى الأندلسيون بالأسواق عامة، وخصَّصوا الأسواق للوراقين وتعاملوا معها بنفس النمط الذي كان ساريًا في المشرق.

وَفَدَ إلى سوق الوراقين بقرطبة كل راغب في اقتناء الكتب، سواء كانت غايته الإفادة منها أو المباهاة بها؛ حيث اشتهر الأندلسيون - وبخاصة في العهد الأموي - بعنايتهم الشديدة بالعلم، وحرصهم على اقتناء الكتب، حتى إن الجاهل منهم والذي لم يوفَّق إلى العلم، ويكون على درجة من الثراء، كان يقتني ويحرص على أن تكون له مكتبته الخاصة التي يفتخر بما تضمه من كتب، ومن طريف ما ذُكِرَ عن أهل الأندلس بهذا الشأن ما أورده المقري التلمساني في مؤلَّفه الزاخر «نفح الطيب» حيث قال: «**قال الحضرمي: أقمت بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدةً أترقَّب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخط جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليَّ المنادي بالزيادة عليَّ، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: يا هذا، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي، قال: فأراني شخصًا عليه لباس رياسة، فدنوت منه، وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدِّه، قال: فقال لي: لست بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها**

لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير؛ قال الحضرمي: فأحرجني، وحملني على أن قلت له: نعم، لا يكون الرزق كثيرًا إلا عند مثلك، يُعْطي الجوز مَنْ لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب، وأطلب الانتفاع به، يكون الرزق عندي قليلًا، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه.»

يعلق خوليان ريبيرا على هذا الموقف قائلاً: «**ولكن الإعجاب الحقيقي بالكتاب انحدر فيما بعدُ، وأصبح مجرد عبث لا طائل من تحته، وأخذ لونًا شكليًّا صِرْفًا، فالخاصة والذين يريدون الزهو بأن لديهم مكتبة فحسب، لم يتركوا لغيرهم فرصة الحصول عليه، وما أكثر المرات التي تراجع فيها عشاق الكتب الحقيقيين، ومن يعرفون كيف يقدرون محتواها أمام راغب فيه واسع الثراء، خلال «المزايدات» التي كانت تشهدها قرطبة، يدفع في الكتاب أي ثمن، ويبذل كل جهده للحصول عليه، ولكنه لا يعرف عما يتحدث، وكل ما هنالك أن تجليده فخم، أو أن حجمه مناسب ليملأ فراغًا محددًا كان بالصدفة موجودًا في أرفف مكتبته.**»

هذه الحادثة لا تعبر بحال من الأحوال عن انحدار الاهتمام بالكتب كما يذكر ريبيرا، فمثل هذه الحادثة لا ينبغي أن تُعَمَّم على جميع المَعْنِيِّين بشراء الكتب والمهتمين بها على أنهم لا يقومون بشرائها إلا في سبيل الفخر والخيلاء أمام الخاصة أو العامة؛ بل إن هذه الحادثة توضح إلى أي مدى بلغ الاهتمام بالكتب في الأندلس،

من حيث الذهاب والتجول في أسواق الوراقين بحثًا عنها، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الحصول عليها حتى لمن لا يريدون منها شيئًا، ولا علم لهم بما تحوي بين دفتيها، فمثل هذه الحادثة لا تدل على انحدار الاهتمام بالكتب، بقدر ما تدل على الازدهار الذى وصل إليه المجتمع الأندلسي حتى إن العامة والخاصة على حد سواء يحرصون كل الحرص على أن لا تخلو منازلهم من مكتبة تضم بين رفوفها مختلف ألوان العلوم والآداب والفنون.

ما سبق لا يعني أن المدن الأندلسية الأخرى قد خَلَتْ من أي وجه من أوجه النشاط العلمي والمعرفي أو غيره من أوجه النشاط الإنساني واقتصر هذا النشاط على قرطبة؛ بل على العكس فقد اشتهرت إشبيلية بعلمائها حتى عهد ملوكها من بني عباد في القرن الخامس الهجري (العاشر الميلادي)؛ ولعل من دلائل نهضة إشبيلية وتألقها العلمي، أنه كان بها سوق خاصة بالكتب مثلها مثل قرطبة، ويتردد إلى هذا السوق أهل العلم والآدب؛ بحثًا عن نفائس الكتب ونوادرها، هذا بالإضافة أنه كان لعناية أهلها بالكتب واشتغال الكثير منهم بتجارتها أن كان بها شارع يسمى شارع الوراقين، كذلك نشطت الحركة العلمية في طليطلة وبلنسية وغرناطة وغيرها من المدن الأندلسية الأخرى حتى في عهد ملوك الطوائف، وذلك بالرغم من تشرذمهم وتطاحنهم إلا أنهم اهتموا بالعلوم وأنفقوا على أهلها وطلابها، ومما يدل على ذلك أنهم كانوا غالبًا ما يتباهون فيما بينهم كما أورد صاحب نفح الطيب مرددين: «**العالم الفلاني عند الملك الفلاني، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني.**»

المرأة في قرطبة

لم يكن التعليم أو الثقافة في الأندلس حكرًا على الرجال دون النساء، بل كان تعليم النساء شائعًا عند الأندلسيين، وكانت كثيرات منهن يحفظن عدة دواوين من شعر العرب، ويَنْظِمْن ويترسَّلْن كالأوربيات اليوم، وقد بلغت بعضهن من المكانة أنها كانت أستاذة تدرس أمهات الكتب الأدبية واللغوية للرجال، مثل: إشراق السويداء التي قال فيها أبو داود سليمان بن نجاح: «**أخذتُ عنها العروض، وقرأتُ عليها النوادر لأبي علي القالي، والكامل للمبرد، وتوفِّيت سنة ٤٤٣هـ.**»

فقد نالت المرأة في الأندلس قسطًا وافرًا من التعليم في الوقت الذي كانت المرأة الأوربية فيه تُعَدُّ مخلوقًا في الدرجة الثانية طبقًا للمذهب الكاثوليكي؛ ولهذا قَلَّما كانت تنال حظًّا من الثقافة إلا في طبقات النبيلات، حيث كُنَّ ينلن قشورًا من الثقافة لا تكاد تعدو القراءة والكتابة، هذا في الوقت الذي فازت فيه المرأة الأندلسية بمنصب الأستاذية، ونالت بعضهن مناصب غريبة حتى إن «لبانة» كانت تشغل وظيفة سكرتيرة خاصة للخليفة الحكم، واشتهر من النساء عدد كبير كُنَّ يساجلن الرجال في ميادين الشعر والعلم والفن، وكُنَّ زينة مجالس السحر والطرب والغناء، وكان لبعضهن صالونات أدبية تضم عظماء الرجال في الفنون والآداب، روى ابن فياض في تاريخه أنه «**كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي**»، هذا في ناحية من نواحيها فكيف

بجميع أحيائها، بل كان في دكان نَسْخ واحدة بها مائة وسبعون جارية يشتغلن في نسخ المؤلفات لطلاب الكتب النادرة.

الخلاصة أن تعليم الفتيات في الأندلس كان من الأمور الشائعة بها، وكانت كثيرات منهن يحفظن العديد من الدواوين الشعرية، بل ويَنْظِمْنَ الشعر ويتغنين به، وقد بلغت بعضهن من المكانة أنها كانت أستاذة تدرِّس أمهات الكتب الأدبية واللغوية ليس للنساء فحسب، بل للرجال أيضًا، مثل: إشراق السويداء التي قال أبو داود سليمان بن نجاح عنها: «**أخذتُ عنها العَرُوض وقرأت عليها النوادر لأبي علي القالي والكامل للمبرد**»، وغيرها من النساء اللاتي بلغن بالعلم مكانة عالية، مثل: ولّادة بنت المستكفي، وطروب جارية الأمير عبد الرحمن الأوسط، وصُبْح جارية الخليفة الحَكَم، وغيرهن الكثير مما يضيق المجال للتفصيل فيه.

هذا وغيره جعل مدينة قرطبة ليست مصدر إشعاع لأرض الأندلس خاصة والبلدان والأقاليم الإسلامية عامة، بل أَضْحَتْ مصدر إشعاع للعالَم الأوربي آنذاك، هذا العالم الذي كانت قرطبة تعجُّ بالمنتسبين إليه من طلاب العلم والثقافة، وهذا ما حمل الشاعرة الألمانية هروزثيا على وصف قرطبة بأنها «زينة العالم».

عوامل ازدهار الحياة العلمية بقرطبة

يُعَدُّ الفتح العربي الإسلامي لشبه الجزيرة الأيبيرية بداية عصر جديد لها؛ حيث بدأت بذور التطور تظهر في حياة شعوبها وفي نظمهم العامة، ودخلت في طور حضاري لم تعرفه من قبل، فعند بداية الفتح

الإسلامي للأندلس كانت هناك حروب واضطرابات صرفت العقول عن الاهتمام بالعلم والثقافة، حتى إذا ما بدأت الأمور في الهدوء والاستقرار، وخاصة عقب عصر الولاة - الذى كان يغلب عليه طابع الحروب والمنازعات والثورات - وقيام دولة بني أمية التي بدأ بإرساء قواعدها عبد الرحمن بن معاوية (١١٣ـ١٧٢هـ/ ٧٣١ـ٧٨٨م)، فهذه كانت بداية ظهور الحركة العلمية في الأندلس ونموها وازدهارها فيما تلاه من عصور.

شهد القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) في الأندلس ازدهارًا حضاريًّا في كل أوجه النشاط الإنساني، ومنها بطبيعة الحال الميدان العلمي الذي برع فيه الأندلسيون، وأبدعوا في مجالاته المختلفة، ويرجع الفضل الأول في إثراء الحركة العلمية في الأندلس إلى الخلفاء الأمويين؛ حيث كان عصر الخلافة الأموية بالأندلس يمثل الانطلاقة الأولى والواسعة في ميادين الحضارة والبناء الفكري.

أَوْلَى أهل الأندلس عنايتهم لجميع العلوم والمعارف ما عدا الفلسفة والتنجيم؛ حيث كان يعتني بها بعض الخواص، ولا يتظاهرون بذلك بين الناس؛ لأن مَنْ عُرِفَ عنه ذلك كان يُطْلِقُ عليه العامة اسم زنديق[١] ويُضَيَّقُ عليه؛ ونظرًا لما امتاز به أهل الأندلس من حب للعلم وتعظيم لأهله، صارت الأندلس - وبخاصة قرطبة - تزخر بطلاب العلم في مختلف العلوم والفنون ونشطت حركة التأليف بها، وأصبحت الأندلس أحد شرايين الثقافة الإسلامية؛ بل وأحد المعابر الرئيسة لعبور النظم الحضارية الإسلامية إلى أوربا، وكان ذلك عن طريق البعثات والرحلات التي يقوم بها الأوربيون

(١) زنديق: كلمة عربية، وقيل: إنها فارسية معرَّبة، تُطْلَقُ على من يُضْمِر الكفر ويُظْهِر الإيمان.

إلى الأندلس والشام وصقلية؛ للاطلاع على آخر ما وصل إليه المسلمون من علوم، ومثال ذلك: البابا سلفستر الثاني أحد الأوربيين الذين نهلوا من علم الرياضيات في معاهد الأندلس سنة ١٠٠٣م.

تضافرت عدة عوامل أدت إلى ازدهار الحياة العلمية في الأندلس عامة وقرطبة خاصة؛ أهمها:

تنوع طوائف الداخلين إلى الأندلس:

دخل إلى الأندلس من المشرق قوم كثير «**لا تحصر الأعيانَ منهم، فضلًا عن غيرهم**»، وهذا النص الذي أورده صاحب نفح الطِّيب يوضح كثرة وتباين الأطياف الداخلة من المشرق والمغرب إلى الأندلس؛ حيث تنوَّعوا ما بين علماء وفقهاء وأدباء؛ بل دخلها بعض من التابعين.

إضافة إلى أحد الصحابة الذين مَنَّ الله –جل وعلا– عليهم برؤية النبي ﷺ وهو المنيذر الإفريقي[1] هذا فضلًا عن بعض من التابعين وعلى رأسهم موسى بن نصير وحنش[2] الصنعاني وابن أبي جبلة[3] وغيرهم.

---

(١) وقيل: المنيذر اليماني، من أهل إفريقية، قدم غازيًا إلى الأندلس مع موسى بن نصير.

(٢) حسين بن عبد الله الصنعاني: ولقبه حنش، دخل الأندلس غازيًا مع موسى بن نصير عام ٩٣هـ/٧١٢م، وكان ممن ثار مع عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان، وقد أتى به عبد الملك مكبلًا بالقيود ثم عفا عنه، وكان أول مَنْ تولى عشور إفريقية في الإسلام، توفِّي بإفريقية عام ١٠٠هـ/٧١٨م، وذُكِرَ أنه نزل مصر ومات بها، في حين يذكر أبو محمد الباجي وغيره أنه دخل الأندلس ونزل سرقسطة وأسَّس جامعها، مات بها وقبره معروف بها.

(٣) حبان بن أبي جبلة: غزا الأندلس مع موسى بن نصير، واستمر في الغزو إلى أن توفِّيِّ في حصن من حصونها يقال له: قرقشونة، وكان ذلك عام ١٢٥هـ/٧٤٣م، وقيل غير ذلك.

استقرار أوضاع البلاد:

نشطت الحركة العلمية في الأندلس في العصر الأموي، وبخاصة في عصر الخلافة (٣٠٠-٤٢٠هـ/ ٩١٢-١٠٢٩م) نشاطًا لا مثيل له، حتى غَدَتْ قرطبة قاعدة ومركزًا للعلوم والفنون والآداب، وأصبح اسم قرطبة ذا ارتباط وثيق بالعلم؛ حيث أصبح العلم مَعلمًا من معالم قرطبة البارزة، وكان ذلك نتيجة طبيعية للأمن الداخلي والاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي الذي عَمَّ الأندلس عامة وقرطبة خاصة في ظل حكامها الأمويين.

استطاع عبد الرحمن بن معاوية (١٣٨-١٧٢هـ/ ٧٥٥-٧٨٨م) توحيد الأندلس تحت حكومة مركزية واحدة، بعد أن كانت البلاد تترنح في فوضى الاضطرابات في عهد الولاة؛ حيث عمل عبد الرحمن الداخل على تثبيت أركان دولته الناشئة، فأنفق جهده في إخماد الثورات الداخلية التي قامت ضده، وكل الدعوات التي كانت لها صبغة غير الصبغة الأموية، فقد ذُكِرَ عنه أنه «**دوَّن الدواوين، ورفع الأواوين، وفرض الأعطية، وعقد الألوية، وجنَّد الأجناد، ورفع العماد، وأوثق الأوتاد، فأقام للملك آلته، وأخذ للسلطان عدته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك وحذروا جانبه وتحاموا حوزته، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس، واستقل له الأمر فيها.**»

سار أبناء الداخل وأحفاده على نهجه في الاستقلال بالأندلس، وتوطيد حكمهم فيها، وظلت الأوضاع تهدأ حينًا وتضطرب حينًا آخر حتى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط[1] (١٧٦-٢٣٨هـ/ ٧٩٢-

---

(١) للاطلاع على سيرته وما قدمه للنهوض بدولته التليدة، انظر: رجال صنعوا التاريخ - التاريخ الأندلسي-.

٨٥٢م)، الذي امتاز عهده بالهدوء والاستقرار السياسي؛ مما أدى به إلى التفرغ للاهتمام بشؤون دولته، التي استمرت واحدًا وثلاثين عامًا، فكثرت الأموال في خزائنه، واتخذ القصور والمتنزهات، ونظم شوارع قرطبة، وزاد في مساجدها، كما أنه أنشأ المساجد في الكثير من مدن الأندلس، وشجع العلوم والآداب والفنون، فظهر في بلاد الأندلس في أيامه نوابغ العلم.

يعتبر عصر عبد الرحمن الأوسط عصر بَذر بُذور النهضة في الأندلس؛ وذلك نظرًا لما نعم به من استقرار سياسي كما أوضحنا أعلاه؛ حيث لم يقع في عهده من الأحداث السياسية ما يؤرِّق الدولة ويحُول بينها وبين خَلْق نهضة علمية أينعت ثمارها في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م) الذى ازدهرت في أيامه الأندلس أيما ازدهار، وخاصة بعد إعلان نفسه خليفة، وغَدَتْ قرطبة عاصمة الخلافة الأموية، ونافست في عظمتها عظمة القيروان وبغداد والقاهرة وبخارى ودمشق، وأَضْحَتْ قِبْلة العلماء والشعراء والكُتَّاب، وجعل عبد الرحمن ومن بعده ابنه الحَكَم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م) منها دولة قوية عزيزة الجانب، حتى يمكن أن يقال: إن قرطبة لم تكن في عهد من عهودها أغنى ولا أكثر ازدهارًا في أي وقت مما كانت عليه في عهد الناصر وابنه الحَكَم.

انعكست ظلال هذا الرخاء والازدهار الاقتصادي في الأندلس على حياة الأندلسيين، حيث حفلت كتب التاريخ بأنباء قصورهم الشاهقة وشوارعهم الأنيقة، فهم أول مَنْ عني برصف شوارع المدن بالحجارة وإضاءتها بالمصابيح، حتى إن هذه المصابيح كانت تمتد

إلى عشرة أميال، ويوازن الدكتور «حتى» بين حواضر الأندلس القرنين العاشر والحادي عشر وبين لندن وباريس في القرنين السابع عشر والثامن عشر، فيقول: «**إن لندن لم يتحقق لها قنديل واحد عمومي حتى ما بعد ذلك بسبع مائة سنة، وأما في باريس فبعد ذلك ببضعة قرون كان الذي يتخطى عتبة داره في يوم ماطر لا يأمن الخوض في لُجَّةٍ من الوحل.**» أعتقد أن الدكتور «حتى» لو قارن بين الأندلس في هذا الزمن البعيد، وبين بعض البلاد والقرى العربية والإسلامية لن يزيد عما قيل، وإن زاد سيكون للأسوأ وليس الأفضل.

تشجيع الحكام والولاة ورجال الدولة للعلم وأهله:

كان الحكام الأمويون في الأندلس على درجة كبيرة من الوعي، مكَّنتهم من تقدير قيمة العلم وإنزال أهله المنازل العليا، أضف إلى ذلك أنهم كانوا على قدر وافر من العلم والثقافة، فكانوا يَنْظِمون الشعر، ويشتركون مع الكُتَّاب والشعراء وعلماء اللغة في مجالس يجري فيها نوع من المساجلات الأدبية والمناظرات العلمية، وكان من أبرز الحكام الأمويين الذين عنوا بالعلم وأكرموا أهله الأمير عبد الرحمن الأوسط، وكان مشجعًا للعلوم والآداب والفنون، مولعًا بالفلك والتنجيم، أحاط نفسه بنخبة من العلماء والأدباء، وأجزل لهم العطايا من أجل الإسهام في نهضة دولته والسير بها قدمًا نحو التقدم والرقي.

كذلك من حكام بني أمية الذين أَوْلَوا جُلَّ عنايتهم بالعلم وأهله الخليفة عبد الرحمن الناصر، ففي عهده كثر الإنتاج العلمي وشاعت المعرفة، ومما يشهد بذلك كثرة المؤلفات التي أسهم بها العلماء الأندلسيون في مختلف فنون العلم والمعرفة؛ أيضًا شجع الحَكَم المستنصر العلم، وأنزل أهله المنازل العليا، وكان محبًّا للعلم مكرمًا لأهله فاق في ذلك أباه الناصر، بل إن الحَكَمَ المستنصر بلغ من سعة علمه إلى حد أنه كان ملمًّا بكثير من فروع العلم المعرفة خاصة العلوم العقلية، حتى ذُكِرَ عنه أن خزائن كتبه التي كانت تضم بين طياتها ما يربو على أربع مائة ألف مجلد قَلَّما يوجد بها كتاب إلا وله فيه «**قراءة أو نظر في أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده لعنايته بهذا الشأن**».

أشاد فيليب حتى عند حديثه عن الحياة العلمية في قرطبة في عصر الحَكَم فقال: «**على أن أهم مآثر هذه الحقبة لم تكن في حلبة السياسة، بل في ميدان الثقافة، فقد كان الحَكَم عالمًا محبًّا للعلم والعلماء، فجمعهم من الأقطار، وأجرى عليهم المرتبات، وابتنى سبعًا وعشرين مدرسة يتعلم فيها أحداث - أبناء - العاصمة مجانًا، وفي عهده ازدهرت جامعة قرطبة التي أسسها عبد الرحمن الثالث في الجامع الكبير، فأصبحت في عداد معاهد العلم الراقية في العالم العربي، وبَزَّت الأزهر في القاهرة، والنظامية في بغداد، وقصدها الطلاب من نصارى ومسلمين، لا من إسبانيا فحسب بل من بلدان أوروبية أخرى**

أيضًا، ومن إفريقية وآسيا، ووسع الحَكَمُ نطاق المسجد الجامع الذي عُقِدَت حلقات التدريس الجامعي فيه، ثم استدعى إلى الجامعة أساتذة من المشرق وقف أموالًا لمرتباتهم»؛ كذلك من الغربيين الذين أشادوا بالحياة العلمية في هذه الحقبة الأندلسية دوزي حيث قال: «**إن كل فرد تقريبًا كان يحسن القراءة والكتابة.**»

وصل تشجيع حكام بني أمية للعلم وأهله أن بعض العلماء كانوا يقومون بتأليف بعض الكتب خصيصًا للحكام؛ مثل: خالد بن سعد[(١)] (ت ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) الذي أَلَّف كتابًا في تراجم رجال الأندلس للحَكَم المستنصر، ولم يكن الاهتمام بالكتب والحرص على دعوة العلماء لتأليفها مقتصرًا على الحكام الأمويين فحسب، بل امتد هذا الاهتمام إلى ولاتهم على الأمصار، حيث كانوا يحرصون أيضًا على الاهتمام بالعلم، ودعوة العلماء في الأمصار التي يتولون مقاليد حكمها لتأليف الكتب الخاصة لهم، بل إنهم كانوا يضيفون إلى هذه الكتب، فقد صنَّف أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الحجازي كتاب «المسهب في غرائب المغرب»[(٢)] لعبد الملك بن سعيد[(٣)] (ت ٥٦٢هـ/ ١١٦٧م) صاحب قلعة بني سعيد[(٤)] زمن علي بن يوسف

---

(١) خالد بن سعد: يُكَنِّي أبا القاسم، من أهل قرطبة، كان أحد أئمة الحديث البارعين فيه آنذاك، وكان يحدِّث الناس في المجالس.

(٢) عُرِفَ هذا الكتاب فيما بعدُ باسم «المغرب في حلي المغرب»، وكان عبد الملك بن سعيد هو السبب في تأليف كتاب «المغرب في أخبار المغرب»، ثم تممه ابنه محمد بن عبد الملك، ثم تمم ما بقي منه ابنه موسى بن محمد، ثم أربى على الكل في إتمامه أبو الحسن على بن موسى.

(٣) عبد الملك بن سعيد: وُلِدَ بمراكش عام ٤٩٦هـ/١١٠٣م، وتوفيِّ بها.

(٤) قلعة بني سعيد: عُرِفَت بذلك نسبة إلى سكانها من بني سعيد، وكانت تُعْرَف من قبل بقلعة أسطلير وبقلعة يحصب.

بن تاشفين، وكان الكتاب في ستة أسفار، ولم يكتفِ عبد الملك بن سعيد بما أورده الحجازي في الكتاب مما دفعه للإضافة إليه بنفسه، وقد أولع بمطالعته ابناه: أبو جعفر ومحمد، وأضافا له ما استفاداه، ولم يزالا يزيدان إلى الكتاب إلى أن استبدَّ به محمد بن عبد الملك بن سعيد[1] (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م)، فاعتنى به أشد الاعتناء، ثم اعتنى بالكتاب حفيد عبد الملك بن سعيد وهو أبو الحسن ابن موسى[2] (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م).

هذه العناية التي أولاها الحكام الأمويون وولاتهم على الأمصار بالعلم وأهله أدت إلى طمي بحر التأليف في الأندلس، والذى تميز إلى جانب كثرته بتنوعه، ومما يدل على ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما رُوِيَ عن ابن حزم الأندلسي الذى قال عنه ابنه أبو رافع الفضل: «**اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه نحو أربع مائة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة**»؛ بل بلغ من توقُّد ذهن الأندلسيين أن المؤلَّفَ الواحد لديهم كان يتضمن عدة أجزاء بلغت في بعض الأحيان المائة، ومن الأمثلة على ذلك كتاب «العالم» لمؤلفه ابن سيد اللغوي[3] (ت ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م)، وهو مُؤَلَّفٌ في اللغة بلغ كما ذُكِرَ نحوًا من مائة سفر.

---

(١) محمد بن عبد الملك بن سعيد: صاحب أعمال غرناطة وإشبيلية، وُلِدَ عام ٥١٤هـ/١١٢٠م، وكان وزيرًا جليلًا، وَلِيَ للموحدين أعمالاً كثيرة بمراكش وسلا وإشبيلية وغرناطة، وكان من شيوخ غرناطة وأعيانها، وقد اتهم أن في داره من الحلي وأصنافه ما لا يكون إلا في دار الملك، فأمر المنصور الموحدي بالقبض عليه ثم رضي عنه.

(٢) أبو الحسن ابن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد: وُلِدَ عام ٦١٠هـ/١٢١٣م، كان من أولع الناس بالتجول في البلدان، ومشاهدة الفضلاء، والاستفادة مما يرى ويسمع.

(٣) أحمد بن أبان بن سيد اللغوي الأندلسي: كان من أئمة اللغة والعربية في زمانه، تولى شرطة قرطبة؛ لذلك عُرِفَ بصاحب الشرطة، أخذ عن أبي على القالي وغيره، تصدَّر لشرح كتاب الأخفش وغيره من الكتب.

رغبة أهل الأندلس في طلب العلم:

إن تدفُّق الأموال على قرطبة عاصمة الخلافة خاصة، والمدن الأندلسية عامة، وازدهار الحياة الاقتصادية بها ساعد على استقرار أوضاع البلاد، وهذا بدوره هيَّأ المناخ العلمي المناسب لطلاب العلم؛ مما أدى إلى إقبالهم على العلم بشغف ونَهَم، وسلكهم كل ما تيسر لهم من سبل للبحث عنه وتحصليه؛ يضاف إلى ذلك اضطراب الأوضاع في إفريقية آنذاك؛ مما دفع الكثير من علماء إفريقية إلى الهجرة إلى المغرب الأقصى والأندلس؛ بل إن هذا الاستقرار الأمني والرخاء الاقتصادي والإقبال على تحصيل العلم، دفع الكثير من أبناء الأندلس للارتحال إلى المشرق لكي يتمكنوا من تحصيل العلوم من منابعها الأصلية كما سبق الإشارة إليه.

كان من أسباب براعة الأندلسيين في العلوم والفنون التي اعتنوا بها أن العالم فيهم كان يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه، وقد كان هذا الباعث كثيرًا ما يدفعه إلى ترك العمل الذي يستفيد ويكتسب منه، وينفق من عنده حتى ينال حظه من العلوم والفنون التي يريدها، وكان الجاهل فيهم الذي لم يوفَّقْ إلى طلب العلم يسعى إلى تعلم إحدى الحِرَف أو المهن حتى يتميز فيها، وقد وصفهم صاحب نفح الطيب قائلًا: «**إنهم – أهل الأندلس – أحرص الناس على التميز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يُرَى فارغًا عالة على الناس؛ لأن هذا عندهم في غاية القبح.**»

لعل من أهم الدلائل كذلك التي تؤكد عشق الأندلسيين للكتب، وحبهم للعلم بباعث من أنفسهم ورغبة في العلم والتعلم ما ذُكِرَ في

رواية المقري عن أبي الصلت أمية بن أبي الصلت الإشبيلي[1] (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) أنه سُجِنَ في إحدى خزانات الكتب بمصر مدة عشرين سنة «**فخرج في فنون العلم إمامًا**»، فلا غَرْوَ أن يوصف أهل الأندلس بكونهم: «**هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم فيها وضبطهم لها وروايتهم، بغداديون في ظرفهم ونظافتهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وحسن نظرهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم**»؛ كما وصف أهل الأندلس أيضًا بأنهم «**صينيون في إتقان الصنائع العملية وإحكام المهن الصورية**»، وهو ما يدل على ما تميَّزَ به أهل الأندلس إضافة إلى كثرة العلم وتنوعه من سعة الأفق واحتدام الذكاء.

أيضًا مما يدل على توقُّد ذهن الأندلسيين وعلو همتهم وعنايتهم بتحصيل العلوم والآداب والفنون ما رُوِيَ عن أبي علي القالي أنه كان دائم التعجب من ذكاء أهل الأندلس حتى إنه كان في بعض الأحيان يمتنع عن الدخول معهم في المباحثات والنقاشات قائلاً لهم: «**إن علمي علم رواية، وليس بعلم دراية، فخذوا عني ما نقلت، فلم آل لكم أن صححت**»، وذلك بالرغم مما اشتُهِرَ عنه من سعة العلم والفضل.

---

(١) أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت الإشبيلي: وُلِدَ بدانية عام ٤٦٠هـ/١٠٦٨م، ثم رحل إلى الإسكندرية أيام الخليفة الفاطمي المستنصر بالله أبي تميم معد، وسُجِنَ بمصر مدة، ثم عاد إلى المغرب فاتصل بيحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي، قيل عنه: إن عمره كان ستين سنة قضى منها عشرين في بلده إشبيلية، وعشرين في إفريقية عند ملوكها الصنهاجيين، وعشرين في مصر مسجونًا في خزانة الكتب، وكان أبو الصلت طبيبًا شاعرًا، له العديد من المؤلفات؛ منها: كتاب «الحديقة»، توفِّي بالمهدية عام ٥٢٠هـ/١١٢٦م، وقيل: ٥٢٨هـ/١١٣٤م.

صناعة الورق:

كانت صناعة الورق سرًّا من الأسرار التي حاول الصينيون الاحتفاظ بها لأنفسهم أكثر من خمسة قرون متعاقبة؛ إلا أن الورق انتشر بعد ذلك في كوريا واليابان[1] ثم اتجهت صناعته إلى بلدان العالم الإسلامي[2]؛ حيث عرف العرب الورق الصيني عن طريق بعض الرحالة والتجار الذين أحضروا بعضًا منه[3]، فاستُعْمِلَ في الكتابة؛ لكن كان ذلك على نطاق ضيق؛ حيث إنه لم ينتشر بينهم إلا بعد أن تم تصنيعه في بلادهم.

لم تلبث صناعة الورق أن انتقلت إلى بلدان العالم الإسلامي؛ حيث تم تأسيس أول مصنع للورق في بغداد عام ١٧٦هـ/ ٧٩٤م، وكان ذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد (ت١٩٣هـ/ ٧٩٤م)، وتشير المصادر أن مَنْ قام بإنشاء هذا المصنع وزير الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي[4] (ت ١٨٧هـ/ ٨٠٣م)، وظلت صناعة الورق

(١) انتشرت صناعة الورق خارج الصين ببطء شديد، حيث وصلت إلى كوريا في القرن الثاني الميلادي، وانتقلت من كوريا إلى اليابان في القرن الثالث الميلادي، وهناك مَنْ يذكر أنها انتقلت إلى اليابان في القرن السابع الميلادي.

(٢) غزا المسلمون مدينة «أطلح»، وهي أحد المدن الصينية عام ١٣٤هـ/٧٥٢م، ووقع في يدهم ضمن السبي من يجيدون صناعة الكواغيد، فأحلوهم في سمرقند - أحد المدن التي فتحها المسلمون على يد القائد قتيبة بن مسلم عام ٩٣هـ/٧١٢م - وأنشأوا هناك المصانع لصناعة الورق، فكثرت الصنعة حتى صارت متجرًا لأهل سمرقند، ومنها صارت تحمل الكواغد إلى سائر بلدان المشرق، وقد كان من أهم أسباب ازدهار هذه الصناعة ورواجها في سمرقند توفر المواد الخام اللازمة لصناعة الورق مثل ألياف وخيوط الكتان ونبات القنب، إلى جانب منابع المياه الغزيرة التي يحتاجها إنتاج الورق.

(٣) عرف العرب صناعة الورق منذ عهد معاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه)، ولكنه لم ينتشر في البلدان الإسلامية إلا بعد أن تم إنشاء المصانع له وتصنيعه في بغداد، فانتشر منها إلى بقية بلدان العالم الإسلامي.

(٤) أبو الفضل جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك: كان جده خالد بن برمك وزير السفاح، واتُّهِمَ بالمجوسية، أما أبو الفضل جعفر كان وزير هارون الرشيد، وكان له منزلة عالية لدى الرشيد انفرد بها عن

منحصرة في العراق[1] وبلاد ما وراء النهر حتى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)؛ ثم انتقلت في منتصف هذا القرن إلى بلاد الشام؛ بل ازدهرت هناك، وظلت لعدة قرون مصدر تموين العالم من الورق، فالمقدسي يذكر أن دمشق وطبرية وفلسطين كان يرتفع سعر الورق في زمنه، وقد ضاهى الورق الشامي الورق السمرقندي في جودته؛ بل إن ناصر خسرو في رحلته إلى الشام تحدَّث عن الورق الشامي قائلًا: «**ويصنعون بها - الشام - الورق الجميل مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه.**»

طوَّر العرب صناعة الورق، وخطوا بها خطوات واسعة في طريق التقدم والجودة؛ ويعلق آدم متز على ذلك قائلًا: «**كان أجود الورق في ذلك العصر بمملكة الإسلام هو الكاغد الذي نُقِلَت صناعته من الصين، وناله على أيدي المسلمين التغيير الهام الذي يعتبر حادثًا في تاريخ العالم، فإن المسلمين نقوه مما كان يُسْتَعْمَل في صناعته من ورق التوت ومن الغاب الهندي.**»

استمرت صناعة الورق في الزحف من المشرق إلى الغرب الإسلامي[2] فانتقلت إليه في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر

غيره، وكان يتميز بسماحة الأخلاق والكرم وسعة العطاء، كما تميز بالفصاحة وجزالة اللسان، حيث كان من المشهورين باللسان والبلاغة.

(١) كان الموضع المختص بصناعة الورق في العراق يسمى دار القز، وهي محلة كبيرة ببغداد في طرف الصحراء، وكانت ضمن المحلات الصناعية التي استطاعت أن تصمد بوجه الخراب الذى زحف على بغداد بسبب البويهيين والسلاجقة.

(٢) الغرب الإسلامي: المراد به كل ما يقابل المشرق من بلاد، وقد اختلف الجغرافيون والمؤرخون في تحديد مدلوله، فقال البعض: «إن حد المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية، التي تلي بلاد المغرب إلى آخر بلاد المغرب، وحده مدينة سلا»، كما يضيف آخرون أن: «بلاد الأندلس أيضًا من المغرب، وداخله فيه لاتصالها به»، وهناك من يقول: إن «بلاد المغرب كالجزيرة، يدخل فيها بعض أعمال مصر وإفريقية كلها والزاب

الميلادي)، ولم تلبث أن عبرت البحر إلى الأندلس، والجدير بالذكر أن العالم الأوربي لم يكن طوال هذه الفترة جاهلًا بالورق، حيث قام بعض التجار بجلبه من الشرق وأدخلوه إلى أوربا، وبدأ يستعمله الأوربيون في كتابة المخطوطات، وإن لم يكن صُنِعَ فيها أو حل محل الرقوق والجلود.

أدخل المسلمون صناعة الورق إلى بلاد الأندلس، وتأسس أول مصنع للورق في مدينة شاطبة[1] واشتهرت شاطبة بجودة ورقها وغزارة إنتاجه، فقد تحدث عنها الإدريسي عند زيارته لها قائلًا: «**ومدينة شاطبة مدينة حسنة ولها قصاب يُضْرَب بها المثل في الحسن والمنعة ويُعْمَلُ بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ويعم المشارق والمغارب**»، ومن شاطبة انتقلت صناعة الورق إلى مدينة طليطلة[2] في القرن نفسه؛ كما كان يوجد في بلنسية[3] أيضًا مصانع للورق، واستمرت هذه المصانع أو المعامل في عملها حتى بعد سقوطها في يد الإسبان، ثم توالت بعد ذلك إقامة مصانع الورق في بقية البلدان الأوربية.

أنتجت مصانع الورق في الأندلس جميع أنواع الورق بما فيها الأبيض والملون، وكان الورق الشاطبي يُصَدَّرُ إلى كافة أرجاء

والقيروان والسوس الأدنى والسوس الأقصى وبلاد الحبشة».

(١) شاطبة: بالطاء المهملة والباء الموحدة: مدينة في شرقي الأندلس وشرقي قرطبة، اشتقاقها من الشطبة وهى السعفة الخضراء الرطبة، وشطبت المرأة الجريدة شطبًا إذا شققتها لتعمل حصيرًا، والمرأة شاطبة.

(٢) طليطلة: مدينة كبيرة يتصل عملها بعمل وادى الحجارة من أعمال الأندلس، وهي غربي ثغر الروم بين الجوف والشرق من قرطبة، وكانت قاعدة ملوك القرطبيين وموضع قرارهم، ظلت في أيدي المسلمين إلى أن ملكها الفرنج عام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م.

(٣) بلنسية: قاعدة من قواعد الأندلس، تشتهر بكثرة الأسواق ورواج التجارة.

الأندلس آنذاك، وإلى ذلك أشار ياقوت الحموي بقوله: «وهي – يقصد شاطبة – مدينة كبيرة قديمة، قد خرج منها خلق من الفضلاء، ويُعْمَل الكاغد الجيد فيها، ويُحْمَل منها إلى سائر الأندلس»، بل هناك مَنْ ذَكَرَ أن الورق الأندلسي كان يُصَدَّرُ أيضًا إلى المشرق.

انتشار حركة الترجمة:

تعتبر حركة الترجمة في الإسلام من أنشط الحركات في التاريخ وأشملها وأطولها نفسًا، وقد أسهمت فيها الدولة والأفراد على حد سواء، وأُعِدَّت لها العدة من إنشاء بيوت الحكمة؛ حيث يلتقي فيها المترجمون، وتُحْفَظ فيها ترجماتهم، وتُرْسَل البعوث شرقًا وغربًا للبحث عن المؤلفات والمصنفات في العلوم المتباينة، ويُستقدم المترجمون الذين يعرفون لغتين أو أكثر، وكان جُلُّهم من السريان[1] ولم يلبث المسلمون أنفسهم أن انضموا إليهم، فترجموا عن العبرية والسريانية والفارسية وغيرها.

مرَّت حركة الترجمة في المشرق الإسلامي وعبر أربعة قرون من تاريخها ابتداءً من القرن الأول وحتى منتصف القرن الرابع الهجريين بمراحل مختلفة من النضج والكمال، فالترجمة في القرن الأول الهجري تختلف عنها في القرون التالية، حيث كان التباين بينهما في أمور عدة: منها ثقافة المترجم، ومعرفته بالمادة المترجمة، ودرجة

(١) ترجع القيمة العلمية في ترجمات السريان إلى جانب معرفتهم العميقة باللغات العربية واليونانية والسريانية إلى أن طريقتهم في النقل أقرب ما تكون إلى الطريقة العلمية؛ لأنهم كانوا يعيدون ترجمة الكتاب الواحد مرات عديدة، ويصححون الترجمات القديمة على نصوص يونانية مختلفة، ويقابلون بين الترجمات والمخطوطات الأصلية ذاكرين الفروق بينها.

إتقانه للغات التي يترجم إليها، والمصادر التي يترجم عنها، إلى غير ذلك من أمور هي من صفات الترجمة ومميزاتها.

والجدير بالذكر أن هناك من يعيب على العرب ترجمتهم لعلوم السابقين ويقلل من أهمية الإضافات التي أضافوها إلى تلك العلوم؛ فأمثال هؤلاء لا يدركون أن نقل المسلمين لعلوم الأقدمين كان حفاظًا لتراث الإنسانية من الاندثار؛ أما قولهم: إن الإضافات التي أضافها العرب غير ذات قيمة أو محدودة إذا ما قيست بالمستوى الذى وصلت إليه المعرفة في الحضارات الأوربية الحديثة حتى اليوم، فهذا صحيح؛ ولكن ما أحدثته حركة الترجمة في العصور الإسلامية كان يُمثِّل بالمقياس العالمي المعاصر آنذاك نهضة كبرى، وموردًا ميسرًا للمعرفة بالنسبة لكل الشعوب والأمم التي تلتها.

اتبع الأندلسيون[1] سبيل المشارقة في الاهتمام بنقل علوم الأمم الأخرى، وخاصة اليونان، كما اعتنى الخلفاء والأمراء في الأندلس - إضافة إلى العلماء وذوي الوجاهة والثروة منهم - بتشجيع انتقال كتب العلم المترجمة في شرق العالم العربي الإسلامي إلى خزائنهم، ولم يكتفوا بإحضارها إلى الأندلس، بل عملوا على تفسيرها وإصلاح ما تُرْجِمَ منها سابقًا، وقد جاء في كتاب ابن جلجل[2]

---

(١)الأندلسيون: ظهر هذا المصطلح منذ أواخر القرن الثالث الهجري (أوائل القرن العاشر الميلادي)؛ وذلك عندما اختفت ألفاظ أخرى؛ مثل: مسالمة ومولَّدين، وأغلب الظن أنه مصطلح ديني؛ لأنه لا يشمل أهل الذمة الأندلسيين، ولغوي لأن اللغة العربية عمَّت الأندلس بينما تركزت في الشمال الإفريقي في المدن، ويبدو أنه يتم التمييز بين العدوتين على هذا الأساس.

(٢) محمد بن حسان: المشهور بابن جلجل من أهل قرطبة كان طبيبًا فاضلاً، خبيرًا بالمعالجات، جيد التصرف في صناعة الطب، عاش زمن هشام المؤيد بالله، الخليفة الأموي الثالث بقرطبة، اعتنى بالأدوية المفردة، وفسَّر أسماءها واستخداماتها مستعينًا في ذلك بكتاب ديسقوريدس.

(طبقات الأطباء والحكماء) أن كتاب ديسقوريدس في الأعشاب قد تُرْجِمَ في بغداد أيام الخليفة جعفر المتوكل[1] (ت ٢٤٧هـ/ ٨٦١م) من اليونانية إلى العربية، على يد إسطفان بن باسيل[2]، وقد وردت نسخة إلى الأندلس من الترجمة المذكورة، وفيها نقص كبير، وذلك في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر (ت ٣٦٦هـ / ٩٦١م)، أهداه له «أرمانيوس» ملك القسطنطينية مصوَّرة فيه بعض النباتات الطبية بالألوان؛ ونظرًا لأنه لم يكن في ذلك الوقت في قرطبة مَنْ يقرأ الخط اليوناني طلب عبد الرحمن الناصر من «أرمانيوس» أن يبعث إليه برجل يحسن اللاتينية واليونانية؛ ليقوم بشرح وتفسير ما غمض من أسماء ومصطلحات وردت في هذا الكتاب، فأرسل له راهبًا يُدْعَى نقولا، فاشترك مع عدد من علماء الأندلس في تفسير وشرح الكتاب، ولم يكتفِ علماء الأندلس بتفسير وشرح الكتاب، بل صححوا ببحوثهم بعض أسماء العقاقير الواردة في ترجمة الكتاب، كما صححوا النطق بأسمائها.

فيقول جوزيف ماك متحدثًا عن المسلمين في الأندلس:

«وقد أضافوا إلى الأشعار العربية والفارسية تراجم أشعار اليونانيين، وترجموا بالعربية كتب أرسطو وأفلاطون وإقليدس وسائر كتب المتقدمين، وألَّفوا كتبًا كبارًا تبهر العقول في الطب والجغرافية والفلسفة والفلك والكيمياء والتاريخ.»

(١) المتوكل على الله جعفر أبو الفضل بن المعتصم بن الرشيد: أمه أم ولد تُدْعَى (شجاع) وُلِدَ عام٢٠٥هـ/٨٢٠م، وقيل: عام٢٠٦هـ/٨٢١م، بُويع له بالخلافة عام ٢٣٢هـ/٨٤٦م بعد الواثق، فأظهر الميل إلى السنة ونصر أهلها ورفع المحنة، وكتب بذلك إلى الآفاق، واستقدم المحدِّثين من سامراء، فأجزل لهم العطاء.

(٢) كان يقارب حنين بن إسحاق في النقل، إلا أن عبارة حنين أفصح وأجمل.

نشأت في الأندلس مدرسة لترجمة العلوم من اللاتينية إلى العربية، فأنجبت عددًا من العلماء أغنوا ببحوثهم علوم الطبيعة والطب والفلاحة وعلم النبات؛ حيث جمع الطبيب أحمد بن محمد الغافقي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) نباتات إسبانيا وإفريقيا، وسمى كلًّا منها بأسمائها العربية واللاتينية والبربرية، وكذلك فعل معاصره الشريف الإدريسي.

نقل الأندلسيون إلى اللغة العربية كل ما وجدوه من تراث الأمم الغابرة، وخاصة المؤلفات اليونانية في مجالات الرياضيات والعلوم والطب والفلك والفلسفة وفروعها، «**ولكن ذلك لم يدم طويلًا، فلم تلبث الأندلس أن استقلت فكريًّا، ولمعت في سمائها أسماء عريضة لعلماء فطاحل؛ أمثال: ابن رشد وابن زاهر وابن طفيل، الذي تُرْجِمَت كتبه إلى عدد كبير من اللغات الأوربية**[١] **وابن باجة وابن البيطار**[٢] **وابن فرناس وابن الخطيب وابن خلدون مؤسس علم الاجتماع وابن سبعين**[٣] **وغيرهم من الأعلام**»، فالفتح الإسلامي للأندلس كما ذكر

(١) بدأ عصر ترجمة العلوم من العربية إلى اللاتينية في القرن الثامن الهجري (الثالث عشر الميلادي)، ونشأت في القرن نفسه جامعات في أوربا ألهبت حماس الشباب الأوربيين إلى الاغتراف من بحر المعرفة الذى لا ساحل له، ولفتت الأنظار إلى المؤلفات العربية، من علمية ونظرية.

(٢) ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقي: كان من أبرع علماء زمانه في علم النبات، بل ذُكِرَ أنه كان أوحد زمانه في إتقان هذا العلم، من أشهر مصنفاته كتاب «الأدوية المفردة»، توفِّي بدمشق عام ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م.

(٣) أبو محمد عبدالحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر المرسي: درس العربية والآداب على علماء بلدته مرسية، ثم انتقل إلى سبتة، وانتحل بها التصوف، وكان يقصده الناس للأخذ عنه، ثم رحل إلى المشرق للتزود بالعلم، كما أنه تصدَّر لنشر علمه، وسمع منه أهل المشرق وأخذوا عنه.

د. العبادي «**لم يكن مجرد احتلال عسكري صعدت فيه الجيوش الإسلامية إلى أقصى الشمال، ثم هبطت إلى الجنوب مثل الترمومتر أو ميزان الحرارة؛ بل كان حدثًا حضاريًّا هامًّا امتزجت فيه حضارة سابقة كالرومانية والقوطية مع حضارة جديدة لاحقة وهي الحضارة الإسلامية، ونتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزدهرة وصلت إلى الفكر الأوربي المجاور وأثرت فيه، فالفتح العربي لإسبانيا كان ختامًا لدور سابق وبداية لدور إسلامي لاحق تغلغل في الحياة الإسبانية، وترك آثارًا عميقة ما زالت تتراءى مظاهرها بوضوح حتى اليوم.**»

كان على رأس المدن الأندلسية التي نشطت فيها حركة الترجمة مدينة طليطلة، ولم تقف حركة الترجمة من العربية إلى اللغات الأخرى؛ بل نقل العرب إلى اللغة العربية جُلَّ ما وجدوه من تراث الأمم الغابرة وأضافوا إليه، والجدير بالذكر أن ما حصَّله المسلمون عامة والأندلسيون خاصة خلال تلك الأدوار من التراث الثقافي اليوناني، وما أضافوه إليه، لم يصل إلى أوربا إلا بعد أربعة قرون، وذلك بعد ضعف الدولة الإسلامية وتدهورها.

لم تكن النهضة والازدهار العلمي في الأندلس قاصرة على مدينة قرطبة، بل شملت غيرها من المدن الأندلسية، لا سيما عقب دخول البربر إليها بالإفساد والتخريب؛ مما أدى إلى ضعفها وتدهورها؛ فَهَجَرَهَا العلماء والأدباء والفقهاء وغيرهم إلى غيرها من المدن الأندلسية، وذلك لاختلال الأمن والاستقرار بها، وبذلك فقدت

قرطبة أهميتها الثقافية والحضارية بعد أن أُلْغِيَت وظيفتها كعاصمة سياسية وإدارية وثقافية للأندلس، ومن ثَمَّ فإن الحركة الثقافية في قرطبة قد تقاسمتها المدن الأندلسية، وتنافست فيما بينها أن تتبوأ كلٌّ منها مركز الصدارة والزعامة الثقافية.



الخاتمة

قد يتساءل الإخوة والأخوات القراء عند الانتهاء من قراءة الكتاب أو أثناء قراءته عن الدروس الحياتية التي تم استنباطها من هذه المواقف الأندلسية، لِمَ هذه النظرة السوداوية التي طُبِعَتْ بها المواقف إذا تم إسقاطها على واقعنا المعاصر؟ ببساطة هذه ليست نظرة سوداوية بقدر ما هي تجسيد لواقعنا المرير الذي نَحْيَاه، وتسليط الضوء على بعض الظواهر الاجتماعية أو الأخلاقية السيئة أو الخاطئة ما هو إلا محاولة لمعرفة الداء، ومن ثَمَّ التفكير في الدواء الذي ينبغي علينا تناوله من أجل الانتقال والوصول إلى ما هو أفضل، فكما أن هذا العرض والطرح ليس بهدف المعرفة المجردة أو لمجرد الترف العلمي والمعرفي، فكذلك هذا العرض والطرح ليس لغرض الغرق في هذه السوداوية التي نحياها في ظل انحلال المجتمع الفكري والأخلاقي، وإنما نكرر لأجل الانتقال لما هو أفضل.

بناءً عليه ينبغي أن يكون التاريخ بالنسبة للناس عامة وللمتخصصين فيه خاصة، ليس مجرد دراسة لماضي غابر، وإنما قراءة للحاضر، واستشراف لما سيكون عليه المستقبل، وهذا لن يكون إلا بالمعرفة والاقتناع بمدى أهمية معرفة تاريخنا وتاريخ الأمم الغابرة على المستويين: الخاص والعام، وعلى مستوى الفرد والجماعة.

نختم حديثنا هذا بإحدى مقولات مالك بن نبي والتي تُكْتَبُ بمداد النور:

«التاريخ لا يبدأ من مرحلة الحقوق، بل من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى للكلمة، الواجبات الخاصة بكل يومٍ، بكل ساعة، بكل دقيقة، لا في معناها المعقد، كما يعقّده عن قصد أولئك الذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء، وشعارات كاذبة يعطلون بها التاريخ، بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة والمعجزات الكبيرة!»



المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

ابن الأبَّار (أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي)

- التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر (بيروت)، ١٩٩٥م.

ابن بسَّام (أبي الحسن على بن بسام الشنتريني، ت ٥٤٢)

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة (بيروت)، ١٩٩٧م.

ابن حزم الأندلسي (أبي محمد على بن أحمد بن حزم، ت٤٥٦ هـ)

- الأخلاق والسير، تحقيق: إيفا رياض، دار ابن حزم.

ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله بن عبد لله بن خرداذبة، ت٢٨٠هـ/ ٨٩٣م)

- المسالك والممالك، مطبعة بريل (ليدن)، دار صادر (بيروت)، ١٨٨٩م.

ابن الخطيب (محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الخطيب، ت ٧٧٥هـ/ ١٣٧٤م)

- الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي (القاهرة)، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

-الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة (بيروت)، ١٩٨٣م.

-أعمال الأعلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف (بيروت)، الطبعة الثانية ١٩٥٦م.

-معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق: محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة)، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

ابن سعيد المغربي (أبو الحسن علي بن موسى العنسي، ت٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)

- المغرب في حُلَى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف (القاهرة)، الطبعة الرابعة، ١٩٦٤م.

ابن عبد الملك المراكشي (أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي)

-الذيل والتكملة، تحقيق: إحسان عباس وآخرون، دار الغرب الإسلامي (تونس)، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.

ابن عبد ربه الأندلسي (أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ت ٣٢٨هـ)

-العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

-طبائع النساء وما جاء فيها من عجائب وغرائب وأخبار وأسرار، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن (القاهرة).

ابن عذاري المراكشي (أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري، ت ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م)

-البيان المُغْرِب في أخبار الأندلس والمَغْرِب، تحقيق: ج. س. كولان، وليفي بروفنسال، دار الثقافة (بيروت)، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣م.

ابن كردبوس (أبو مروان عبد الملك بن أبي القاسم التوزري، عاش في أواخر القرن السادس الهجري)

-الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق: صالح بن عبد الله الغامدي، الجامعة الإسلامية (المدينة المنورة)، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

ابن كثير القرشي

– عمر بن عبد العزيز، تقديم وتعليق/ أحمد الشرباصي، الدار القومية للطباعة والنشر.

أبو منصور الثعالبي، ت ٤٢٩ هـ.

-الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب، دار الصحابة للتراث (القاهرة)، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

الحميري (محمد بن عبد المنعم، ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م)

-الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان (بيروت)، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

خير الدين الزِّرِكْلِي، (ت١٣٨٦هـ/ ١٩٧٦م)

-الأعلام، دار العلم للملايين (بيروت)، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت ٧٤٨هـ/ ١٣٧٤م)

-تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

صفي الدين البغدادي شكيب أرسلان

- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة (بيروت)، ١٣٥٥هـ.

الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، ت٥٩٩هـ/ ١٢٠٣م)

-بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري (القاهرة)، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، ت ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م

- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعارف (بيروت)، الطبعة الأولى ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

المراكشي (أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي، ت ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)

-المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.

المقري (أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى المقري التلمساني، ت ١٠٤٠هـ/ ١٦٣١م)

-نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر (بيروت)، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

-أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة (القاهرة)، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣هـ)

-نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

ياقوت الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)

-معجم البلدان، دار صادر (بيروت)، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

ثانيـًا: المراجع العربية والمترجمة:

إبراهيم أحمد العدوي

- موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي، مجلة الكتاب العربي، العدد (٣٩)، ١٩٦٧م.

إبراهيم القادري بوتشيس

-ظاهرة التسول في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين، منشورات كلية الآداب (مكناس).

أحمد الطاهري

- دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس، منشورات كلية الآداب (مكناس)، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

أحمد مختار العبادي

-في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية (بيروت)، ١٩٧٢م.

أسعد حومد

-محنة العرب في الأندلس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)، الطبعة الثانية ١٩٨٨م.

جاسم سلطان

-فلسفة التاريخ، مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع (القاهرة)، الطبعة الرابعة ٢٠١٠م.

جاسم بن محمد القاسمي

-تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة (القاهرة)، ٢٠٠٠م.

جودة هلال، محمد محمود صبح

- قرطبة في التاريخ الإسلامي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٦م.

حسن إبراهيم حسن

-تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة)، الطبعة الرابعة عشر ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

حسين مؤنس

-معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد (القاهرة)، الطبعة الخامسة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

خليل إبراهيم السامرائي، وآخرون

-تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتاب الجديد المتحدة (بيروت ـ لبنان)، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

خليل خلف الجبوري

- الموانئ الأندلسية في عصرَي الإمارة والخلافة، دار صفحات، الطبعة الأولى ٢٠١٦.

خوليان ريبيرا

- التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف (القاهرة)، الطبعة الثانية ١٩٩٤م.

السيد عبد العزيز سالم

-تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية)، ١٩٨٥م.

-قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية)، ١٩٩٧م.

ريمون آرون

-فلسفة التاريخ النقدية، ترجمة: حافظ الجمالي، منشورات دار الثقافة (سوريا)، ١٩٩٩م.

رينهرت دوزى

- المسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

عبد الحليم عويس

- الحضارة الإسلامية إبداع الماضي وآفاق المستقبل، دار الصحوة (القاهرة)، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

-فلسفة التاريخ، دار الصحوة (القاهرة)، الطبعة الأولى ٢٠١١م.

عبد الرحمن الشرقاوي

- علي إمام المتقين، دار غربي للطباعة، ج٢.

عبد الرحمن علي الحجي

-التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧هـ/ ٧١١-١٤٩٢م)، دار القلم (بيروت)، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

عبد الوهاب المسيري

-الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ ... رؤية حضارية جديدة، دار الشروق (القاهرة)، ٢٠٠١م.

-موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق (القاهرة)، ١٩٩٩م.

-من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية، دار الشروق (القاهرة).

رحلتي الفكرية .. في البذور والجذور والثمار، الهيئة العامة ل-قصور الثقافة (القاهرة)، ٢٠٠١م.

علي الدجوي

-رواد الطب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٧.

علي عبد العظيم

- ابن زيدون، مجلة أعلام العرب، العدد (٦٦)، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧.

علي المنتصر الكتاني

-انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية (بيروت)، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

عواطف محمد يوسف نواب

- الرحلات المغربية والأندلسية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

علي الطنطاوي

-صور وخواطر، دار المنارة (السعودية)، الطبعة الرابعة ١٩٩٨م.

غوستاف لوبون

-سيكولوجية الجماهير، ترجمة: هاشم صالح، دار الساقي (بيروت)، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

محمد عبد الله عنان

-دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي (القاهرة)، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

محمد محمد زيتون

- المسلمون في المغرب والأندلس، الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

محمود الشرقاوي

-مصابيح على الطريق، الدار القومية للطباعة والنشر.

نوري معمر

- محمد بن وضاح القرطبي مؤسس مدرسة الحديث بالأندلس، مكتبة المعارف (الرباط)، الطبعة الأولى، ١٩٨٣.

ولاء يوسف أبو الضبعات

- الحياة العلمية في عهد الإمارة الأموية في الأندلس (١٣٨-٣١٦هـ/ ٧٥٥-٩٢٨م)، رسالة ماجستير، جامعة الخليل (الأردن)، ٢٠١٦.

ول وايزيل ديورانت

-قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل (بيروت)، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

يوسف بن أحمد حواله

-الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ٩٠-٤٥٠هـ، جامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.